موسوعة

المجتمعات الدينية في الشرق الأوسط

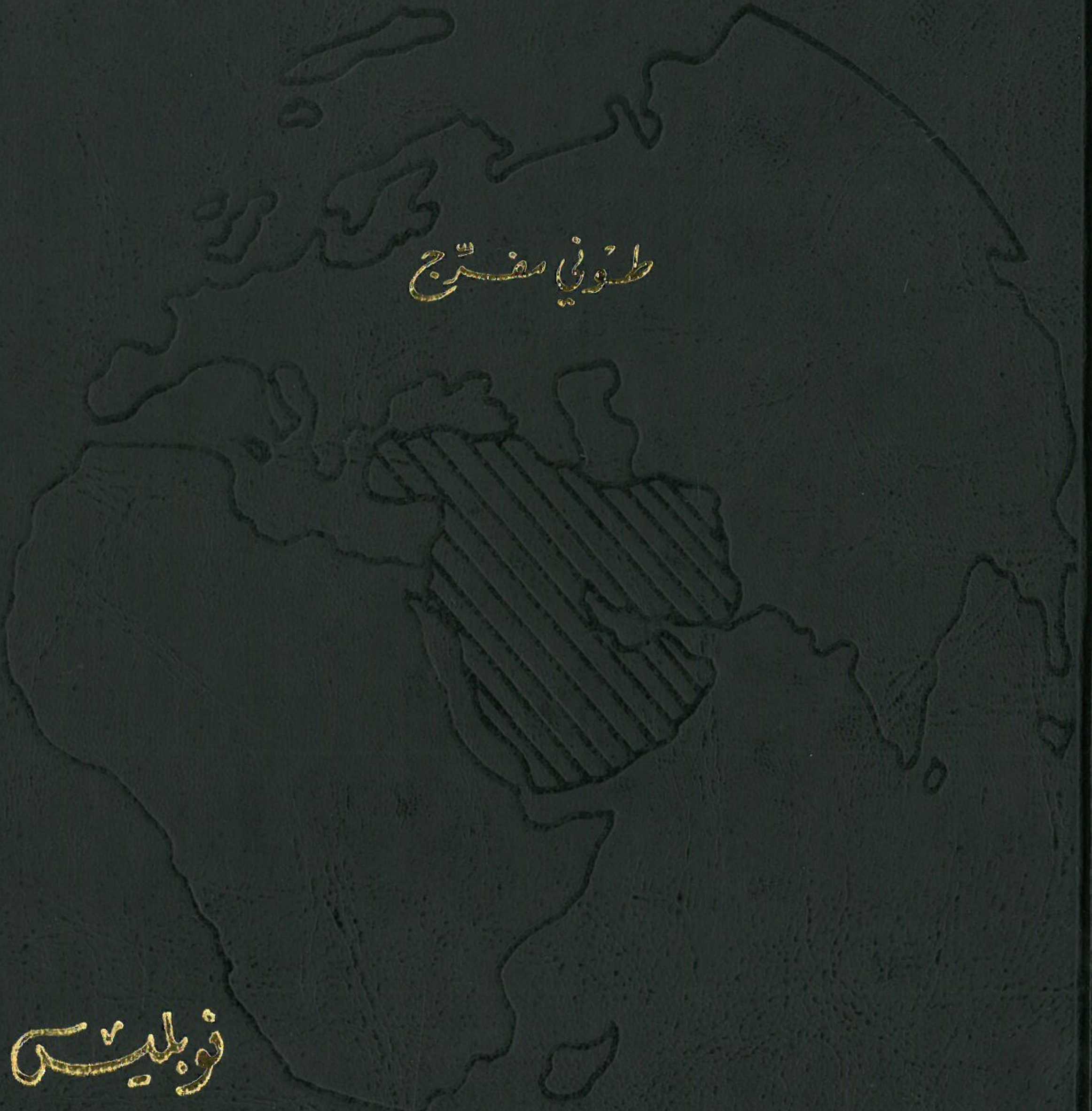

طوني مفرج

نوبليس

AR
200.3
M949m
v.2

طوني مفرج

مَوسُوعَة
المجتمعات الدينية في الشرق الأوسط

Nobilis (7 vols)

B.U.C. LIBRARY
16 MAR 1998
RECEIVED

المجلد الثاني

المسيحيون (١)

دار نوبيليس

نوبيليس
الأشرفيّة – بيروت – لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لا يسمح بنقل أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال من دون الحصول على إذن خطّي من الناشر.

الطبعة الأولى ١٩٩٥

محتوى المجلد الثاني

المجلّد الثاني: المسيحيّون – ١ –.

الفصل الأوّل: مؤسّس المسيحيّة.
* عصر المسيح ٩ * يسوع ١٦ * الرسالة ٢٠ * الصلب والقيامة ٢٨.

الفصل الثاني: المسيحيّة في قرنها الأوّل.
* الانتقال من اليهوديّة إلى المسيحيّة ٣١ * الانتقال من الوثنيّة إلى المسيحيّة ٣٤ *بولس «رسول الأمم» ورفاقه ٣٨ * كنيسة إنطاكية بعد كنيسة أورشليم ٤٢ * البدع والهرطقات ٤٥ * التنظيم الكنسيّ ٥٠ * الانتشار المسيحيّ ٥٢ * الحياة المسيحيّة في القرن الأوّل ٥٦.

الفصل الثالث: بين الاضطهاد والانتصار
* من كنيسة الرسل الى رسل الكنيسة ٦١ * ذروة الاضطهادات في القرنين الثالث والرابع ٦٧ * نهاية الاضطرابات ٧٦ * الصراع بين المسيحيّة والوثنية ٧٨.

الفصل الرابع: انقسامات بعد النصر
* إنطاكية وسائر المشرق ٨٥ * مسألة عيد الفصح ٨٧ * مسألة العائدين التائبين ٩٠ * مسألة آريوس ٩٧ * مسألة الدستور المؤرّخ ١٠٦ * مسألة أپوليناروس وسائر البدع ١١١ * مسألة نسطوريوس ١١٤ * مسألة أوطيخة ١١٨.

الفصل الخامس: بين الخلقيدونيّ والإسلام.
* من النسك إلى الرهبنة ١٣١ * الفكر المسيحيّ بين الوثنيّة والإسلام ١٤٧ * الكنيسة اليعقوبيّة ١٥٨ * الفرس قبل الإسلام ١٦١.

الفصل السادس: عشيّة الإسلام.
* المفترق الهرقليّ ١٦٥ .

الفصل السابع: إجتياح الإسلام للمسيحيّة في الشرق.
* من الجـزيرة إلى سـورية ١٧٥ * المسـيحـيّة في الشـرق بداية الفـتح الإسـلامي ١٨٣
* تمايز الكنيسة المارونية ١٨٦.

الفصل الثامن: المسيحيّة والخلافة الأمويّة.
* الامويون والبيزنطيون ١٩٧ * كنائس الشرق في العهد الأمويّ ٢٠٢ * الموارنة في لبنان ٢٠٣ * المسيحيّون في ظلّ الخلافة الأمويّة ٢١٠ * الدين والفكر واللاهوت ٢١٤.

الفصل التاسع: المسيحيّة في الشرق والعهد العبّاسيّ.
* المسيحيُّون عشيّة الإنقلاب ٢٢٣ * العبّاسيّون والكنيسة ٢٢٧ * من السريانيّة إلى العربيّة ٢٣٢ تمرّد في مصر ٢٣٧ * وفي القسطنطينيّة صراعات وانشقاقات ٢٣٩ * الإسلام والمسيحيّة يتجابهان ٢٤٦.

الفصل الأوّل

مؤسّس المسيحية

- عصر المسيح
- يسوع
- الرسالة
- الصلب والقيامة

عصر المسيح

في ذلك الزمان، كان العصر يونانياً - رومانياً، فكانت الحضارة المسيطرة على بلدان المتوسّط هلّينيّة، جاءت نتيجة الانسجام بين الحضارتين اللاتينيّة واليونانيّة منذ القرن الأوّل قبل الميلاد. وكان ذلك الانسجام قد أدّى إلى «تسوية» لمصلحة اللغة اليونانيّة التي بقيت لغة التعامل في الشرق، فيما أصبحت اللاتينيّة اللغة الرسميّة في الإدارة. وبينما أثبت الرومان تفوّقهم في الجانب التنظيميّ والسياسيّ، تفوّق اليونان في الفنون والفلسفة. وفي إطار هذا التزاوج الحضاريّ، كانت الحياة السياسيّة في هذه المنطقة التي كانت مدنها تمارس احتفالاتها ولهوها ونشاطها الفكري، بينما كانت الجماعات المحّلية تتمتّع بشيء من الاستقلال الذاتيّ في ظلّ تلك السلالات التي سمح لها الرومان بالبقاء في مراكز السلطة المحلّيّة تحت قيود قليلة، ومنها سلالة هيرودس في اليهوديّة، يقابلها سلالة الحارث في البتراء، وأذينة في تدمر. وقد احتفظت الجماعات المحلّيّة بدياناتها ولغاتها وعاداتها الخاصّة. بينما أخذ الرومان على عاتقهم مسؤوليّة الأمن والحماية، بواسطة الجيوش الإيطاليّة، مقابل جزية كانت تؤخذ من السكّان المحلّيّين عوضاً عن الخدمة العسكريّة.

وسط هذا النظام، لم يعد الكاهن الأعظم في اليهوديّة ملكاً، بل أصبح رئيس طائفة، وكانت الارستقراطيّة اليهوديّة هي التي تعيّنه. أمّا اللغة المحلّيّة، فكانت الآراميّة التي أضحت اللغة المحكيّة في كامل المنطقة من قبل شعوبها الساميّة، وكان المثقّفون من أهل البلاد يكتبون بلغة واحدة، هي اليونانيّة. إلاّ أنّ اليهود قد احتفظوا باللغة العبريّة في صلواتهم، كلغة مقدّسة.

هذا التنوّع البشريّ، في استقراره، أدّى إلى قيام مدن ذات نماذج مختلفة جنباً الى جنب في الطرف الجنوبيّ للهلال الخصيب. فإلى جانب المدن القديمة على الساحل، ومنها غزّة وعسقلان ويافة وعكّة، وكانت جميعاً قد اصطبغت بالهلّينيّة،

قامت المدن اليهوديّة التي بنتها الأسرة الهيروديّة ومنها: قيصريّة على الساحل، وسبسطية وطبريّة وقيصريّة فيليبّي، يليها بعض المستعمرات الرومانيّة القليلة، ومنها نيابولس - أي المدينة الجديدة - التي كانت تعرف بـ«شَكيم» قديماً، واصبحت تعرف فيما بعد باسم «فلافيا نياپولس»، وهي نابلس اليوم. ومنها عمواس على مسافة سبعه أميال الى الشمال الغربيّ من أورشليم وهي غير عمواس التي كانت تقع على الشمال الغربيّ من أورشليم.

وبقي في الداخل حلف «المدن العشر» أو «الديكابولِس». ومنها: بيت شان، وبيلا، وديون، وجرش، وفيلادلفيا، - هي عمّان اليوم - وجدرة، وسواها من المدن الواقعة اليوم في الأراضي السوريّة[1].

دينيّاً، كانت الوثنيّة على تعدّدها هي السائدة عند غير اليهود. أمّا اليهود، فقد طرأ على جماعاتهم ظهور بعض المذاهب، مما وزّعهم على طوائف دينيّة وسياسيّة مختلفة لكلّ منها كهانة وأسلوب حياة، وكان أشهر تلك الطوائف خمساً: الصدّوقيّين، والفريّسيّين، والأساة، والغلاة، والسامريّين.

الصدّوقيّون هم أتباع «صدّوق» وأسرته، ويَعتبر هؤلاء أنّ «صدّوق» وسلالته كانوا يتولّون أمر الكهانة الدينيّة منذ عصر داود وسليمان. وكان الصدّوقيّون متشدّدين في مقاومة السلوك غير اليهوديّ، متشبّثين بالتقاليد، مؤيّدين لسلطان الهيكل والكهانة الدينيّة. وكان هؤلاء محترفي كهانة، متوسّعين في أساليب المتعة والمعيشة، لا يرفضون التوسّع في الحياة بمشاركة الأجانب، والاندماج فيهم، رغم ادّعائهم التمسّك بالتقاليد.

الفرّيسيّون، تعود تسميتهم إلى «فروشيم» العبريّة، وترجمتها المميّزون. وكان هؤلاء أقوى من الصدّوقيّين بكثرة العدد وشيوع المبادئ والآراء، كما أنّ

١ - الدكتور فيليب حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة (بيروت ١٩٥٨) ج ١، ص ٣١١ - ٣٥١

سمعتهم بين جميع الفئات اليهوديّة كانت حسنة. رغم كلّ هذه المعطيات، لم يصل الفريسيّون إلى السلطة. مما جعلهم يعوّضون عن ذلك بالادّعاء الدينيّ، والتعالي في السلوك المحافظ بشكل واضح الأنانيّة والاستعلاء.

«الأساة» أو الأسيّون، طائفة يهوديّة عاصرت الميلاد، كانت تعتبر نفسها الجزء الوحيد المتبقّي من صميم الأمّة الإسرائيليّة، وكان أتباع هذه الطائفة مستقلّين بشعائرهم وعباداتهم وآرائهم وبكلّ ما له علاقة بأسرار الدّين والكهانة التي خلعوها على ذاتهم، وكانوا منطوين على أنفسهم، وهم قلّة بجانب المجموعات البشريّة اليهوديّة التي كانت تنقاد للصدّوقيّين والفرّيسيين. أمّا منشأ تسمية الأساة، فمن المرجّح أنه يعود إلى جذر ساميّ يفيد عن الحكمة أو الطبّ. فيكون معنى اسمهم «أطباء الروح» أو «الحكماء». والظاهر أن جماعات «الأساة» كانوا فعلاً يقومون بمحاولة إبراء المرضى بالصلوات والأوراد بالدرجة نفسها التي كانوا يدّعون بها العلم بخصائص الموادّ والعقاقير.

«الغلاة»، وهم طائفة يهوديّة أخرى من الطوائف الخمس التي كانت موجودة زمن ولادة المسيح، ويعتبر بعض الباحثين أنّهم فرع من الأساة، وكان هؤلاء متطرّفين ومبالغين في سلوك التقشّف إلى حد الصنعة الدينيّة المبتذلة، لذلك عُرفوا بالغلاة، كما عُرفوا بالجليليّين من أتباع يهوذا الجليليّ. وكانوا على قلّة عددهم ينظّمون حركات تمرّد ويقودون عصابات يهوديّة في مواجهة الأوامر القيصريّة. إلاّ أنّ هذه الحركات قد انتهت عندما تمكّن الوالي الرومانيّ من قتل يهوذا الجليليّ، فلم يبقَ من أتباعه سوى مسلك المبالغة في التقشَف الدينيّ الاستعراضيّ.

أمّا الطائفة الخامسة، في هذا السياق، فكانت الطائفة السامريّة، التي كانت تمثّل خليطا من اليهود والمتهوّدين من أشوريّين وسواهم، لذلك كانت الطوائف الأخرى في حالة نبذ دائم للسامريّين بسبب عدم انتمائهم للعرق العبرانيّ الأصيل. وإذ لم يبالِ السامريّون بنبذ سائر الطوائف ، بنوا لهم هيكلاً مارسوا فيه شعائر

هيكل بيت المقدس، ومارسوا فيه عبادتهم طوال مائتي سنة، حتّى هدمه أحد كهّان بيت المقدس خلال حملة قاسية كان هدفها التخلّص من آثاره، ولكنّ السامريّين أعادوا بناء هيكلهم في مكانه الأصيل في جرزيم السامرة، والى السامرة ينتسب هؤلاء في اسمهم.

كان السامريوّن، على عكس ما يدّعي خصومهم، يزعمون بأنّهم البقيّة الباقية على الدين الصحيح، وذلك استناداً الى أنّ يعقوب، الجدّ الأعلى للعبريّين، قد بنى معبده المكرّس لله في السامرة، وسمّاه «بيت إيل[1]»، وإلى أنّ موسى كان يجعل قبلته نحو «بيت إيل». ويعتبرون أنّ «داود وسليمان» قد غيّرا في شكل المجتمع الدينيّ بحسب هواهما، حتّى حوّلاه إلى مملكة الفرعون أو بختنآسر، وأنّهما حوّرا القبلة القديمة، مثلما غيّر الأنبياء الذين ظهروا بعد موسى شكل الدين وشوّهوه وحرّفوه[2].

أمّا عقيدة السّامريّين فتتلخّص بأربع نقاط:

الإيمان بإله واحد، وبأنّ هذا الإله روحانيّ بحت.

الإيمان برسوليّة موسى ويشوع بن نون.

الإيمان بتوراة موسى، وبأنّها كلام الله.

الإيمان بأنّ جبل جرزيم المجاور لنابلس هو المكان المقدّس الحقيقيّ، وهو القبلة الحقيقيّة الوحيدة لبني إسرائيل.

وكان السامريّون ينتسبون إلى هارون أخي موسى، وينتخبون كاهنا أعظم يسمّونه «الكاهن اللاويّ» أي المتحدّر من سبط لاوي (أو ليفي) الذي يتحدّر منه موسى وهارون، وكثيراً ما يكتفون بتسميته بلقب «الحبر الكبير».

١ ـ راجع: الدكتور حسن ظاظا، الفكر الديني الاسرائيلي: أطواره ومذاهبه، معهد البحوث والدراسات العربيّة. (بيروت ١٩٧١) ص ٢٤٨ ـ ٢٦٤

٢ ـ راجع: صابر طعيمة، التاريخ اليهوديّ العام، دار الجيل، (بيروت ١٩٩١) ج ٢، ص ٢٦٣ ـ ٢٨٠

بين هذه الطوائف الخمس، كانت القيادة العمليّة في المجتمع اليهوديّ زمن المسيح للفرّيسيّين وهم «المميّزون». أمّا العامّة من اليهود «الربّانيّين» فكانوا يوصفون على ألسنة زعمائهم الروحيّين بالصفة العبريّة «عام ها أرض» أي «عوام الأرض» أي «الجهّال». وكان الفرّيسيّون، مقابل ذلك، يلقّبون أنفسهم بلقب «حسيديم» أي «الأتقياء»، وبلقب «حبيريم» أي «الرفاق والزملاء»، ولعلّها أصل استعمال العرب لكلمة «الأحبار» أي «علماء اليهود[1]».

هذه الطوائف اليهوديّة، قبَيل ولادة يسوع، كانت على مذاهبها، تنتظر مجيء مسيح مخلّص موعود على ما جاء في التوراة.

أمّا السلالة الحاكمة، فكانت الأسرة الهيروديّة. وكان هيرودس الكبير، ابن أنتيباتر، مؤسس السلالة الهيروديّة، قد جعل أورشليم مقرّ حكمه، ووطّد سلطته كملك، وبقي يدير الأمور لمدّة ثلاث وثلاثين سنة، ولكن لحساب رومة. «فشجّع المصالح الرومانيّة على حساب المصالح القوميّة، ونجح، حيث فشل الحكّام الرومان، في جعل اليهوديّة بالقوّة شبه مملكة هلّنستيّة. وبدأ في مشروع إنشاء أبنية عامّة بدّل وجه البلاد تماماً. وقد بنى في أورشليم ميدانا لسباق الخيل ومسرحاً مدرّجاً وأقام ألعاباً عامّة، وكانت كلّها لا تتّفق مع اليهوديّة. وزيادة على ذلك أعاد بناء المعبد. وكانت السامرة مقرّه المحبّب، فزيّنها بالأبنية وأعاد تسميتها باسم سباسطية Sebaste، وكلمة سيباستيوس اليونانيّة تعني «أوغوسطس»، وكان ذلك تكريماً لأوغوسطس قيصر. وليزيد في سرور الأمبراطور سيّده أعاد بناء برج ستراتون على الساحل وسمّاه قيصريّة التي قُدّر لها أن تصبح فيما بعد عاصمة فلسطين الرومانيّة. وقد تزوّج هيرودس عشر نساء وذبح بعضهنّ مع بعض أفراد أسرته وسحق، بقسوة، المعارضة لحكمه المطلق.

هيرودس هذا، وهو الذي عُرف بهيرودس الكبير، والذي حصل من مجلس

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢

الشيوخ الرومانيّ على لقب «ملك اليهود»، كان مستبداً إلى درجة ظالمة. ولم يكن قتله لثلاثة من أولاده إضافة الى زوجته المفضّلة مريم، إلا بسبب وساوسه وشكوكه، وهكذا أمر بقتل أطفال بيت لحم الأبرياء لمّا سمع من المجوس بميلاد ملك اليهود، ظنّاً منه أنه بذلك يتخلّص من منافسه الطفل يسوع الذي سيصبح ملك اليهود. بيدَ أنّ هيرودس هذا قد مات بعد ميلاد يسوع بسنتين أو ثلاث ليقتسم المملكة من بعده أبناؤه الثلاثة: أرخيلاوس، وهيرودس أنتيباس، وفيليبُّس[١].

ففي ذلك التاريخ، كانت فلسطين تتألّف من ولايات. كانت الضفّة الغربيّة تضمّ ثلاثاً منها هي: اليهوديّة، وأهمّ مدنها وقراها القدس وبيت لحم وعين كارم وعمواس والرامة (رنتيس اليوم)، وأفرام (طيّبة رام الله اليوم) وبيت عنية وأريحة. أمّا السامرة، فكانت تضمّ إضافة الى مدينة السامرة، سوخار، وبئر يعقوب (قرب نابلس) وغيرها من البلدات الواقعة بين اليهوديّة وبيريا والجليل. والجليل كانت تضمّ الناصرة، وقانا، وطبريّة، ومجدلة، وكفرناحوم، وبيت صيدا.

وكانت الضفّة الشرقيّة (أو عبر النهر) تضمّ مقاطعة بيريا والمدن العشر، وهي مدن مستقلّة في الشرق والشمال الشرقيّ من الأردنّ، وتمتدّ حتّى دمشق، وكان أكثر سكّان تلك المدن من الوثنيّين. وكانت مدينة أورشليم العاصمة الدينيّة والسياسيّة معاً لليهود، الذين كان نظامهم تيوقراطيّاً، بحيث يُعتبر الله القائد الدينيّ والسياسيّ. وكانت أورشليم، وهي التي تضمّ داخل أسوارها هيكل سليمان، وهو المكان المكرّس لعبادة الربّ الإله، ذات أهمّيّة كبرى في تاريخ يسوع، إذ إنّ اليهود توقّعوا أن تكون عاصمة ملك المسيح المنتظر، وفيها يتمّ تنصيبه ملكاً. وكان هيرودس الكبير قد عزّز أسوار المدينة التي جمّلها بأبنية فخمة منها قصره الملكيّ، وأعاد تشييد هيكل سليمان بشكل غنيّ. ففي زمن المسيح كان الهيكل الهيرودسيّ والقصر الملكيّ وبيت قيافا وعلّيّة صهيون داخل الأسوار. أمّا جبل الزيتون وجبل الجلجلة فكانا خارج أسوار المدينة.

---

١ ـ راجع الجزء الأوّل من هذه الموسوعة، ص ١٤٦ وما يليها.

في ذلك الزمان، كانت الأمبراطوريّة الرومانيّة قد بلغت شأواً عظيماً، فشملت بعضاً من ثلاث قارّات: أوربّة وآسية وإفريقية. وفي ظل هذه الدولة عاشت أمم متباينة وشعوب مختلفة في التاريخ والحضارة والعرق والدين، في ظلّ إدارة واحدة، وسلام شامل، عُرف بالسلام الرومانيّ Paxa Romana. وكان الأمبراطور: أغسطس قيصر (٦٣ ق.م. ـ ١٤ م.) حفيد يوليوس قيصر، على رأس تلك الأمبراطوريّة المترامية الأطراف[١].

في هذه الأجواء، وُلد في قرية صغيرة من أعمال ولاية الجليل من فلسطين، طفل «ابن نجّار». وكانت تلك القرية تُعرف بالناصرة، وكان ذلك الطفل: يسوع، الذي سيُنسب الى الناصرة... والذي سيَقسم مولده التاريخ إلى قبْل وبعد. إلاّ أن «المؤرّخ لم يكن ليحفل بوجود ابن نجّار في ولاية نائية من الأمبراطوريّة جمع بعض الأتباع حوله وعلّم وبشّر وشفى ثمّ «صلب بسبب معتقداته[٢]». وقد ظهر مؤرّخ شابّ معاصر كان في الوقت ذاته من أبناء دينه (يهوديّاً) ومن مواطنيه، فخصّص له أي «لهذا الرجل الحكيم» و «صانع الأعمال الخارقة» كما قال عنه، مقطعاً صغيراً ينتهي بهذه الملاحظة: «وعشيرة المسيحيّين التي سُميّت بالنسبة إليه ليست منقرضة اليوم[٣]». وهناك مؤرّخ لاتينيّ ذكر «المسيح» بصورة عرضيّة، مشيراً إلى أنّه «تعرّض لعقوبة الموت في عهد طيبريوس بموجب حكم الحاكم بيلاطس البنطيّ»، هذا المؤرّخ هو تاسيتوس Tacitus[٤]. وتبقى الأناجيل المصدر الوحيد المفصّل لحياة يسوع.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٢

٢ ـ راجع: الأب يوسف نعمات (من كهنة البطريركية اللاتينيّة الأورشليميّة)، بُشرى الخلاص (حياة سيدنا يسوع المسيح من خلال الأناجيل الأربعة) (بيروت ١٩٨١) ص ٩ ـ ٢٢

٣ ـ Josephus, Antiquities of the jews. TRANS. BY. William Whiston, Newed. 2 vols (LONDON 1897) BK. XVIII, ch 3, S 3.

٤ ـ Tacitus, BK,XV, ch. 44

عُرف مؤسّس المسيحيّة باسمين، منفصلين أحياناً ومتّحدين أحياناً أخرى. أمّا الاسمان فهما يسوع المسيح. ويعود أصل كلمة يسوع إلى الصيغة الهلّينيّة ليشوع Joshua التي أتت من Johosua، وهي كلمة عبرانيّة معناها: يهوه الخلاص. وكلمة المسيح، هي ترجمة للكلمة العبرانيّة مشيا، أو مشياح Mâshiâh التي كانت تستعمل كلقب للملوك اليهود، وبالتالي للملك الموعود[1] الذي كان ينتظره اليهود. أمّا معنى الكلمة، فهو: «المكرّس بالمسحة». وإذا كانت حياة يسوع المسيح لم تلقَ الاهتمام من قبل مؤرّخي زمانه، فإنّ الذين عرفوه من قرب، قد اقتنعوا، من خلال ملازمته، بأنّه كان غير عاديّ، وبأنّه ابن الله، ممّا جعلهم يبدّلون طريقة حياتهم جذريّاً، ليسيروا على خطاه، دون أن يتردّدوا في بذل الذات في سبيل هذا المعتقد.

حفظ تلاميذ المسيح ورسله في ذاكرتهم كلّ ما قاله الربّ في حياته وكل ما فعله. وراحوا ينقلون مشافهة ما رأوا وسمعوا ولمسوا من كلمة الحياة إذ كانوا شهود عيان. ثم شرع بعضهم يدّون من تلك التعاليم التي كرز بها يسوع، وذلك في وقت مبكّر، كان لا يزال فيه من اتّبعوا المسيح يعتبرون نصوص العهد القديم كتابهم المقدّس الأوحد، وسمّوا تلك النصوص «الشريعة والأنبياء» وفقاً للاصطلاح اليهوديّ في تلك الأيام. ولكن مسيحيّي الجيل الأوّل هؤلاء، وخاصّة الكتبة منهم، أخذوا يستشهدون، إضافة إلى نصوص العهد القديم، بما أجمعوا على تسميته «الربّ». وكان هذا الاسم يُطلق على كلّ من التعليم الذي ألقاه يسوع[2]، وسلطة ذلك الذي قام من بين الاموات وتكلّم بلسان الرسل[3].

---

١ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٣

٢ - راجع: رسالة بولس الاولى إلى أهل قورنتس، ٩ : ١٤

٣ - راجع: رسالة بولس الثانية إلى أهل قورنتس، ١٠ : ٨، ١٨

بقي التقليد الإنجيليّ في معظمه متناقلاً على ألسنة الحفّاظ، إلى أن شرع بعض الرسل بتدوين التعاليم التي ستؤلّف فيما بعد العناصر الرئيسيَّة للعهد الجديد، ولكنّ ذلك لم يحصل قبل السنوات الواقعة ما بين سنة ٦٠ وسنة ٧٥م.، إذ بدأ بالتدوين مرقس، وتبعه متّى ثمّ لوقا. أمّا يوحنّا فكتب إنجيله نحو نهاية القرن الأوّل.

هذه المدوّنات الرسوليّة، هي الأناجيل[1]، وهي بشرى الخلاص في شخص يسوع المسيح التي اعلنها كلّ من الإنجيليّين الأربعة في روايته لأقوال يسوع وأعماله ولموته وقيامته[2].

هذه الأناجيل، غدت مصدرنا الرئيسيّ عن حياة المسيح. «وإذا كان لبعض حوادث حياة المسيح أو تعاليمه ما يشابهها في التراث الدينيّ لبلاد الشرق القديم، فإنّ الإنسان لا يستطيع أن يجد في إيّ مكان آخر مثل هذه الخلاصة المحكمة من الأفكار النبيلة وهذا التأكيد على المثل السامية، كما أنّه ليس باستطاعة أحد أن يكتشف في أيّ زمن شخصاً طبّق ما علّمه بمثل هذه الصورة التامّة[3]».

كان لمجيء يوحنّا المعمدان قبل يسوع، معنى مهمّاً عند الإنجيليّين الذين استشهدوا[4] بآية من سفر إشعيا من العهد القديم تقول: «... صوت مناد في البريّة: أعدّوا طريق الربّ واجعلوا سبل إلهنا في الصحراء قويمة. كلّ واد يُردم، وكلّ جبل وتلٍّ يُخفض، والطرق المنعرجة تُقوّم، والوعرة تُسهّل، وكلّ بشر يرى خلاص الله[5]». وإذ كان اليهود في حالة انتظار لمجيء المسيح، كان الشعب ينتظر، وكلّ يسأل نفسه عن يوحنّا: هل هو المسيح؟ فأجاب يوحنّا «قائلاً لهم

---

١ - الأناجيل، جمع إنجيل. وأصل الكلمة يونانيّة، ومعناها «بشرى»، أي بشرى الخلاص. (راجع مرقس ١ : ١) في اليونانية «إيڤانجيليون».

٢ - الكتاب المقدّس، العهد الجديد، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ٢٥.

٣ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣٦٤

٤ - متّى ٣ : ٣؛ يوحنّا ١ : ٢٣؛ لوقا ٣ : ٤ - ٦

٥ - سفر إشعيا ٤٠ : ٣ - ٥

أجمعين: أنا أعمّدكم بالماء، ولكن يأتي من هو أقوى منّي، من لست أهلاً لأن أفكّ رباط نعليه، إنّه سيعمدكم في الروح القدس والنار. بيده المذرى، ينقّي بيدره، فيجمع القمح في أهرائه وأمّا التبن فيحرقه بنار لا تطفأ[١]».

راح يوحنّا يعمّد الناس في نهر الأردنّ، وكانت معموديّته هذه لليهود مرتبطة بالتوبة، وباعتراف المتعمّدين بخطاياهم، إلى أن جاء شابّ في الثلاثين من عمره، يقال له يسوع، ليعتمد هو أيضاً على يد يوحنّا، «فانفتحت السماء، ونزل الروح القدس عليه في صورة جسم كأنّه حمامة، وأتى صوت من السماء يقول: - أنت ابني الحبيب عنك رضيت[٢]-.

أمّا الذي سبق ذلك الظهور القدسيّ من إشارة إلى أنّ هذا الشابّ الثلاثينيّ ليس شخصاً عاديّاً، فكان ممانعة يوحنّا في البداية لأن يعمّده وهو يقول له: «أنا أحتاج إلى الاعتماد عن يدك، أوَأنتَ تأتي إليّ؟» فأجابه يسوع: «دعني الآن وما أريد، فهكذا يحسن بنا أن نتمّ كلّ برّ[٣]».

ذلك الشابّ الثلاثينيّ غير العاديّ، كانت قد ولدته قبل ثلاثين سنة امرأة عذراء من بنات الناصرة، اسمها مريم، كانت مخطوبة لرجل من سلالة داود يعمل نجّاراً اسمه يوسف. وعندما علم يوسف بأنّ خطيبته حامل، دون أن يقربها، عزم على أن يطلّقها سرّاً، ولكنه تراجع عن عزمه هذا إثر حلم تراءى له فيه «ملاك الربّ» وأعلمه أنّ «الذي كُوّن في مريم هو من الرُّوح القدس» وقال له إنّها ستلد ابناً، طلب إليه «أن يسمّيه يسوع، لأنّه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم[٤]».

وكان في هذا إتمام لما جاء على لسان النبيّ: «ها إنّ العذراء تحمل فتلد ابناً يسمّونه عمّانوئيل[٥]» أي «الله معنا». وقد فعل يوسف بموجب قول ملاك الرب،

---

١ ـ لوقا، ٣ : ١٥ ـ ١٨؛ قابل: يوحنا ١ : ١٩ ـ ٢٠، ٣ : ٢٨؛ أعمال الرسل ١٣ : ٢٥

٢ ـ لوقا، ٣ : ٢١ ـ ٢٢؛ مرقس ١ : ٩ ـ ١٠؛ يوحنا ١ : ٣٢ ـ ٣٤

٣ ـ متّى، ٣ : ١٤ ـ ١٥

٤ ـ راجع: لوقا، ٢ : ١ ـ ٢٠

٥ ـ متّى، ١ : ١٨ ـ ٢١؛ لوقا، ١ : ٣١ ـ ٣٥

وأتى بامرأته الى بيته. وبعد أشهر، كان على يوسف أن يذهب مع امرأته الحامل إلى بيت لحم ليكتتب في الاحصاء الذي أمر أغوسطس قيصر (٢٩ ق.م. ـ ١٤ م.) بإجرائه على أهل الأمبراطوريّة. وبينما كانا ينتظران دورهما للاكتتاب، حان وقت ولادة مريم، وإذ لم يكن لهما موضع في المضافة، ولدت مريم ابنها البكر، فقمّطته وأضجعته في مذود.

كان أوّل من تلقى إشارة بمولد يسوع، أولئك الرعاة الذين لم تكن سمعتهم حسنة في إسرائيل في ذلك الزمان، لأنّهم كانوا يعيشون على هامش جماعة العاملين بأحكام الشريعة. فلقد كانوا من الوضعاء والفقراء. وإذ كان بعض هؤلاء «يتناوبون السهر في الليل على رعيّته حضرهم ملاك الربّ» وبشّرهم بفرح عظيم: «وُلد لكم اليوم مخلّص في مدينة داود، وهو المسيح الربّ».

وبحسب تعليمات الملاك، انتقل الرعاة إلى بيت لحم، وقصدوا مسرعين المكان الذي وجدوا فيه مريم ويوسف والطفل مضّجعا في المذود، ولمّا رأوا ذلك جعلوا يخبرون بما قيل لهم في ذلك الطفل[١].

في الوقت نفسه، قدم منجّمون إلى أورشليم، كانوا يُعرفون بالمجوس، وسألوا: «أين ملك اليهود الذي وُلد؟ فقد رأينا نجمه في المشرق، فجئنا نسجد له». وكان هذا سبباً لأن يُقدِم هيرودس على قتل كلّ طفل في بيت لحم وجميع أراضيها، لأنّه خشي على ملكه من ذلك الذي وُلد على أنّه ملك لإسرائيل.

بهذا، تحقّقت نبوءتان: الأولى تلك التي قالت: «أنتِ يا بيت لحم أفراتة، إنّك أصغر عشائر يهوذا، ولكن منك يخرج لي من يكون متسلّطاً على إسرائيل، وأصوله منذ القديم، منذ أيّام الأزل[٢]». والثانية تلك التي جاء فيها: «صوت سُمع في الرّامة، بكاء ونحيب شديد، راحيل تبكي على بنيها، وقد أبت أن تتعزّى لأنّهم زالوا عن الوجود[٣]».

---

١ ـ سفر إشعيا، ٧ ـ ١٤

٢ ـ سفر ميخا، ٥ : ١

٣ ـ سفر ارميا، ٣١ : ١٥

في هذه الأثناء، كان يوسف قد أخذ الطفل وأمّه ليلاً ولجأ إلى مصر، عملاً بما طلب منه فعله ملاك الربّ في الحلم لإنقاذ الطفل من مجزرة هيرودس. فأقام هناك إلى وفاة هيرودس لتتمّ بذلك نبوءة أخرى: «من مصر دعوت ابني[1]». وبعد عودة يوسف وعائلته من مصر، أقام معها في الناصرة.

لا تفيدنا الأناجيل بغير نتف قليلة عن حياة يسوع بين طفولته ومعموديّته على يد يوحنّا وهو في سنّ الثلاثين. من تلك النتف خبر جلوسه بين المعلّمين في هيكل أورشليم لمدّة ثلاثة أيّام وهو ابن اثنتي عشرة سنة، يستمع إليهم ويسألهم، «وكان جميع سامعيه معجبين أشدّ الإعجاب بذكائه وجواباته». وكان أبواه قد صعدا الى أورشليم جرياً على السنّة في عيد الفصح[2]. وتذكر الأناجيل أن يسوع، الذي سكن مع أبويه في الناصرة، كان يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس[3].

الرســـــــالة

لم يبدأ يسوع رسالته قبل اعتماده على يد يوحنّا ومن ثمّ إقامته في البرّيّة أربعين يوماً حيث قاوم تجارب الشيطان، ولم يعد منها إلى الجليل إلاّ بعد بلوغه خبر اعتقال يوحنّا. وهنا يبدأ يسوع أعماله.

لم يختر يسوع مكاناً لكرازته يقتصر وجود الناس فيه على اليهود مثلما كان يفعل آخرون، كأهل قمران أو يوحنّا المعمدان، ولكنّه افتتح رسالته في «جليل الأمم»، حيث بدأ بتوجيه تعليمه إلى أكثر الأسباط تعرّضاً لظلمة الوثنيّين. وبذلك انفتحت رسالته على جميع الأمم. فقد ترك الناصرة منتقلاً إلى مدينة تقع

١ ـ سفر هوشع، ١١ : ١؛ راجع: متّى ٢ : ١٥
٢ ـ راجع: لوقا ٢ : ٤١ ـ ٤٩
٣ ـ لوقا، ٢ : ٤٠، ٥١ ـ ٥٢

شماليّ بحيرة طبريّة، اسمها كفرناحوم. وكانت هذه المنطقة منسوبة في التراث اليهوديّ إلى سبطَين من أسباط إسرائيل: زبولون ونفتالي. وبإقامة يسوع في كفرناحوم، تحقّقت آية أخرى من نبوءة إشعيا: «أرض زبولون وأرض نفتالي، طريق البحر، عبر الأردنّ، جليل الأمم. الشعب المقيم في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، والمقيمون في بقعة الموت وظلاله أشرق عليهم النور[1]».

بدأ يسوع كرازته بالعبارة نفسها التي كان يكرز بها يوحنّا: «توبوا، قد اقترب ملكوت السموات[2]». ثمّ راح يختار تلاميذه، وكان الأوائل منهم أربعة من صيّادي الأسماك في بحيرة طبريّة هم: سمعان الذي يقال له بطرس وأخوه إندراوس، ويعقوب ابن زبدى وأخوه يوحنّا.

إختصر يسوع رسالته وتعاليمه من خلال عظته الأولى، التي تضمّنت الخطوط العريضة للمسيحيّة. وهي تلك العظة الموصوفة بالعظة الكبرى، التي شرع بها تعاليمه إلى تلاميذه، بعد أن أثبت قدرته السماويّة بشفاء شعب الجليل من كلّ مرض وعلّة «فشاع ذكره في سورية كلّها، فأتوه بجميع المرضى المصابين بمختلف العلل والأوجاع من الممسوسين والذين يُصرعون في رأس الهلال والمقعدين فشفاهم. فتبعته جموع كثيرة من الجليل والمدن العشر وأورشليم واليهوديّة وعبر الأردنّ[3]»، بعد أن عرّف عن أنّه المسيح المنتظر، من خلال أسفار العهد القديم. وكان لـمّا أتى الناصرة، حيث نشأ، «دخل المجمع يوم السبت على عادته، وقام ليقرأ. فدُفع إليه سفر النبيّ إشعيا، ففتح السفر، فوجد المكان المكتوب فيه: ـ روح الربّ عليّ، لأنه مسحني لأبشّر الفقراء، وأرسلني لأعلن للمأسورين تخلية سبيلهم، وللعميان عودة البصر إليهم، وأفرّج عن المظلومين، وأعلن سنّة رضاً عند الرب[4] ـ». وبعد أن اكتفى بهذا القدر من القراءة، طوى السفر فأعاده إلى الخادم وجلس.

١ ـ متّى، ٤ : ١٥ ـ ٦؛ قابل: سفر إشعيا، ٨ : ٢٣؛ ٩ : ١
٢ ـ متى، ٣ : ٢؛ ٤ : ١٧
٣ ـ متى، ٤ : ٢٣ ـ ٢٥
٤ ـ سفر اشعيا، ٦١ : ١ ـ ٢؛ راجع: لوقا، ٤ : ١٤ ـ ١٩

وكانت عيون أهل المجمع كلّهم شاخصة إليه. فأخذ يقول لهم: «اليوم تمّت هذه الآية بمسمع منكم[١]».

في عظته الكبرى، رسم يسوع خطوط البرّ المسيحيّ الجديد، وذلك من خلال أقسامها: التطويبات، ثمّ البرّ الكامل، ثمّ التوضيحات، فالتنبيهات وتوضيحاتها.

في التطويبات، قال يسوع: طوبى[٢] لفقراء الروح، فإنّ لهم ملكوت السّموات. طوبى للودعاء، فإنّهم يرثون الأرض. طوبى للمحزونين، فإنّهم يُعزّون. طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ، فإنّهم يُشبعون. طوبى للرحماء، فإنّهم يُرحمون. طوبى لأطهار القلوب، فإنّهم يشاهدون الله. طوبى للساعين إلى السلام، فإنّهم أبناء الله يُدعَون. طوبى للمضطهدين على البرّ، فإنّ لهم ملكوت السموات. طوبى لكم، إذا شتموكم واضطهدوكم وافتروا عليكم كلّ كذب من أجلي، إفرحوا وابتهجوا: إنّ أجركم في السموات عظيم، فهكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم[٣]».

هذه التطويبات، من شأنها أن تختصر الروح المسيحيّة الجديدة، وأساسها المحبّة، محبّة الله ومحبّة الإنسان. وأعطت هذه المفاهيم الدينيّة الجديدة للمضطهدين وعديمي الحظّ الأمل في حياة ثانية تقدّم للأبرار المسرّات التي حرموا منها في هذه الحياة الدنيا. وفي الوقت نفسه، حثّت التطويبات على البذل والعطاء، وعلى تحمّل الاضطهادات التي نبّه يسوع من خلال التطويبات الى مستقبل حدوثها.

بعد التطويبات، حث يسوع تلاميذه على الالتزام بالتعاليم: «أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح، فأيّ شيء يملّحه؟ إنّه لا يصلح بعد ذلك إلاّ لأن يطرح في خارج الدار فيدوسه الناس[٤]». كما حثّهم على إعطاء المثل الصالح، وعلى الاجتهاد

١ ـ لوقا، ٤ : ٢٠ ـ ٢١
٢ ـ طوبى: كلمة من أصل عبري معناها: «هنيئاً لـ... » أو «ما أسعد». وهي من أسلوب الكتاب المقدس.
٣ ـ متّى، ٥ : ٣ ـ ١٢
٤ ـ متّى، ٥ ـ ١٣

في الكرازة وتعميم الرسالة: «أنتم نور العالم. لا تخفى مدينة على جبل، ولا يوقد سراج تحت المكيال، بل على المنارة، فيضيء لجميع الذين في البيت، هكذا فليضِء نوركم للناس ليروا أعمالكم الصالحة، فيمجّدوا أباكم الذي في السموات[١]».

وحرص يسوع على الربط بين الشريعة القديمة ودعوته الجديدة من خلال التأكيد على أنّ هذه الدعوة، إنّما هي تتمّة لمسار فكرة الله عند الإنسان: «لا تظنّوا أنّي جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء: ما جئت لأبطل بل لأكمّل[٢]». ولكنّ «هذا الإكمال» يتطلّب مزيداً من البرّ: «إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفرّيسيّين لا تدخلوا ملكوت السموات». وهنا يشرح يسوع هذا التسامي في الرسالة الدينيّة، وذلك الترقّي المفروض على الإنسانيّة في ظلّ المسيحيّة: «سمعتم أنّه قيل للأوّلين: لا تقتل، فإنّ من يقتل يستوجب حكم القضاء[٣]. أمّا أنا فأقول لكم: من غضب على أخيه استوجب حكم القضاء، ومن قال لأخيه يا أحمق، استوجب حكم المجلس، ومن قال له يا جاهل استوجب نار جهنّم[٤]...». ومثل هذا التشديد أورده يسوع بالنسبة للزنى، وللطلاق، ولاحترام العزّة الإلهية، وللتسامح، ولأعمال البرّ، وللصلاة، وللصوم، ولعمل الخير، واختصر فلسفة التعاطي بين الناس مسيحيّاً بالقاعدة المثلى: «فكلّ ما أردتم أن يفعل الناس لكم، إفعلوه أنتم لهم: هذه هي الشريعة والأنبياء[٥]».

وفي النهاية يحذّر يسوع من الأنبياء الكذّابين «فإنّهم يأتونكم في لباس الخراف، وهم في باطنهم ذئاب خاطفة[٦]». أمّا التنبيه الأخير الذي جاء في عظة

١ ـ متّى، ٥ : ١٤ ـ ١٦؛ قابل: يوحنا، ٨ : ١٢؛ لوقا، ٨ : ١٦؛ ١١ : ٣٣؛ مرقس ٤ : ٢١؛ يوحنا ٣ : ٢١
٢ ـ متّى، ٥ : ١٧؛ راجع رسالة بولس إلى أهل رومة، ٣ : ٣١
٣ ـ راجع: سفر الخروج، ٢٠ : ١٣
٤ ـ متّى، ٥ : ٢١ ـ ٢٢
٥ ـ متّى، ٧ : ١٢؛ قابل: لوقا، ٦ : ٣١؛ ورسالة بولس إلى أهل رومة، ١٣: ٨ ـ ١٠
٦ ـ متّى، ٧: ١٥؛ راجع رسالة بطرس الثانية، ٦ : ٤٣ ـ ٤٤

يسوع الكبرى، فقد كان ذا علاقة بيوم الحساب: «ليس من يقول لي: ـ يا ربّ، يا ربّ ـ يدخل ملكوت السموات، بل من يعمل بمشيئة أبي الذي في السموات. فسوف يقول لي كثير من الناس في ذلك اليوم: ـ يا ربّ، يا ربّ. أمَا باسمك تنبأنا؟ وباسمك طردنا الشياطين، وباسمك أتينا بالمعجزات الكثيرة؟ ـ فأقول لهم علانيّة: ـ ما عرفتكم قطّ. إليكم عنّي أيّها الأثمة! ـ فمثَل من يسمع كلامي هذا فيعمل به كمثل رجل عاقل بنى بيته على الصخر. فنزل المطر وسالت الأودية وعصفت الرياح، فثارت علىً ذلك البيت فلم يسقط، لأنّ أساسه على الصخر. ومثل من سمع كلامي هذا فلم يعمل به كمثل رجل جاهل بنى بيته على الرمل. فنزل المطر وسالت الأودية وعصفت الرياح، فضربت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه شديداً[1] ».

قضى يسوع الجزء الأوّل من أيّام رسالته في الجليل. فبعد كفرناحوم، راح وتلاميذه الأربعة، يجول في قرى الجليل، حيث كان يشفي المرضى المصابين بمختلف العلل. وكان هؤلاء يقصدونه حيث وُجد ليشفيهم. في هذه الأثناء، ضمّ يسوع إلى رسله الأربعة الأوّلين، تلميذه الخامس: متّى، الذي يرد اسمه أيضاً «لاوي بن حلفى». وكان هذا جالساً في بيت الجباية عندما مرّ يسوع من هناك، فقال له «اتبعني» فقام وتبعه[2]. ويرى التقليد الكنسيّ في هذا الرسول مؤلّف الإنجيل الأوّل. وفي بيت هذا الرسول، جلس يسوع إلى الطعام ومعه تلاميذه، وإلى المائدة كثير من العشّارين الذين كان اليهود ينظرون إليهم نظرتهم الى الخاطئين الذين لا يحفظون الشريعة، والذين لا بدّ من الإعراض عنهم، لأنّهم كانوا يستغلّون غالباً وظيفتهم للاغتناء بالمال الحرام. وكان الى جانب هؤلاء بخلال المأدبة عدد من الخاطئين. فأخذ الكتبة والفريسيّون على يسوع أنّه يأكل مع العشّارين والخاطئين. غير أنّ يسوع قال لهم: «ليس الأصحّاء بمحتاجين إلى طبيب بل المرضى، ما جئت لأدعو الأبرار بل الخاطئين[3] ».

---

١ ـ متى، ٧ : ٢١ ـ ٢٧ ؛ قابل: لوقا: ١٣ : ٢٦ ـ ٢٧
٢ ـ متّى، ٨ : ٩؛ قابل: مرقس ٢ : ١٣ ـ ١٤؛ لوقا ٥ : ٢٧ ـ ٢٨
٣ ـ مرقس، ٢ : ١٥ ـ ١٧

وفي الجليل، أتمّ يسوع جمع تلاميذه. فبعد سمعان بطرس، وإندراوس، ويعقوب ابن زبدى وأخيه، ويوحنّا، ومتّى، وبينما كان في جبل الجليل والناس محتشدون حوله، دعا الذين أرادهم فأقبلوا إليه، فاختار إضافة إلى الخمسة المذكورين: فيلبّس، وبرتلماوس، وتوما، ويعقوب بن حلفى، وتدّاوس، وسمعان الغيور، ويهوذا الإسخريوطيّ.

وبموازاة استقطاب يسوع للناس والتفافهم حواليه، كان الكتبة والفريسيّون يسعون إلى محاربته، فيتّهمونه حيناً بأنّ رئيس الشياطين يسكنه، وحيناً آخر بأنه سيّد الشياطين. ذلك أنّ يسوع قد عنّف «الكتبة والفريسيّين المرائين، الذين يقفلون ملكوت السموات في وجوه الناس، فلا هم يدخلون، ولا الذين يريدون الدخول يدعونهم يدخلون[1] » كما أورد التفاصيل الواضحة عن خروج هؤلاء عن الشريعة والدين[2]. فلقد كان هؤلاء كما سواهم من رجال الكهانة اليهوديّة بعيدين كلّ البعد عن تعاليم المسيح.

أولئك كانوا جامدين في القديم، والمسيح كان تجديداً، وقد رأى أنّ «ما من أحدٍ يشقّ قطعة من ثوب جديد، فيجعلها في ثوب عتيق، لئلاّ يشقّ الجديد وتكون القطعة التي أخذت من الجديد لا تلائم العتيق. وما من أحد يجعل الخمرة الجديدة في زقاق عتيقة، لئلا تشقّ الخمرة الجديدة الزقاق فتراق هي، وتتلف الزقاق. بل يجب أن تُجعل الخمرة الجديدة في زقاق جديدة. وما من أحد إذا شرب معتّقة، يرغب في الجديدة لأنّه يقول: المعتّقة هي الطيّبة[3] ».

بعد هذا، لم يعد من مجال للتساؤل كيف أنّ المسيح اختار تلاميذه من غير أهل الكهانة ومن غير الكتبة، ولكنّه اختار «للخمرة الجديدة زقاقاً جديدة». كما أنّه لم يتوقّع من اولئك الكتبة والكهّان أن يستسيغوا تعاليمه، لأنّ «ما من أحد

---

١ ـ مرقس، ٣ : ١٣ ـ ٢
٢ ـ راجع: متى، ٢٣ : ١٣ ـ ٣٦ ؛ لوقا، ١١ : ٣٩ ـ ٤٨
٣ ـ لوقا ٥ : ٣٦ ـ ٣٩ ؛ متّى، ٩ : ١٦ ـ ١٧ ؛ مرقس، ٢ : ٢١ ـ ٢٢

إذا شرب معتّقة، يرغب في الجديدة». فكان الخصام بين القديم والجديد: بين يسوع وقادة اليهود. وإذ لا تقرّ تعاليم يسوع بالعداء والبغضاء والتآمر ومقاومة الشرّ بالشرّ، فإنّ أولئك كانوا أحراراً في انتهاج تلك الأساليب، خاصّة وأنّهم قد رأوا في ذلك الثائر بالمحبّة، خطراً أكيداً على مكانتهم القياديّة، لا بل نهاية محتّمة لذلك الدور الذي اعتقدوا أنّ الله قد خصّهم به إلى الأبد لهم ولذراريهم من بعدهم. وأكثر من ذلك، فقد لمسوا في تعاليم الثائر بالمحبّة انفتاحاً على سائر الأمم، لا بل مساواة بين الأمم، وفي ذلك نهاية لاعتبار شعبهم شعب الله المختار. فعندما كان يعلّم في المجمع، في الناصرة، قال لهم: «لا شكّ أنّكم تقولون لي هذا المثل: يا طبيب إشفِ نفسك. فاصنع ههنا في وطنك كلّ شيء سمعنا أنّه جرى في كفرناحوم». وأضاف: «الحقّ أقول لكم: ما من نبيّ يُقبَل في وطنه. وبحقٍّ أقول لكم: كان في إسرائيل كثير من الأرامل في أيّام إيليّا، حين احتبست السماء ثلاث سنوات وستة أشهر، فأصابت الأرض كلّها مجاعة شديدة[1]، ولم يرسَل إيليّا إلى واحدة منهنّ، وإنّما أرسل إلى أرملة من صرفت صيدا. وكان في إسرائيل كثير من البرص على عهد النبيّ أليشاع، فلم يبرأ واحد منهم، وإنّما برئ نعمان السوريّ» فثار ثائر جميع الذين في المجمع عند سماعهم هذا الكلام. فقاموا ودفعوه إلى خارج المدينة وساقوه إلى حرف الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيّة عليه ليلقوه عنه، ولكنّه مرَّ من بينهم ومضى[2].

ولإدراك الحال الذي كان واقعاً في نفوس أبناء المجتمع اليهوديّ آنذاك، لا بدّ من تقدير ما كانت بلغته بلايا إسرائيل، بحيث لم يبقَ من المعقول أن يرجو الناس بعده ظهور «مشيح» بشريّ يستطيع أن يعيد ذات يوم إلى الشعب المختار كرامته. فكانوا ينتظرون من الله وحده تبديل الحالة، وكانوا يرون أنّ ذلك التحوّل الذي ينتظرونه بفروغ الصبر لن يحدث إلاّ لمصلحة انقلاب يشمل الكون كلّه إذ يظهر بغتة عالم جديد برمّته. ففي ذلك المشهد لرؤيا الأزمنة الأخيرة ليس

١ ـ راجع: رسالة القديس يعقوب، ٥ : ١٧؛ سفر الملوك الاوّل، ١٧ : ٩؛ سفر الملوك الثاني، ١٧ : ٩
٢ ـ لوقا، ٤ : ٢٣-٢٩؛ راجع: يوحنّا، ٨ ـ ٥٩

لـ«المشيح» نصيب كبير في جميع الآراء، فإنّ مؤلّفي الرؤى، عندما تكلّموا عليه، كفّوا، على ما يبدو، عن أن يروه، شأنهم في الماضي، «مشيحا» دنيويّاً مسحه يهوه. وبعبارة أخرى، ملكاً من ذريّة داود، يقوم بأعمال سياسيّة وعسكريّة في جوهرها، ليحقّق بعون الله تحرير الشعب وازدهاره. فهم يميلون بعد ذلك إلى إظهار «المشيح» بمظهر كائن من الملأ الأعلى أقرب إلى الله منه إلى البشر، ويطلَق عليه في بضع رؤى اسم ابن الإنسان، ولكنّه يظلّ في جوهره وجهاً سماوياً ليس له صلة حقيقيّة بالناس وغير قابل للألم[1].

في هذا الوقت، بقي يسوع مُصرّاً على عدم الكشف عن أنّه «ابن الله». فيوم كان في المجمع في كفرناحوم، وصاح رجل بأعلى صوته موجّهاً كلامه إليه: «آه! ما لنا ولك يا يسوع الناصريّ، أجئت لتهلكنا؟ أنا أعرف من أنت: أنت قدّوس الله» فانتهره يسوع بقوله: «إخرس واخرج منه» فصرعه الشيطان في وسط المجمع، وخرج منه[2]. وعلى شاطئ طبريّا، تلقاه رجلان ممسوسان بعد أن سكّن العاصفة، وأخذا يصيحان: «ما لنا ولك، يا ابن الله؟ أجئت إلى هنا لتعذّبنا قبل الأوان؟» فكان أن طرد يسوع الشياطين من الرجلين، فدخلت في الخنازير، كما هو معروف[3]. وكان الشيطان فور اعتماد يسوع على يد يوحنّا قد حاول تجربته عندما تحدّاه بأن يحوّل الحجارة إلى أرغفة إن كان ابن الله[4].

وعندما طرح على تلاميذه هذا السؤال: «من أنا في قول الجموع؟» فأجابوا: «يوحنّا المعمدان». وبعضهم يقول «إيليّا». وبعضهم «نبيّ من الأوّلين قام». فقال لهم: «ومن أنا في قولكم أنتم؟» فأجاب بطرس: «مسيح الله». نهاهم بشدّة عن أن يخبروا أحداً بذلك[5].

١ ـ راجع: الكتاب المقدّس، العهد الجديد، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ١٩
٢ ـ لوقا ٤ : ٣٣ ـ ٣٥؛ راجع: مرقس ١ : ٢٤؛ لوقا ١ : ٣٥
٣ ـ متى ٨ : ٢٨ ـ ٣٢؛ مرقس، ٥ : ١ ـ ٢٠؛ لوقا ٨ : ٢٦ ـ ٣٩
٤ ـ راجع: متّى، ٤: ٣ ـ ١١؛ لوقا، ٤: ١ ـ ١٣؛ مرقس، ١: ١٢ ـ ١٣
٥ ـ لوقا، ٩ : ١٨؛ متّى، ١٦ : ١٣ ـ ١٦؛ مرقس، ٨: ٢٧ ـ ٣٠

وقد ربط بعض الإنجيليين ربطاً وثيقاً بين السكوت الذي فرضه يسوع على تلاميذه في شأن «مشيحيّته» والإنباء بموته الوشيك، فبعد أن «نها الرسل بشدّة عن أن يخبروا أحداً بذلك» قال لهم: «يجب على ابن الإنسان أن يعاني آلاماً شديدة، وأن يرذله الشيوخ وعظماء الكهنة والكتبة، وأن يُقتل ويقوم في اليوم الثالث[1]».

وبعد أن قضى يسوع حوالى ثلاث سنوات يعلّم ويكرز ويبرئ المرضى ويقيم الموتى ويزرع الأمل في النفوس، كان ما هو معلوم أمره من صلبه على يد اليهود.

الصلب والقيامة

كان لا بدّ لابن الإنسان من «أن يعاني آلاماً شديدة، وأن يرذله الشيوخ وعظماء الكهنة والكتبة، وأن يُقتل ويقوم في اليوم الثالث[2]» حتّى تكتمل الرسالة. وهذا ما تمّ فعلاً، وما حقّق بعض ما جاء في المزامير: «لماذا ضجّت الأمم، والى الباطل سعت الشعوب؟ ملوك الأرض قاموا وعلى الربّ ومسيحه تحالف الرؤساء جميعا[3]». بيد أنّ المسيح سيحقّق بموته خلاص إسرائيل، وسيضمّ إلى شعب واحد الذين ينتمون إلى الآب في العالم. فإنّ «حبّة الحنطة التي تقع في الأرض، إن لم تمت، تبقى وحدها. وإذا ماتت، أخرجت ثمراً كثيراً[4]».

وقبل أن يتممّ يسوع ما في الكتب، ودّع رسله الذين سيحملون رسالته إلى العالم، ودّعهم بتلك الوصيّة الخالدة: «أحبّوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم[5]...»

وبقيامته من بين الأموات، وترائيه لتلاميذه بعد تلك القيامة، قبل أن ينفصل عنهم ويُرفع إلى السماء، تمّت الرسالة، وبدأ عهد جديد، كان على الرسل أن يبشّروا به في جميع الأمم.

١ ـ لوقا، ٩: ٢٢؛ قابل: متى ١٦: ٢١؛ مرقس ٨: ٣١

٢ ـ راجع: لوقا، ٩: ٢٢

٣ ـ المزمور ٢: ١ ـ ٢

٤ ـ يوحنّا، ١٢: ٢٤

٥ ـ يوحنّا، ١٣: ٣٤.

الفصل الثاني

المسيحيّة في قرنها الأوّل

- الانتقال من اليهوديّة الى المسيحيّة
- الانتقال من الوثنيّة الى المسيحيّة
- بولس «رسول الأمم»، ورفاقه
- كنيسة إنطاكية بعد كنيسة أورشليم
- البدع والهرطقات
- التنظيم الكنسيّ
- الانتشار المسيحيّ
- الحياة المسيحيّة في القرن الاول

الانتقال من اليهودية الى المسيحية[1]

كانت ديانة الشعب اليهوديّ تجعل منه شعباً فريداً. هذا الشعب، كتابه، وضعه أناس مقتنعون بأنّ اللّه دعاهم لتكوين شعب يحتّل مكاناً في التاريخ بتشريعه ومبادئه في الحياة الفرديّة والجمّاعية.

وبموجب هذا الكتاب، فإنّ إسرائيل لم يكن يعرف إلاّ إلهاً واحداً لا يُرى، ويفوق كلّ شيء، وهو الربّ. وكان يعبّر عن صلته بالله بلفظ يعتبره حقوقيّاً «العهد». وكان يُخضع وجوده كلّه لهذا العهد وللشريعة الناتجة منه. فازداد نمط حياته تعارضاً مع نمط حياة سائر الأمم. فكلّ القسم العبريّ من الكتاب المقدّس يتعلّق بهذا العهد كما عاشه إسرائيل وفكّر به حتّى القرن الثاني قبل المسيح، فإنّ جميع النزعات التي تحرّك هذه الجماعة منطلقها الكتاب المقدّس.... والشريعة، وهي تكرّمه على أنّه كلمة الرّب. واليهود يقرأونه ويبنون عليه ممارستهم في إطار تقاليد متأصلّة في حياة إسرائيل القديم، وُضعت بعد دمار الأمّة وكوّنت «المشنة» و«التلمود» و«المدارس».

وهكذا فإنّ اليهود، لا يعودون يهوداً، إذا هم تخلّوا عن الكتاب، وبالتالي عن اعتبار «العهد»، وعن خاصّة «الشعب المختار».

حتّى الذين تبعوا المسيح منهم، إنّما هم تبعوه على أنّه «المشيح» الذي أرسله الربّ ليخلّص شعبه! حتّى هؤلاء، لم يكونوا مستعدّين على الإطلاق لأن يتخلّوا عن الاعتبارات القديمة تلك، بكلّ ما لتلك الاعتبارات من معنى.

أمام هذا الواقع، واجهت المسيحيّة في أوّل عهدها في أرض اليهود، مسألة في غاية الأهمّيّة والتعقيد: كيفيّة الانتقال من اليهوديّة الى المسيحيّة، من الخلاص

١- راجع المجلّد الاوّل من هذه الموسوعة تحت عنوان: اليهود - الفصل التاسع - ص ١٨٠ وما يليها.

بالشريعة، الى الخلاص بالإيمان والنعمة. فبينما كان الرسل الأوائل يبشّرون بالمسيحيّة، كان بعض اليهود الذين آمنوا بالمسيح، يتبعونهم ليقولوا للوثنيّين الذين اعتنقوا المسيحيّة: «إذا لم تختتنوا على سنّة موسى، لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص[1]». والذين آمنوا بالمسيحيّة من الفرّيسيّين قالوا: «ويجب ختن الوثنيِّين وتوصيتهم بالحفاظ على شريعة موسى[2].» وكان المهتدون الكبار الى المسيحيّة أنفسهم، لا يستطيعون أن يفصلوا بين الشريعة اليهوديّة والتجدّد المسيحيّ بمعزل عن سننها. حتّى أنّ بولس نفسه، في البداية، لم يسعه إلاّ أن يؤكّد أمام الحاكم فيلكس، وإن على سبيل المفارقة، أنّه باتّباعه «الطريقة»، ولأنّه مسيحيّ، لم يزل أميناً لما يؤمن به إسرائيل ويرجوه[3]. ولم يشذّ بطرس عن هذه القاعدة[4]. وإسطفانس، وهو أحد الشمامسة السبعة الذين اختارهم الرسل بعد عيد العنصرة، والذي يُعتبر أوّل الشهداء المسيحيّين، كان أقلّ عداء للشرّيعة ممّا يظنّه خصومه[5]. وكانت الكنيسة في اليهوديّة، مع أنّها كنيسة، لا تزال غائصة غوصاً عميقاً في اليهوديّة[6].

بيد أنّ بولس وهو الذي كان أساساً من أشدّ مضطهدي المسيحيّة، يوم كان اسمه شاول، قبل أن يهتدي على طريق دمشق حوالى سنة ٣٣م. قد تعمّد على يد حننيّا[7]، ثم اختلى في شمال جزيرة العرب مدّة ثلاث سنوات، باشر بعدها تبشير الأمم الوثنيّة فكان رسولها الممتاز، حتّى لقّب برسول الأمم. بولس هذا، لم

١ ـ أعمال الرسل، ١٥ : ١

٢ ـ اعمال الرسل، ١٥ : ٥

٣ ـ راجع: أعمال الرسل، ٢٦ : ٢٢؛ ٢١ : ٢٦؛ ٢٢ : ١٧

٤ ـ راجع: أعمال الرسل، ١٠ : ٩ ـ ١٤

٥ ـ راجع: أعمال الرسل، ٦ : ١٣.

٦ ـ الكتاب المقدس، العهد الجديد، دار المشرق، (بيروت ١٩٩١) ص ٣٧٠

٧ ـ حننيّا: تلميذ الرسل. كان يقطن دمشق. لجأ إليه القديس بولس بعد رؤياه على طريق دمشق فقبل العماد منه

يلبث أن اقتنع بوجوب تحرير المسيحيّة من الموسويّة. وكذلك فعل برنابا، اليهوديّ القبرصيّ الذي اهتدى إلى المسيحيّة، ورافق بولس في تبشيره. وعندما بلغ الفرّيسيّين وسواهم من المتنصّرين اليهود في أورشليم مضمون دعوة بولس وبرنابا، بدأ صراع شديد بين الفئتين بعد عودة الرسولين من رحلتهما الأولى بين الأمميّين في «المشرق»، فتقرّر الاحتكام إلى مجلس الرسل والكهنة الأساقفة في أورشليم. فكان موتمر الرسل هناك سنة ٤٩. وقد خرجت نظريّة بولس منتصرة بفضل تأييد بطرس، الذي اقتنع بوجوب تحرير المسيحيّة من الموسويّة، وتأييد يعقوب، وأسقف أورشليم، أمّ الكنائس[1].

حرّر ذلك الموتمر المسيحيّ الأوّل المسيحيّين الأمميّين من الشريعة والختان، لكنّه ترك النصارى من بني إسرائيل أحراراً في إقامة التوراة والإنجيل معاً، والعماد والختان معاً، والسبت والأحد معاً[2]. ولقد كان انتصار المسيحيّة المحرّرة من اليهوديّة، انتصاراً بالتراضي، علماً بأنّ هذا التراضي ينقذ روح المشاركة في الكنيسة. وقد بقي الجوهر سالماً: فسواء كان ختان أم لا، لا يخلص المسيحيّون إلاّ بالإيمان وبنعمة المسيح[3]!

بيد أنّ غلاة المتنصّرين من بني إسرائيل، لم يغفروا أبداً لبولس دعوته لتحرير المسيحيّة من الموسويّة. وهكذا كان موتمر الرّسل سبباً غير مباشر لانقسام أهل الإنجيل إلى فئتين: فئة «النصرانيّة» من بني إسرائيل، وفئة «المسيحيّة» المهتدين من الأمميّين. وتكتّل النصارى حول يعقوب، وانتسب المسيحيّون إلى بولس.

تمحورت عقيدة «النصارى» حول ثلاثة أركان:

١ ـ راجع: أعمال الرسل، ١٥ : ٥ ـ ٢٣

٢ ـ راجع: أعمال الرسل ١٠ : ١؛ ١٠ : ٢٨ و ٣٥؛ ١١ : ٢٠ ـ ٢١؛ ١٥ : ١ و ٥؛ ١٥ : ٤ ـ ٢٩

٣ ـ راجع: أعمال الرسل ١٥ : ٩ و ١١

١) إقامة التوراة والإنجيل معاً.

٢) إعتبار يسوع المسيح «كلمة الله وروحاً منه». ففسروا «كلمة الله» بأنّه «ملاك كلمة الله» أي ملاك حلّ في يسوع الناصريّ، بخلاف النظريّة المسيحيّة التي تؤمن بأنّ «كلمة الله» من ذات الله، وهو بالتالي نطقه الذاتيّ.

٣) إعتبار حلول كلمة الله في يسوع ظاهريّاً، لا تجسّداً أو تأنّساً، وقد فارق المسيح قبل الآلام يسوع الناصريّ، ولمّا رجع المسيح الكلمة إلى يسوع في القبر قام من الموت وارتفع حيّاً إلى السماء[1].

الانتقال من الوثنيّة إلى المسيحيّة

إذا كانت الديانة اليهوديّة بكل ما كان لها من تمييز لشعب الله المختار على سائر الشعوب، قد جعلت أتباعها يتشبّثون بقوانينها ومفاهيمها رغم اعتناقهم المسيحيّة، لأنّ هؤلاء اعتبروا مجيء المسيح متمّماً لتلك الديانة، فـ«المشيح» ابن داود، إنّما هو مخلّص شعب «الربّ» من مظالم سائر الشعوب، ولا يمكن بالتالي أن يكون مخلّصاً لجميع الأمم، بما فيها تلك التي كان إسرائيل يسعى للتخلّص من حكمها.... فإنّ الديانة الوثنيّة، على تفرّعاتها، قد شكّلت، في الوقت نفسه، عوائق جمّة في نفوس أتباعها أمام المسيحيّة.

إعتبر المتعمّقون في دراسة تاريخ شعوب المنطقة أنّه «لا بدّ من أن تكون المسيحيّة قد بدت للمواطن الرومانيّ المتوسّط، حتّى أواخر القرن الأوّل للمسيح، كمذهب يهوديّ غامض، وأنّها من الفلسفات الكثيرة، الأخرى التي كانت تنتشر من الشرق الأدنى. وكانت نواة المجتمعات المسيحيّة الأولى مؤلّفة من اليهود. وعندما أعلنت المسيحيّة تحدّيها للديانات القديمة، قام الكتّاب اليونان واللاتين

١ - راجع: يوسف درّه الحداد، فلسفة المسيحية. ص ٣١٦ - ٣١٧

يحاربون الدين الجديد، وكانت الأديان القديمة بالنسبة لهؤلاء الكتّاب تقترن بالأمجاد الماضية للتاريخ القوميّ. وكانت بالنسبة للرومان، بصورة عامّة، رموزاً للسلطة الأمبراطوريّة... وكانت عبادة الأمبراطور أكثر عبادات الدولة قوّة وانتشاراً، وقد أنشأها أوغسطس، وأصبحت تعبيراً مادّياً للولاء نحو العرش[1]».

لم تكن ديانة الأم مجرّد عقيدة نظريّة يُعترف بها، ولكنّها كانت ممارسة يوميّة من قبل الفرد والجماعة، تداخلت فيها الشؤون الحياتيّة في العمل واللهو وفي ظروف الحياة العامّة والخاصّة. فلقد كانت أمور الحرب والسلام تبدأ وتختتم بتقديم القرابين، بخلال احتفالات رسميّة طقسيّة كبرى، وكانت المشاهد العامّة جزءاً أساسيّاً في عبادة الوثنيّين، «المرحة». أضف إلى ذلك ما كان يجري في تلك المجتمعات من حفلات إباحيّة، لا بدّ أنّها كانت تشكل للإنسان العاديّ المتنفّس الوحيد للحياة، وبخاصّة تلك الاحتفالات الموسميّة التي كانت تشهد أشدّ مظاهر الابتهاج والاباحيّة.

كان على الإنسان الوثنيّ، أن يتخلّى عن كلّ تلك المباهج، لكي يتبع الدين الجديد. ذلك الدين الذي وعد بحياة بعد الحياة الدنيا. إلاّ أنّه ليس من السّهل على الإنسان أن يتخلّى عمّا يعتبره فردوساً مُعاشا أملاً بفردوس موعود. لذلك، لم يكن المسيحيّون الأوائل من الوثنيّين، أولئك الذين كانوا يتمتّعون على الأرض بما اعتبروه فردوساً، بل كانوا من المنبوذين والمقهورين والفقراء والمساكين، تماماً مثلما كان أوائل المسيحيّين من اليهود.

حتّى ذلك التاريخ، لم يكن قد ظهر، سوى المسيحيّة، عقيدة، خاصّة في الوسط الهلنستي، اتّخذت المحبّة فلسفة أساسيّة لها. ولو كانت الرّواقيّة وحدها قد سارت، أو حاولت السير في ذلك الاتجاه. ولم تُعرف أيّة عقيدة سابقة تقول بأنّ هناك إلهاً فادياً يهتمّ بأحطّ أفراد الجنس البشريّ مثلما بأعظمهم. كما أنّه لم

١ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٧ - ٣٦٨

تكن لأيّة منها رسالة حيّوية تتوجّه الى الفقير والمنبوذ، كما تتوجّه الى العشّار والخاطىء من اليهود. وقلّما أثّرت أيّة ديانة وثنيّة في الدوافع الداخليّة للسلوك والحياة. فقد كانت كلّها تهتمّ بصورة رئيسيّة بالطقوس. ولم توجد أيّة منها مثل ذلك الارتباط الفعّال بين الدين والأخلاق، أو تخصّص مثل ذلك الاهتمام للحياة الثانية كما فعلت المسيحيّة، التي قرنت الحياة الأخلاقيّة بالدين، بصورة وثيقة. فأصبح الإحسان عندئذ من أعمال الإيمان بدلاً من أن يكون من أعمال العدل. وأعطى الدين الجديد للمضطهدين وعديمي الحظّ الأمل في حياة ثانية تقدّم للأبرار المسرّات التي حرموا منها في هذه الحياة الدنيا. وكان اليونان والرومان يمنحون الخلود لمن كان محسناً لشعبه فقط، أو لمن أُدخل في إحدى ديانات الأسرار، التي كانت آلهتها بالأصل آلهة نبات، ثمّ اصطبغت في هذا العصر بالهلّينيّة تماماً، وتبنّاها اليونان والرومان. وكان ديونيسيوس، إله الخمر، من أقدم هذه الآلهة، فهو روح حياة النبات بوجه عام. وكانت إيزيس المصريّة أرفع الآلهة المؤنّثة شأناً. وقد اعترف كاليغولا، الأمبراطور الرومانيّ (٣٧-٤١م.) بها بين العبادات الرومانيّة الرسميّة. وبلغ من شيوع عبادة إيزيس أنّها انتشرت في جميع الأمبراطوريّة في القرنين الأوّل والثاني الميلاديّين.

ومن ديانات الأسرار ديانة «ميثرا»، وهو بالأصل إله الشمس عند الفرس. وقد استهوت عبادة «ميثرا» الجنود الرومان بشكل خاص، إذ كان هذا الدين يصوّر الحياة كصراع مستمرّ بين إله خيّر وقوّة شرّيرة. وبدا الأمر لمدّة من الزمن كأن المصير هو إمّا فوز المسيحيّة أو ديانة «ميثرا[1]». ومن صفات ديانات الأسرار كونها سرّيّة. وكان الانتساب إليها مقتصراً على أولئك الذين أتيح لهم الاطّلاع على أسرارها. وكانت آخر مرحلة في الاطّلاع هي إبلاغ الشخص بأنّ الذي يتمتّع بمثل هذا الامتياز يبلغ الخلاص. وكانوا يبحثون عن الخلاص بواسطة

١ ـ المرجع السابق، ص ٣٦٩

الاتّحاد الشخصيّ مع مخلّص إلهّي اختبر الحياة والموت بنفسه. ومن المظاهر الأخرى لديانات الأسرار التعبير عن المشاعر الشخصيّة بحرّيّة أكثر ممّا تسمح به طقوس الدولة والعائلة[1]. وبما أنّ ديانات الأسرار كانت تنقصها السلطة المعترف بها للعقائد الرسميّة، فإنّها التجأت إلى وسائل جديدة لكي تكسب الأتباع. وكثيراً ما كانت تحوي احتفالاتها عنصراً «تجدديّاً» قد يبلغ حدّ الخلاعة. إضافة إلى أنّ تلك الديانات قد وعدت أولئك الذين قد اجتازوا مراحل الاختبار الضروريّة بحياة سعيدة. وبعد الموت يرتفع المطّلع على الأسرار إلى العالم الإلهيّ ويسكن مع الآلهة.

كذلك كانت هنالك عبادة أخرى في المنطقة تنافس المسيحيّة، هي عبادة «هدد- رومانو» ذي الأصول الساميّة، والذي تحوّل في العصر الهلنستي إلى «زفس» أو «جوبيتير» الذي كان من هيليوبوليس (بعلبك) أو من «هيرابوليس» (منبج). وقد انتشرت عبادته في جميع الأمبراطوريّة. وكانت رفيقته «أثرغاتس» منافسة لـ«إيزيس» ومنهم من يقول: للعذراء[2]. وكان هناك «زفس» أو «جوبيتر» آخر، في بلدة «دوليكه Doliche» التي تعرف بـ«عينتاب[3]» وقد عاش «حيث يوجد الجديد». «جوبيتر دوليكينوس» هذا، هو بالأصل «تيشوب Teshub» إله الحثّيين، نجح بنشر عبادته في الأمبراطوريّة كلّها بصحبة الجيوش الرومانيّة.

أمام هذه المنافسة الدينيّة في المجتمعات الوثنيّة في العصر الميلاديّ الأوّل، كانت المسيحيّة، ذلك الدين الجديد في مجموعة أفكاره وتعاليمه الأخلاقيّة، وفلسفته في الخلود، وعقيدته الراسخة، قادرة كما يبدو، على تلبية المطالب الروحيّة والفكريّة والاجتماعيّة التي كان المتنوّرون غالباً يتطلبونها من دياناتهم التقليديّة في كلّ مكان دون أن ينجحوا في الحصول عليها.

١ ـ المرجع السابق، ص ٣٦٩، استناداً إلى: Franz Cumont, les Religions orientales dans le paganisme Romain, 4ème édition (Paris, 1929) PP. 24 Seq.

٢ ـ المرجع السابق، ص ٣٧٠

٣ ـ المرجع السابق، استناداً إلى: Franz Cumout, Etudes Syriennes, (Paris, 1917) PP, 173 Seq.

كان اليونان والرومان يعتقدون بآلهة متعدّدة، وكانوا بوجه عام متسامحين في موقفهم تجاه معتنقي الديانات الأخرى. والواقع أنّهم ذهبوا إلى حدّ إضافة آلهة جديدة إلى مجموع آلهتهم. وقد سمحوا حتّى في عاصمة أمبراطوريّتهم بالعبادة المصريّة الغريبة، والشعائر اليهوديّة،وأباحوا تمثيل المسرحيّات ، ليس باللغات اللاتينيّة واليونانيّة فحسب، بل باللغات العبريّة والفينيقيّة والآراميّة. وكانت سياستهم في شؤون الدين: «عش ودع الآخرين يعيشون». وبما أنّ المسيحيّين كانوا موحّدين، فإنّهم لم يتمكّنوا من التساهل. وكانوا نشيطين متحمّسين في بحثهم عن أتباع جدد لدياناتهم. وامتنعت جماعاتهم الأولى عن الاشتراك في الاحتفالات الدينيّة والرسميّة في مدنهم. ومثل هذا الموقف غير المتسامح تجاه جميع العبادات الوثنيّة ، بالإضافة إلى جهدهم المستمرّ في كسب الأتباع، كان لا بدّ من أن يؤدّي إلى الاصطدام ....فالاضطهاد.

بولس، رسول الأمم، ورفاقه

لم يكن بولس الرسول، من تلاميذ المسيح. حتّى إنّه لم يعرف المسيح شخصيّاً، وإن كان «رابيّاً» يهوديّاً فرّيسيّاً معاصراً للسيّد المسيح. لا بل هو حارب الدين الجديد بشدّة، إلى أن اهتدى، وهو على طريق دمشق في حوالى سنة ٣٣، فتعمّد على يد حننيّا، ثمّ اختلى في شمال جزيرة العرب مدّة ثلاث سنوات، قبل أن يباشر بعدها تبشير الأمم الوثنيّة في مدن آسية الصغرى ومقدونية واليونان، غير آبه للمصاعب التي أدّت إلى سجنه مرّتين في أورشليم، ومن ثمّ إلى سوقه إلى رومة حيث استشهد بقطع رأسه سنة ٦٧م.

قبل ذلك التاريخ، كان رسل المسيح قد استأنفوا رسالة السيّد بعد صعوده، وبعد أن اختاروا بديلاً ليهوذا الذي «أمسى دليلاً للّذين قبضوا على يسوع»،

فكان ذلك البديل متتيّا الذي ضُمَّ إلى الرسل الأحد عشر[1]. راح بطرس والرسل يدعون اليهود إلى الإيمان بالمسيح مستشهدين بما جاء في كتب العهد القديم من نبوءات حول المسيح. وفي خطبته الأولى إلى اليهود، قال بطرس: «فليعلم يقينا بيت اسرائيل أجمع أن يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم قد جعله الله ربّاً، ومسيحاً[2]». ولمّا كان الناس يقولون لبطرس ولسائر الرسل بعد سماع كلامه «ماذا نعمل أيّها الإخوة؟» كان بطرس يجيب: «توبوا، وليعتمد كلّ منكم باسم يسوع المسيح لغفران خطاياكم، فتنالوا عطيّة الروح القدس. فإنّ الوعد لكم أنتم ولأولادكم وجميع الأباعد، على قدر ما يدعو منهم الربّ إلهنا[3]».

وكان اليهود يتبعون الدعوة بالمئات ، بل بالآلاف أحياناً[4].

لم يكن بوسع الرسل أن يتوجّهوا بهذا الأسلوب نفسه إلى الوثنيّين من أجل دعوتهم لاعتناق الدين الجديد. ذلك أنّ الوثنيّين لم يكونوا مؤمنين بالعهد القديم، ولم يكن مجيء المسيح منتظراً من قبلهم، ولم يكن الوعد لهم ولأولادهم....

كان المسيحيّون الأوائل في إسرائيل ، يواظبون على متابعة تعاليم الرسل «والمشاركة وكسر الخبز والصلوات» التي يعتبر الباحثون أنها كانت قد أضحت صلاة مسيحيّة بكلّ معنى الكلمة، وما عادت صلاة يهوديّة تقليديّة كما كانت قبل المسيح[5]. «وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة، يجعلون كلّ شيء مشتركاً بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم، ويتقاسمون الثّمن على قدر احتياج كلٍّ منهم، يلازمون الهيكل كل يوم بقلب واحد ويكسرون الخبز من البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب، وينالون حظوة، عند الشعب كلّه.... وكان الرّب

١ ـ راجع: اعمال الرسل، ١ : ١٥ ـ ٢٦
٢ ـ أعمال الرسل، ٢ : ٣٦
٣ ـ أعمال الرسل، ٢ : ٣٧ ـ ٣٩
٤ ـ أعمال الرسل، ٢ : ٤١
٥ ـ راجع أعمال الرسل، ٤ : ٢٤ وما يليها

يضمُّ كلَّ يوم إلى الجماعة أولئك الذين ينالون الخلاص[1] »، ولم تنفع ملاحقة الرسل من قبل الصدّوقيّين والكهنة في منع الناس من حمل مرضاهم إليهم وهم يقيمون في « رواق سليمان » ليشفوهم من أمراضهم. وعندما أمر عظيم الكهنة بسجن الرّسل، فتحت أبواب السجن بشكل غريب، مما زاد في عدد الاتباع والمؤمنين[2]. ومع ازدياد الإقبال عليهم، عيّن الرسل سبعة معاونين لهم هم: إسطفانس، وفيلبّس، وبروخورس، ونيقانور، وطيمون، وبرمناس، ونيقلاوس[3]. وأصبح أحد هؤلاء: إسطفانس، أوّل شهداء المسيحيّة إذ رجمه اليهود إثر خطبته المدافعة عن الدين المسيحيّ أمام عظيم الكهنة بخلال اعتقاله. وعقب ذلك اضطهاد شديد على الكنيسة التي في أورشليم، فتشتّت المسيحيّون جميعاً، ما عدا الرسل، في نواحي اليهوديّة والسامرة[4].

وإذ راح الرسل يبشّرون وينصّرون في نواحي السامرة، كان رجل مولود في طرسوس، تعلّم في أورشليم، حتّى استطاع أن يصف نفسه بالعبرانيّ. وكان اسم هذا الرجل: شاول. وكانت له مكانة مرموقة في مجلس اليهود، وكان من أشدّ مضطهدي المسيحيّين، وواحداً من الذين طلبوا الموت لإسطفانس. وكان شاول في هذه الأثناء « ينفث تهديداً وتقتيلاً لمعتنقي المسيحيّة في اورشليم. وبلغ فيه تشدّده في الاضطهاد أن قصد عظيم الكهنة وطلب منه رسائل إلى مجامع دمشق، حتّى إذا وجد أناساً على هذه الطريقة، رجالاً ونساءً، ساقهم موثقين إلى أورشليم. وبينما هو سائر، وقد اقترب من دمشق، إذا نور من السماء قد سطع حوله، فسقط على الأرض، وسمع صوتاً يقول له: « شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ » فقال

١ - أعمال الرسل، ٢ : ٤٢ - ٤٧؛ راجع لوقا، ٢٤ : ٥٣
٢ - أعمال الرسل، ٥ : ١٢ - ٢١
٣ - أعمال الرسل، ٦ : ٥ - ٦
٤ - أعمال الرسل، ٨ : ١ - ٢

« من أنت يا ربّ؟ » قال: « أنا يسوع الذي أنت تضطهده، ولكن قم فادخل المدينة، فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل[1] ».

تلك كانت بداية اهتداء شاول، وهو الاسم العبريّ لبولس، الذي تنصّر فيما بعد على يد حننيّا في دمشق، والذي سيصبح فيما بعد « رسول الأمم ».

بدأ بولس فور تنصّره في دمشق، ينادي في المجامع اليهوديّة بأن يسوع هو ابن الله، أي أنّه « المشيح » المنتظر. ممّا أثار يهود دمشق الذين حاولوا أن يغتالوه، فغادرالمدينة خلسة بمساعدة المؤمنين وعاد إلى أورشليم حيث حاول الانضمام إلى التلاميذ الذين لم يأمنوه،بسبب ما عرف به من عداء للدين الجديد. إلاّ أن لاويّاً قبرصيّاً اسمه يوسف، كان يملك حقلاً كان قد باعه، وأتى بثمنه وألقاه عند أقدام الرسل، الذين لقّبوه بـ« برنابا » أي « ابن الفرج » أخذ بيد بولس وسار به إلى الرسل الذين يبدو أنّهم قبلوه بينهم بعد أن أطلعهم على حقيقة ما جرى معه.

مرّة ثانية، تعرّض بولس لمحاولة الاغتيال من قبل اليهود، وهذه المرّة في أورشليم، فهرّبه الإخوة إلى قيصريّة، ثم رحّلوه منها إلى طرسوس، مسقط رأسه، حيث أقام بضع سنوات.

في هذه الأثناء قام بطرس الرسول بتعميد أوّل مجموعة من الوثنيّين باسم يسوع المسيح، وذلك في قيصريّة. وكانت ردّة فعل الأتباع الأوائل الذين من أصل يهوديّ، في أورشليم، عنيفة، ضد إقدام بطرس على « دخوله إلى أناس قلف وأكله معهم ». ولكنّ بطرس أخبر هؤلاء عن الرؤيا التي أوحى له الله من خلالها بأنْ يعمّد الوثنيّين. « فلمّا سمعوا ذلك، هدأوا ومجّدوا الله وقالوا: قد وهب الله للوثنيّين أيضاً التوبة التي تؤدّي إلى الحياة[2] ».

١ - أعمال الرسل، ٩ : ١ - ٦
٢ - أعمال الرسل، ١١ : ٨

كنيسة إنطاكية، بعد كنيسة أورشليم

كان الذين تشتتوا بسبب الضيق الذي وقع على معتنقي المسيحيّة بشأن استشهاد إسطفانوس، قد انتقلوا الى فينيقية وقبرص وإنطاكية ، حيث راحوا يحاولون إقناع اليهود بالإيمان بأنّ يسوع هو المسيح. وكانوا، باختلاطهم مع اليونانيّين، يحاولون تبشيرهم أيضاً، وقد آمن من هؤلاء، على ما يبدو، عدد لا بأس به، ممّا جعل كنيسة أورشليم توفد إلى إنطاكية برنابا لرعاية هؤلاء. ولمّا رأى برنابا شدّة الإقبال تلك على الإيمان بالمسيح، سارع إلى طرسوس يبحث عن بولس، واصطحبه إلى إنطاكية ، حيث راحا يعملان معاً في تعليم الناس. وهكذا نشأت الكنيسة الإنطاكيّة بعد كنيسة أورشليم، حيث عُرف أتباع الدين الجديد، لأوّل مرّة، بالمسيحيّين[١].

ولن يطول الزمن، حتى تصبح تلك المدينة الوثنيّة الكبيرة: إنطاكية، مركزاً رسوليّاً هامّاً، بالرغم من سمعتها السيّئة التي كانت عليها قبل ذلك التاريخ[٢]. وهي المدينة التي كان سلوقوس الأوّل نيكاتور من ملوك سورية السلوقيّين (٣٥٥-٢٨٠ ق.م.) قد أسّسها في حوالى العام ٣٠٠ق.م. على ضفاف العاصي، ودعاها إنطاكية تخليداً لذكرى أبيه أنطيوخوس[٣]. ثمّ احتلّها الفاتح الرومانيّ بومبايوس سنة ٦٤ ق.م. فاحترم حقّها في إدارة شؤونها الداخليّة، رغم أنّه جعلها مقرّ الحكم الرومانيّ العامّ، فأضحت عاصمة ولاية سورية. وبقيت فلسطين مرتبطة بها حتى سنة ٧٠م. وقد لقّبت انطاكية بـ «تترابوليس ـ Tetrapolis» أي: «المدن الأربع» لأنّها كانت إحدى المدن الأربع الكبيرة التي بناها سلوقس: سلوقية، وأبامية، واللاّذقيّة، إضافة

١ ـ أعمال الرسل، ١١ : ٢٢ ـ ٢٦

٢ ـ راجع: أعمال الرسل: ١٣ : ١ ـ ٣؛ ١٤ : ٢٦ ـ ٢٨؛ ١٥ : ٣٥ ـ ٣٦؛ ١٨ : ٢٢

٣ ـ راجع: Strabo, Geography, BK. XVI: 749 , 751; Diodorees, XX: 47

إلى إنطاكية[١]. لذلك كانت إنطاكية عامرة بالهياكل والقصور والمسارح، وكانت مجهّزة بأقنية المياه التي كانت تتدفّق في عمائرها وحمّاماتها الرومانيّة، كما كانت مجهّزة بطريق ذات أعمدة على جانبيها. وعلى العموم، فقد كانت مجلّلة بأبهى حلل الفخر المدنيّ. وكان العنصر المسيطر في المدينة آنذاك العنصر اليونانيّ، كما كان يقطنها مواطنون من الدرجة الثانية، كالآراميّين واليهود. وكان هؤلاء الأخيرون يمثّلون عِشر مجموع سكّان المدينة الذي كان يبلغ قرابة الأربع مئة ألف نسمة. ويبدو أنّ اليهود كانوا يقطنون في أطراف المدينة عند بوّابتيها الشرقيّة والغربيّة[٢] كما كان بعضهم يقوم بأعمال الزراعة في السهول الواقعة قرب المدينة[٣]. وتدلّ الدراسات المتعمّقة أن يهود إنطاكية كانوا يومذاك كما في فلسطين، فئتين: الفئة المحافظة والمتمسّكة بالأصوليّة، وجماعة هذه الفئة كانت من المعوزين، ثمّ الفئة المتهلسنة، وأفرادها من الذين انضمّوا إلى الجيش السلوقيّ فأضحوا بذلك يتمتّعون بحقوق المواطن الهلينيّ[٤]. والسائد أنّ يهود إنطاكية كانوا ، في بداية المسيحيّة، يتمتّعون بحرّيّة العبادة، وكانت لهم محاكمهم الخاصة التي كانت تنظر في شؤون جاليتهم داخل المدينة.

إعتبر جمهرة من المدقّقين في تاريخ نشوء المسيحيّة أنّ كنيسة إنطاكية، لم تؤسَّس على يد بولس، بل على يد بطرس. ومن أصحاب هذا الرأي، القدّيس إيرونيموس[٥] (حوالى ٣٤٧-٤١٩) الذي يُعدُّ من آباء الكنيسة. وهو الذي أرّخ وفسّر الأسفار المقدّسة وترجمها بكاملها الى اللاتينيّة، فأصبحت النصّ المعتمد من قبل الكنيسة الغربيّة. وكذلك المؤرّخ الكنسي يوحنّا الأفسسيّ[٦] (٥٠٧-٥٨٦) .

١ - Strabo, Géog. Bk. XVI: 750

٢ - Leclercq, Antioche, II: 150; Cheysostomos, Homelies against the jews, I: 6

٣ - Talmud de jerusalem, II: 144

٤ - Keaeling, Jewish community at Antioch, (Journ. of Bib. Lit. 1922)P. 135

٥ - Primum Episcopum Antiochenae Ecclesiae fuisse “eumque Romae translatum”. S. jerome Migne, Pat. lat., Vol. 26, Col. 340; Vol. 23, Col, 637. Eusibirs,

٦ - Eusibius, Historia ecclesiastica, Bk. III: 22, 36

ورأى كثيرون من الباحثين في التاريخ الكنسيّ فيما بعد الرأي نفسه، باستثناء بعض الذين قالوا بأن مؤسّس الكنيسة الإنطاكية إنّما هو برنابا[1].

في الواقع هناك كنائس كثيرة تدّعي بأن بطرس الرسول هو الذي أسّسها، أو أنّ بعض المؤرّخين يدّعي لها ذلك، منها كنائس: صور، وصيدا، وطرابلس وقيصريّة فلسطين وسواها. وإذا لم يكن هنالك ما ينفي صحّة هذه الاعتبارات، فليس هنالك ما يثبّتها، سوى أنّ المرجع الأوثق لتاريخ الكنيسة في بداية عهدها، يبقى أعمال الرسل، الذي لا يذكر شأناً لبطرس في تأسيس كنيسة إنطاكية، وإن كانت المراجعة الدقيقة لأعمال الرسل تدلّ على أنّ بطرس كان دائم الترحال في تبشيره. ثمّ إنّ التقليد الكنسيّ يعتبر أنّ إنطاكية «أضحت كرسيّاً رسوليّاً على رأسه بطرس الرسول حتّى انتقاله إلى رومة». ولكن هذا لا يعني، حكماً، أن بطرس هو الذي أسّس كنيسة إنطاكية!

على أيّ حال، فإن كنيسة إنطاكية، هي الكنيسة الثانية التي تأسّست بعد الكنيسة الأمّ في أورشليم. وما يميّز الثانية على الأولى، هو أنّ كنيسة أورشليم إنّما كانت، في بدايتها، شبه محصورة باليهود المتنصّرين، بينما اتّخذت كنيسة إنطاكية الطابع الأمميّ. فغدت البوّابة الكبرى التي انطلقت منها المسيحيّة إلى العالم. ومن إنطاكية، كما ذكرنا سابقاً، إنطلقت التسمية المسيحيّة على المؤمنين بدين يسوع، الذين لم يُعرفوا قبلاً بهذه الصفة.

سرعان ما غدت كنيسة إنطاكية أمّ كنائس الأمم، وكان بولس وغيره من الدعاة الأوائل للدين المسيحيّ، ينطلقون من إنطاكية للقيام بأعمالهم التبشيريّة ثمّ يعودون إليها لرفع التقارير عن أعمالهم. وبعد أن دمّر الرومان أورشليم سنة ٧٠م[2]. ودُمّرت بذلك الكنيسة الأمّ فيها، غدت إنطاكية العاصمة الوحيدة للعالم

١ ـ Colson (J). L'Evêque dans les communautés Primitives, "unam sanctum" (1951) PP.27 - 44 راجع: أسد رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، المكتبة البولسية، بيروت (طبعة ١٩٨٨) ج ١، ص ١٩ ـ ٢٠

٢ ـ انظر الجزء السابق من هذه الموسوعة، ص ١٥٤.

المسيحيّ[1]. وكان قد أقبل المقيمون في إنطاكية، عاصمة الشرق، من يونانيّين وثنيّين، على اعتناق الدين الجديد، ممّا فتح المجال واسعاً أمام انتشار المسيحيّة في سائر المناطق القريبة. إلاّ أنّ هذه الانطلاقة المسيحيّة الواسعة، قد تأثّرت سلباً بتلك الظاهرة التي لم تسلم منها أيّة دعوة أخرى ظافرة في تاريخ الإنسانيّة: البدع والهرطقات.....والانقسامات.

البدع والهرطقات

من إنطاكية، إنطلق بولس ورفاقه إلى منطقة أفسس وإزمير وآسية الصغرى ومقدونية وبلاد اليونان وإيطالية. وانتشر الإيمان بالسيّد المخلّص في هذه الحقبة في ما وراء الفرات، بفضل كرازة توما وتلميذه أديّ او ثديّ (Thaddaion)، وهو أحد السبعين، وإليه يُنسب تأسيس كنيسة الرها وغيرها من الكنائس في العراق وجوارها[2].

لم يكن المجمع الأورشليميّ المسيحيّ الأوّل حاسماً بالنسبة لبعض الآراء اليهوديّة المتطرّفة الصادرة عن بعض من اتّبعوا المسيحيّة من اليهود، فراح هؤلاء يعارضون أعمال التبشير التي كان يقوم بها بولس ورفاقه بين الوثنيّين. وبلغت معارضتهم حدّ الحرب العقائديّة، إذ راحوا يتتبّعون بولس في آسية الصغرى وبلاد اليونان داعين المسيحيّين من أصل يهوديّ إلى الانتفاض على بولس، والذين من أصل وثنيّ إلى وجوب الاختتان وحفظ السبت وسوى ذلك من فرائض العهد القديم. ويبدو أنّ أمر هؤلاء قد استشرى بشكل خطير، ممّا أوجب على بولس إرسال رسائله الستّ إلى كنائس المنطقة، ساعياً إلى تحرير المسيحيّة من تلك الاعتبارات اليهوديّة الأصوليّة. وقد اعتبر غلاة «النصارى» ـ أي أولئك اليهود

١ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١

٢ ـ Eusebius, historia, I, 13. III, 1; Ormanian, Patriarch Malakhia, the church of Armenia,P. 3

المتنصّرون - من بني إسرائيل بولس مرتدّاً، وكفّروه، ممّا جعل بولس يعتبر أولئك النصارى في رسائله: «الأخوة الكاذبين». وفي رسائله الكلاميّة إلى الغلاطيّين وإلى الكورنثيّين وإلى الرومانيّين، يتصدّى بولس «للنصرانيّة» المحافظة التي تريد إقامة التوراة والختان مع الإنجيل والعماد. ولسان حاله أنّ «الخلاص والتبرير بالإيمان بالمسيح والإنجيل، لا بأعمال الشريعة» فقد نسخ المسيح الشريعة بصليبه. يقول للغلاطيّين: «الإنسان لا يبرّر بأعمال الشريعة، بل بالإيمان بيسوع المسيح... إذ ما من إنسان يبرّر بأعمال الشريعة[1]». ويقول في رسالة أخرى حمل عبرها على «أهل الشرّ» و«وأهل البتر» - أي الختان: «في كلّ شيء لا أرى سوى أقذار... حتّى أربح المسيح وأجدني فيه، لا على برّي الذي من الشريعة، بل على البرّ الذي بالإيمان بالمسيح؛ البرّ الذي من الله، القائم على الإيمان[2]». ويقول للكورنثيّين، في ردّ عنيف ضدّ «النصارى» من بني إسرائيل الذين طعنوا في سيرته وفي دعوته وفي رسوليّته، متستّرين خلف بطرس، ومعتمدين على أسلوب الحكمة في تقديم معتقدهم: «لو جاءكم أحد يدعو بيسوع آخر لم ندعُ به، أو نلتم روحاً آخر غير الذي نلتموه، أو بشارة غير التي قبلتموها، لاحتملتموه أحسن احتمال، ولكنّي أحسب أنّي لست أقلّ شأناً من أولئك الرسل الأكابر[3]»... «إنّ هؤلاء القوم رسلٌ كذّابون وعملة مخادعون يتزيّون بزيّ رسل المسيح. ولا عجب فالشيطان نفسه يتزيّا بزيّ ملاك النور، فليس بغريب أن يتزيّا خدمه بزيّ خدم البرّ. ولكنّ عاقبتهم تكون على قدر أعمالهم[4]».

وفي رسائل بولس إلى أهل رومة مواقف مماثلة، وأخرى تحذّر من الشقاق الذي يحاول هؤلاء «النصارى» من اليهود أن يثيروه بين المسيحيّين، ويدعو إلى

١ - رسالة بولس إلى أهل غلاطية، ٢ : ١٦

٢ - الرسالة إلى أهل فيلبي، ٣ : ٨ - ٩

٣ - الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس، ١١ : ٤ - ٥

٤ - الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس، ١١ : ١٣ - ١٥

الابتعاد عنهم «فإنّ أمثال أولئك لا يعملون للمسيح ربّنا، بل لبطونهم، ويضلّون القلوب بمعسول كلامهم وتملّقهم[1]».

لم تكن «النصرانيّة» البدعة الوحيدة التي عرّضت الرسالة المسيحيّة في بداية عهدها للانقسامات، بل ظهر العديد من البدع والهرطقات، اهمّها الغنوصيّة[2] التي قالت بإله واحد لا يدرَك «صدرت عنه أرواح هي الأيونات والأراكنة. وقد صدرت هذه أزواجاً ذكرا وأنثى، وراحت تتضاءل في الألوهيّة كلّما ابتعدت عن مصدرها الإله الأعلى. وعندما أراد أحد الأراكنة أن يرتفع إلى مقام الإله الأعلى، طُرد من العالم المعقول... فصدرت عن هذا الأركون الخاطئ أرواح شرّيرة مثله، وصدر العالم المحسوس الذي لم يكن ليوجد لولا الخطيئة. وبذلك يكون هذا العالم عالم شرّ ونقص بصانعه وبالمادة المصنوع منها». وقالوا بأنّ «هذا الأركون الخاطئ حبس النفوس البشريّة في أجسامها فكوّن الإنسان، وإنّ هذه النفوس تتوق الى الخلاص، وإن الناجين قليلون لأن الناس ثلاث طوائف متمايزة هي: طائفة تشمل الروحيّين الذين هم من أصل إلهي وهم الغنوسيّون صفوة البشر، وطائفة ثانية تتألّف من المادّيّين الذين لا يمكنهم أن يصعدوا فوق العالم السفليّ، وثالثة تجمع الحيوانيّين الذين قدِّر لهم الارتفاع والسقوط: النجاة والهلاك». وقد اختلفوا في طريقة النجاة، فمنهم من قال بقهر الجسد، ومنهم من قال باطلاق العنان للشهوة[3]».

ومن أصحاب البدع والهرطقات في بداية عهد المسيحيّة، «سيمون الساحر» الذي جاء ذكره في أعمال الرسل، وهو كان يدهش الناس في نواحي السامرة من خلال اعمال السحر، فكانوا «يصغون إليه... ويقولون: هذا هو قدرة الله التي يقال لها القدرة العظيمة[4]». ذلك أنّهم كانوا يرون فيه انبثاقاً مباشراً لقدرة الله نفسها.

١ - الرسالة إلى أهل رومة، ١٦ : ١٧ - ١٨

٢ - من اليونانية: Gnosis أي المعرفة والحكمة.

٣ - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢٤٤ - ٢٤٦

٤ - أعمال الرسل، ٨ : ١٠

في تلك الأثناء، كان فيلبّس، أحد السبعة، قد نزل في السامرة، وراح يبشّر أهلها بالمسيح. وقد لاقت دعوة فيلبّس إقبالاً شديداً، وراح الناس يعتمدون رجالاً ونساء، كذلك فعل سيمون نفسه الذي لزم فيلبّس بعد أن اعتمد. ولمّا سمع الرسل في أورشليم أنّ السامرة قبلت كلمة الله، أرسلوا اليها بطرس ويوحنّا. وهنا يبدو واضحاً أنّ سيمون الساحر لم يكن قد تخلّى عن طموحاته، ذلك أنّه عندما «رأى أنّ الروح القدس يوهَب بوضع أيدي الرسولَين ـ على الناس ـ عرض عليهما شيئاً من المال وقال لهما: ـ أعطياني أنا أيضاً هذا السلطان لكي ينال الروح القدس من أضع عليه يديّ ـ فقال له بطرس: ـ تبّاً لك ولمالك، لأنّك ظننت أنّه يمكن الحصول على هبة الله بالمال. فلا حظّ لك بهذا الأمر ولا نصيب، لأنّ قلبك غير مستقيم عند الله. فاندم على سيّئتك هذه، واسأل الربّ لعلّه يغفر لك ما قصدت في قلبك. فإنيّ أراك في مرارة العلقم وشرك الأثم ـ. فأجاب سيمون: ـ إشفعا لي أنتما عند الربّ لئلاّ يصيبني شيء مما ذكرتما[1] ـ.

ويذكر بعض كتب الأبوقريفة غير المعترف بصحّتها من قبل الكنيسة. أنّ سيمون الساحر قد انتقل بعد ذلك إلى رومة حيث عظم شأنه. ولكن جوستينيان القدّيس، يؤكّد أنّ أتباع سيمون في السامرة كانوا كثراً، وأنّهم اعتبروه الإله الأعلى، وأشركوا معه ENNOIA ـ الفكر، الذي انبثق عنه، فتجسّد في امرأة اسمها هيلانة، وهي الزانية الصوريّة امرأة MENELAUS[2]. وقد قال سيمون إنّ الإله الأعلى أظهر نفسه بصفة الابن بيسوع بين اليهود، وبصفة الآب بين السامريّين في شخصه هو، أي في شخص سيمون، وفي بلاد أخرى بصفة الروح القدس[3].

ومن الذين ادّعوا الألوهيّة أيضاً لأنفسهم في هذه الحقبة مستغلّين البشارة

١ ـ راجع أعمال الرسل، ٨ : ١٤ ـ ٢٤

٢ ـ St. Justinus, Apol., I, 26, 56; Dial., 120.

٣ ـ St. Irenaeus, Hear., I, 23.

المسيحيّة، وعلّموا بما يشبه ما علّم به سيمون الساحر، ساتورنينوس SATURNINUS في إنطاكية بين نهاية القرن الأوّل وبداية القرن الثاني، الذي تمكّن من استيعاب أتباع كثر، وقد قال بإله واحد آب خلق القوى والملائكة ورؤساءهم، وبأنّ سبعة من هؤلاء الملائكة كوّنوا العالم المنظور، وقد قُدّر لهم أن يرمقوا الإله الأعلى بالرؤيا، فخلقوا الإنسان على صورة هذا الإله، ولكنّهم جعلوه يزحف زحفاً، فشمله الإله الأعلى بعطفه وحنانه لأنّه كان على مثاله، فأمر أن ينتصب فيمشي على قدميه. وقد جعل ساتورنينوس إله اليهود أحد هؤلاء الملائكة، وجعل الباقين مصدر وحي الأنبياء، وأشرك الشيطان في هذا الوحي في بعض الأحيان. وجعل الملائكة السبعة في نزاع مستمرّ مع الإله الأعلى، كما جعل هذا الإله يُصدر عن نفسه مخلّصا ليقضي على هؤلاء الملائكة ويخلّص الإنسان. إلاّ أنّه اعتبر أنّ ذلك المخلّص لم يولد ولادة بشريّة ولم يكن له جسم إنسان[1].

ومن أصحاب البدع أيضاً عصر ذاك، ميناندروس الكبّارتي Menandros cappacatea وذوسيثيس Dositheus وكليوبيوس Cleobius، الذين ادعى كلّ منهم الألوهيّة. وهنالك كيرنثوس Cerinthos، اليهوديّ المصريّ الذي جاء أورشليم في أيّام الرسل، ومنها انتقل الى قيصريّة فلسطين ثمّ إلى إنطاكية حيث راح يعلّم بوجوب حفظ السبت والاختتان وغير ذلك من فروض الناموس، مدّعياً بأنّ السيد المسيح هو ابن يوسف ومريم، وبأنّ ملاكا من الملائكة خلق الكون، وآخر اعطى الشرائع والناموس، وهذا الأخير هو الله إله اليهود، وأنّ شيئا من الروح القدس المنبثق من الاله حلّ على يسوع عند اعتماده في الأردّن فرافقه حتّى الصلب[2]. وقد نفى قيامة السيد المسيح وأرجأها حتّى قيامة «جميع الأتقياء[3]».

١ـ Eusebius, hist. Ecc, IV, 22; St. Irenaeus, I, 23-24; وراجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى. ج١ ص ٢٩ ـ ٣٠

٢ ـ St. Irenaeus, Haer., I, 26.

٣ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله. ج١، ص ٣٠ ـ ٣١

وظهر الأبيونيّون Ebionaioi[1] الذين تفرّعوا عن كنيسة أورشليم، وتفرّقوا معلّمين أنّ المخلّص هو ابن يوسف، وأنّ بولس مرتدّ عن الدين القويم، متمسّكين بالناموس، وكانوا يجعلون في صلواتهم أورشليم قبلة لهم.

كذلك ظهر الدوكينيّون الذين قالوا بأنّ يسوع المسيح لم يولد من لحم ودم، ولم يكن له جسد، ولم يتألّم، ولكن شُبّه لهم[2].

ويبدو أن الأنتيمونيّة قد بدأت بالظهور في ذلك العهد أيضاً، وهي القائلة بأنّ من يؤمن لا يخطئ، وبالتالي فلا يربطه ناموس[3].

كذلك ظهر النيقولاويّون «الذين يتمسّكون بتعليم بلعام، الذي علّم بالاق أن يلقي معثرة أمام بني اسرائيل حتى يأكلوا من ذبائح الأوثان ويزنوا[4]» وفيما يذهب البعض إلى أن النيقولاويين هم شيعة نيقولاوس الانطاكي احد الشمامسة السبعة الذين رسمهم الرسل، وأن نيقولاوس هذا ضل في الايمان وخرج عن الكنيسة، يعتبر آخرون بأن هذا القول ضعيف لأن مراجع اصحابه متأخرة ونصوصها مبهمة غامضة، ويخلصون إلى الاعتراف بعدم معرفة من هم هؤلاء بالضبط[5].

التنظيم الكنسي

وسط هذا السيل من البدع والهرطقات، كان على الرسل أن يجتهدوا في حفظ الايمان القويم، رغم الاضطهاد الفظيع الذي كانوا يتعرّضون له. وراح المهتدون

١ ـ يختلف الباحثون في أصل التسمية، فبنسبه بعضهم إلى أبيون Ebion على أنّه المؤسس، ويقول آخرون بأنه مشتق من «أبيونيم» العبريّة، ومعناها: الفقراء، وبأنه مأخوذ من الآية: «طوبى لكم أيها المساكين، فإن لكم ملكوت الله» لوقا ٦ : ٢٠ متى ٥ : ٣

٢ ـ من هذه الفكرة اتخذ الدوكينيون اسمهم، واللفظ Dokein يوناني، معناه لاح وبدا.

٣ ـ Antinomisme. راجع: Goguel M., Naissance du christianisme, 445

٤ ـ رؤيا يوحنا: ٢ : ١٤؛ ١٨ : ٢٦

٥ ـ رستم، كنيسة مدينة الله، ج ١ ص ٣٥؛ راجع: Goguel M., les Nicolaites, Reu. de l'histoire des Religions, 1937, 5 - 36

ينضمّون إلى جماعات، ما لبث سفر اعمال الرسل أن سمّاها كنائس، لم يحل عددها الكثير دون سيرها على طريقة واحدة، فصارت فيما بعد كلمة «كنيسة» تدلّ على مجموعة الكنائس.

وكان من الطبيعيّ أن تبرز داخل الكنائس جماعات من المؤمنين تقوم بأعمال خاصّة، وكان هذا في البداية شأن الرسل الإثني عشر، وعلى رأسهم بطرس، وكان لهم في أورشليم وفي خارجها منزلة فريدة من نوعها، وقد تجاوز دورهم رسالتهم الأساسيّة، وهي أن يكونوا شهوداً وخدّاماً للكلمة، فإنّ وجودهم في أورشليم قد مكّن الجماعة الأولى (كنيسة أورشليم) من أن تكون مركزاً منظّماً، فالرسل هم الذين أقاموا الشمامسة السبعة، بعد أن طغت عليهم الأعباء، فأرادوا أن يحفظوا أهمّها. ومن جهة أخرى، فيسوع نفسه عهد الى بولس برسالة، إن لم تكن على قدر رسالة الرسل، فقد كانت مع ذلك أساسيّة، فجعلت منه مؤسّساً ومسؤولاً عن كنائس. أمّا الأنبياء فشأنهم يختلف كل الاختلاف عن الرسل، فليس الناس هم الذين «يقيمونهم» بل الروح هو الذي يلهمهم ويقومون بعمل مهمّ في حياة الكنائس.

أمّا الشيوخ الذين يرد ذكرهم في مدوّنات تلك الحقبة، خاصّة في سفر أعمال الرسل، فهم الذين أقامهم بولس للاضطلاع بأعباء الكنائس في غيابه، وهكذا يُفترَض بشيوخ أورشليم الذين كانوا حول يعقوب[1].

بذلك يتّضح أنّه كان للكنيسة (والكنائس) في القرن الأوّل شبه بنية، أصبحت في كنيسة إنطاكية تشمل، إضافة إلى الرسل، الأنبياء والمعلّمين،

١ ـ راجع: الكتاب المقدس، العهد الجديد دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ٣٧٠، وراجع أعمال الرسل، ١ : ٢؛ ١ : ٣١؛ ٢ : ١٤؛ ٥ : ٣؛ ٥ : ٢٩؛ ٩ : ٣٢؛ ١٥ : ٧؛ ٤ : ٣٣ ـــ ٣٧؛ ٥ : ١٢؛ ٥ : ١٨؛ ٥ : ٤٠؛ ٩ : ٢٧؛ ٨ : ١٤؛ ٩ : ٣٢؛ ١١ : ١؛ ١١ : ٢٧ ـــ ٣٠؛ ١٥ : ٢؛ ١٥ : ٣٦؛ ١٣ : ٣١؛ ٢٠ : ١٨؛ ١١ : ٣٠؛ ٢١ : ١٨؛ ١٢ : ١٧؛ ١٥ : ١٣.

والأساقفة[1]، والشيوخ، ثمّ الشمامسة[2]، ولا يعني هذا أنّ «الأخوة» العاديّين لم يكن لهم أيّ عمل، سواء كانوا أصحاب رتب أم لا، فقد كانوا يشاركون في اختيارات هامة، ونرى على سبيل المثل أنّ مجمع أورشليم يُختتم بقرار من الروح القدس، بإجماع من الكنيسة كلّها[3].

الانتشار المسيحيّ

يبقى سفر أعمال الرسل، المرجع الأوثق لتطوّر الانتشار المسيحيّ في بداية عهد المسيحيَّة، رغم أنّ هذا السفر «من جهة كونه وثيقة تاريخيّة، قد أغفل بعض الأمور، فهو لا يقول شيئاً، على سبيل المثل، في إنشاء كنائس كثيرة[4]». بيد أن مراجعة هذا السفر، بالإضافة الى رسائل بولس، إن حصلت بدقّة، من شأنها أن تكوّن تصوّراً عامّاً عن ذلك الانتشار الذي اتَّسع على يد بولس وغيره من الدعاة الأوائل للدين المسيحيّ الذين كانوا ينطلقون من إنطاكية في أعمالهم التبشيريّة ثمّ يعودون إليها لرفع التقارير عن أعمالهم. وسبق أن ذكرنا أنّ إنطاكية، بعد أن دمّر الرومان في ٧٠م. منافستها أورشليم، أصبحت العاصمة الوحيدة للعالم المسيحيّ، وتمتّعت لبعض الوقت بمقدار معيّن من السلطة على الأبرشيّات، المجاورة على الأقلّ[5].

يفيدنا سفر أعمال الرّسل أنّ بولس وبرنابا انطلقا أوّلاً إلى سلوقية[6]، ثمّ أبحرا منها إلى قبرص حيث أخذا يبشّران في مجامع اليهود، ويبدو أنّ عددا لا

١ ـ الاسقف، لفظ يوناني مركب Episcopos معناه الرقيب أو الناظر، وهو مركب من .Epi أي على، و Skopein ومعناه لاحظ وراقب. ويتضح من بعض النصوص أن الاسقف إن هو إلاّ شيخ، أي أن الاسقف والشيخ كانا اسمين لمسمّى واحد على الصعيد الكنسي في ذلك العهد.

٢ ـ شماس، لفظ سرياني معناه: خادم ديني.

٣ ـ اعمال الرسل، ١٥ : ٢٢ ـ ٢٣ و ٢٨

٤ ـ الكتاب المقدس، العهد الجديد. ص ٣٦٧

٥ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١

٦ ـ سلوقية: إسم أطلقه السلوقيون على عدة مدن اسسوها أو استبدلوه بأسمائها القديمة، والغالب أن المقصود هنا بسلوقية هي سلوقية بيريا أو السويدية في تركيا التي عرفت أيضاً بسلوقية تراخيا أو سلفكا. أعمال الرسل، ١٣ : ٤ ـ ٧؛ ٣

بأس به قد اعتنق المسيحيّة، ومنهم «الحاكم سرجيوس بولس، الرجل العاقل الذي آمن وقد أُعجب بتعليم الربّ». وفي مرحلة لاحقة تمكّن الرسولان من النجاح أيضاً في أيقونية رغم المصاعب التي لاقياها من قبل اليهود، وكذلك نجحا في مدينة دربة، «فعيّنا شيوخاً في كلّ كنيسة (أسّساها) وصلّيا وصاما، ثمّ استودعوهم الربّ الذي آمنوا به[1]». وفي الحقبة نفسها نشأت كنائس عديدة على أيدي بولس وبرنابا إضافة إلى تلك التي نشأت على أيدي بطرس الرسول وسيلا في سورية وقيليقية[2]. وكانت «الكنائس ترسخ في الإيمان ويزداد عددها يوماً بعد يوم[3]». في فيليبي[4]، وتسالونيقي[5] وبيرية[6] وأثينة[7] التي كانت ميدان اللقاء الأوّل بين الإنجيل والفكر الوثنيّ، إضافة إلى كنيسة قورنتس[8] التي كانت شهيرة بعبادة أفروديت، وكانت سمعة أهاليها سيّئة بسبب تلك العبادة، ومع ذلك فقد تأصّلت فيها المسيحيّة من خلال البيئات الشعبيّة[9]. وكنيسة أفسس[10]. وكنيسة غلاطية[11] التي

١ ـ أعمال الرسل، ١٤ : ٢٠ ـ ٢٣

٢ ـ اعمال الرسل، ١٥ : ٤٠ ـ ٤١؛ راجع أيضاً: ١٤ : ٢٤ ـ ٢٥

٣ ـ أعمال الرسل، ١٦ : ٥

٤ ـ فيليبي: مستعمرة رومانية، كانت عظمى المدن في ولاية مقدونية، وكان قسم من سكانها جنوداً قدماء للامبراطور انطونيوس وفلاّحين ايطاليين. وكانت ادارة شؤونها رومانيّة. راجع: أعمال الرسل: ١٦ : ١١ ـ ١٢؛ ١٦ : ٣٣ ـ ٤٠

٥ ـ تسالونيقي: هي «سلانيك» مرفأ في شمالي اليونان (مقدونية) راجع: أعمال الرسل ١٧ : ٢٤

٦ ـ في شمالي اليونان (مقدونية). أعمال الرسل، ١٧ : ١٠ ـ ١٢

٧ ـ أعمال الرسل، ١٧ : ١٦ ـ ٣٤

٨ ـ مستعمرة رومانية. أنشأها يوليوس قيصر. كانت عاصمة اقليم أخائية. كانت مركزاً تجارياً هاماً، له مرفآن، وكان سكانها من أجناس مختلفة، إلى جانب عنصر أساسي لاتيني. راجع أعمال الرسل، ١٨ : ١ ـ ١٧

٩ ـ راجع: رسالة بولس الاولى إلى أهل قورنتس، ١ : ٢٦

١٠ ـ كانت أفسس من أكبر مراكز العالم اليوناني الروماني التجارية والدينية. وفي أفسس أقام بولس سنتين (الرسل، ١٩ : ١٠ وما يليها) وفيها كتب الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس. ويرجّح أنه كتب فيها أيضاً الرسالة إلى أهل غلاطية، وربما الرسالة إلى أهل فيليبي. راجع: الرسل، ٢٠ : ١؛ ٢٠ : ١٨ ـ ٣٥؛ راجع أيضاً: الرسالة إلى أهل أفسس؛ راجع أيضاً: الرؤيا ٢ : ١ ـ ٧

١١ ـ غلاطية: اقليم روماني كان يقع بين قبدوقية والبحر الاسود، ويمتد الى جوار أنقرة، وكان سكانه من أصل كلتي. راجع: أعمال الرسل، ١٣ : ١٤؛ ١٤ : ٢٥؛ ١٦ : ٦؛ ١٨ : ٢٣؛ راجع أيضاً: رسالة بولس إلى أهل غلاطية.

خصّها بولس برسالته الشهيرة، وكذلك كنيسة قولسي[1] التي أنشأها أبفراس تلميذ بولس، وهو الذي أنشأ ايضاً كنيستَي هيرابولِس واللاّذقيّة[2] وهما مدينتان متجاورتان وقد ذكرت اللاّذقيّة «بين الكنائس السبع» من آسية التي ورد ذكرها في سفر الرؤيا[3]، وارتأى بعضهم أنّها لربّما كانت هي التي وُجِّهت إليها الرسالة التي يُقال لها الرسالة إلى أهل أفسس[4].

أمّا في لبنان، فكان «المسيح ذاته أتى... إلى نواحي صور وصيدا[5]. وبينما كان يتجوّل هناك، أتته أمرأة كنعانيّة تضرّعت إليه أن يشفي ابنتها المصابة بالجنون فشفاها... وهناك على بعد ميلين أو أكثر جنوبيّ صيدا كهف قديم، ربّما كان معبداً لعشتروت، تقوم على أنقاضه كنيسة شُيِّدت على إسم سيّدة المنطرة، يصرّ التقليد على أنّ مريم أمّ يسوع أقامت هناك تنتظر قدوم ابنها إلى صيدا. وعلى هذا التقليد سمّيت الكنيسة بسيِّدة المنطرة. وعلى أثر استشهاد إسطفانوس، أوّل شهيد مسيحيّ، تشتّت تلاميذ المسيح للكرازة، وقد اجتازوا فينيقية[6]. هذه الإشارات الواردة في الأناجيل، وفي التقليد، تدلّ على أنّ المسيحيّة دخلت لبنان في عهد الرسل، ووجدت تربة صالحة. وكانت صور اوّل مدينة فينيقيّة قامت فيها جالية مسيحيّة. يقول لنا سفر أعمال الرسل أنّ بولس الرسول عندما رجع من بلاد اليونان لزيارة أورشليم، وكانت آخر زيارة له، عرّج على صور فوجد فيها كنيسة تضمّ أعضاء من رجال ونساء وأولاد، وقد أقام بينهم سبعة أيّام، وقد حذّره مسيحيّو صور من الذهاب إلى أورشليم لأنّهم كانوا يوجسون خيفة عليه، فتضرّعوا

١ ـ بلدة من «فريجية» في آسية الصغرى، على بعد ٢٠٠ كلم من أفسس الى الشرق. راجع: رسالة بولس الى أهل قولسي.
٢ ـ الرسالة إلى أهل قولسي، ٤ : ١٣
٣ ـ سفر الرؤيا ١ : ١١؛ ٣ : ١٤
٤ ـ راجع: الرسالة إلى أهل قولسي، ٤ : ١٦. وراجع: العهد الجديد، دار المشرق، بيروت ١٩٩١ ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦_١
٥ ـ متى ١٥ : ٢١ ـ ٢٨؛ مرقس، ٧ : ٢٤ ـ ٣١
٦ ـ أعمال الرسل، ١١ : ١٩

إليه ليظلّ عندهم. وعندما شيّعوه الى الشاطئ ليستقلّ السفينة، ركعوا على الرمال وصلّوا من أجله[1]. ثمّ إنّ بولس الرسول عرّج وهو في طريقه جنوباً على مدينة عكّة، حيث استقبلته الجالية المسيحيّة[2]. وعندما قفل راجعاً إلى رومة، عرّج على صيدا، حيث كان هنالك كنيسة وجالية مسيحيّة «ليحصل على عناية منهم» وقد كان ذلك عند منتصف القرن الأوّل ميلاديّ[3]».

أمّا في مصر، فليس لدينا ما يشير إلى أكثر من نشوء كنيسة في الإسكندريّة، وقد ذكر بعض المراجع «أنّ رئيس كنيسة الإسكندريّة كان بادئ الأمر الأوّل بين أقرانه الشيوخ والأساقفة Primus inter Pares وكان هؤلاء يقيمون رئيساً بوضع الأيدي... ولعلّ السبب في ذلك أنّ أسقف الإسكندريّة ظلّ الأسقف الأوحد في مصر حتّى أوائل القرن الثالث. فالأسقف ديميتريوس الثالث (١٨٩ ـ ٢٣٢) كان أوّل من سام أساقفة في مصر خارج الإسكندريّة[4].

ويتّضح من الرسائل التي وجّهها خليفة بطرس الثاني إغناطيوس ثيوفوروس (٦٤ ـ ١٠٧) إلى الكنائس ومن جولاته الرعائيّة، أنّ هذه الكنائس كانت قد انتشرت قبل نهاية القرن الأوّل في آسية الصغرى والبلقان وإيطالية. وقد شملت هذه الرسائل، علاوة على كنائس أفسس ومغنيسية[5] وترلّة ورومية وفيلدلفية[6] وأزير، كلاّ من إنطاكية وطرسوس وفيليبي وهيرون[7].

١ ـ أعمال الرسل، ٢١ : ٤ ـ ٦
٢ ـ أعمال الرسل، ٢٢ : ٢١ : ٧
٣ ـ حتي، لبنان في التاريخ. ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥
٤ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى. ج١ ص ٤٤ ـ ٤٥؛ Patrologia Gracca, vol. 61, P. 982
٥ ـ Magnésia مدينة في ليديا (آسية الصغرى) على الرموس غربي تركية الاسيويّة. وهي اليوم مدينة مانيسا.
٦ ـ الاسم اليوناني لعمّان. وكانت كنيستها تعد من الكنائس السبع التي كانت تشمل: أفسس، أزمير، برغامس، تياطيرة، سرديس، اللاذقية، إضافة إلى فيلدلفية؛ راجع: رؤيا القديس يوحنّا، ١ : ١١؛ ٣ : ٧؛ Codex Mediceus Lautenlianus. P. 57
٧ ـ أعمال الرسل، ٢٧ : ٣

الحياة المسيحية

في القرن الاول

عاش مسيحيّو القرن الأوّل الذين اتَّبعوا الرسل وآباء الكنيسة حياة مسيحيّة حقيقيّة، فكانوا «جماعة واحدة، يجعلون كلّ شيء مشتركاً بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كلّ منهم، يلازمون الهيكل كلّ يوم بقلب واحد، ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب، يسبّحون الله وينالون حظوة عند الشعب كلّه[1] ...». وقد اهتمّ سفر أعمال الرسل بالإشارة إلى الملامح التي كانت تميّز الجماعة الأولى، من وحدة[2]، وإجماع[3]، ومشاركة[4]، ومقاسمة الأملاك والأموال[5].

مارس المسيحيّون في القرن الأوّل سرّ الأفخارستيّة، إذ كانوا ينهضون في يوم الربّ باكراً في الساعة نفسها التي تغلّب فيها السيّد المسيح على الموت، ويؤمّون الكنيسة للصلاة والتبرّك والشكر والاعتراف بالخطايا وتقديم القرابين. وكانوا يتناولون في عشيّة الأحد عشاء «الأغبة[6]» مجتمعين حول مائدة واحدة ناظرين في أمورهم المشتركة، ولا سيّما في حاجة المعوزين منهم. فيبدأون حفلتهم بالشكر وينهونها بالشكر وبقبلة المحبّة. والعقيدة تفرض عليهم القول «بإله واحد في أقانيم ثلاثة: الآب والابن والروح القدس. والله هو الآب السماويّ الخالق ذو القدرة والجلال. به كان كلّ شيء وبدونه لم يكن شيء. له المجد الى الأبد باسم ربّنا يسوع المسيح. ويسوع المسيح ابن الله وربُّنا ومخلّصنا. وهو حيّ في كنيسته

١ - أعمال الرسل، ٢ : ٤٤ - ٤٧؛ ٤ : ٣٢ - ٣٥
٢ - أعمال الرسل، ٢ : ١
٣ - أعمال الرسل، ٢ : ٤٦؛ ٤ : ٢٤؛ ٥ : ١٢؛ ١٥ : ٢٥
٤ - أعمال الرسل: ٢ : ٤٢
٥ - أعمال الرسل: ٤ : ٣٢ وما بعدها، ٩ : ٣٦ وما بعدها.
٦ - Agagné أي: المحبّة.

وسيجيء في يوم الدينونة. والروح القدس هو الله مع الآب والابن وقد نطق بالأنبياء وكنيسة الله جامعة مقدّسة[1]».

رغم مسالمة المسيحيّة ومناداتها بالمحبّة التي هي أساس هذه الرسالة الجديدة. ورغم أنّ المسيحيّة قد جعلت بالمحبّة الإنسانيّة عائلة واحدة تحت أبوّة واحدة، فإنّ ما تعرّض له المسيحيّون من اضطهاد في القرن الميلاديّ الأوّل، كان من أبشع ما سجّله تاريخ الأمبراطوريّة الرومانيّة بحقّها. وقد «حصل أوّل إضطهاد عنيف في عهد نيرون، بمناسبة حدوث حريق عارض دمرّ قلب مدينة رومة سنة ٦٤ م وفسّر الجمهور الناقم هذا الحريق بأنّه حادث آخر من حوادث لهو الأمبراطور الجنونيّ. وعندما ارتاع نيرون من ذلك، حاول أن يلقي التهمة على المسيحيّين في العاصمة. فأمر بإبادتهم جميعاً[2]». وقد تلت هذا الاضطهاد أعمال عنف متفرّقة ضد المسيحيّين في الولايات الرومانيّة[3]. وبعد استشهاد بولس بالسيف في رومة حوالى سنة ٦٧ وفق القانون الذي أصدره نيرون[4]، إستشهد بطرس بالصلب في رومة أيضاً في حوالى الوقت نفسه، كما قُتل عدد كبير من المسيحيّين.

لقد كان لامتناع مسيحيّي القرن الأوّل عن الاشتراك في الاحتفالات الدينيّة والرسميّة الرومانيّة، ولجهدهم المستمرّ في كسب الأتباع عن طريق التبشير، ردّة فعل عنيفة عند السلطة الرومانيّة التي أثارت الشكوك حول عزلة المسيحيّين عن بقيّة الجماعات، وهكذا أصبحوا «كبشاً مناسباً للفداء بالنسبة للرعاع كلّما حلّ بالمدينة أو بالسكّان حادث مشؤوم. وكثيراً ما كان الحكّام المحلّيّون يفرضون العقوبات على رعاياهم المسيحيّين لعضويّتهم في ما اعتبروه جمعيّات سرّيّة[5]. فاستمرّ الاضطهاد.

١ - راجع: رستم. كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ص ٤٧ - ٤٨
٢ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ج ١، ص ٣٦٦ - ٣٦٧؛ Tacitus, Annales, Bk. XV, ch 44.
٣ - راجع: رسالة بطرس الاولى ٤ : ١٣ - ١٩
٤ - راجع رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس، ٤ : ٦ - ٨
٥ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٧

بعد استشهاد بطرس، خلفه «أفوذيوس» الذي لم تحفظ المدوّنات عنه الشيء الكثير. إلاّ أنّ التقليد يفيد بأنّ الخليفة الأوّل لبطرس قد استشهد هو الآخر في عهد نيرون (٣٧ ـ ٦٨).

خلف بطرس بعد أفوذيوس إغناطيوس ثيفوروس (٦٤ ـ ١٠٧) الذي في عهده قضى تيطس على ثورة اليهود في فلسطين، مدمّراً الهيكل في أورشليم في السنة ٧٠، وقد خيّل للرومان أنّهم بذلك قضوا على اليهود والمسيحيّين معاً، وكان الرومان حتى ذلك الحين لا يزالون يخلطون بين الديانتين في كثير من الأحيان. وحدث الاضطهاد العنيف سنة ٩٥، في عهد دوميتيان. وجاء دوميتيانس (٨١ ـ ٩٦) ليجبي ضريبة الهيكل من اليهود، فأدّى ذلك إلى التفتيش الدقيق عن المسيحيّين وإلى تدوين أسمائهم وإكراههم على دفع ضريبة الهيكل وإرسالها إلى صندوق جوپيتر في رومة. وفي سنة ٩٩ طبّق الأمبراطور الرومانيّ تريانوس القانون الذي كان قد أصدره سلفه نيرون، والذي اعتبر أنّ التديّن بالدين المسيحيّ هو خروج على القانون[١]، (فاستشهد في السنة ١٠٠ في رومة أسقفها الثالث بعد بطرس: إقليموس. وفي بعلبّك، استشهدت أفدوكية البتول بقطع رأسها. أمّا كاهن الأصنام السابق في منطقة الفرات الوسطى الذي كان قد اعتنق المسيحيّة على يد أسقف الرها، برصوم، هو وأخته بيبة، فقد استشهد منشوراً بالمنشار بأمر من الحاكم الرومانيّ لوكيانوس، الذي قتل بيبة أيضاً بسبب مسيحيّتها.

وهكذا، فعند نهاية القرن الميلاديّ الأوّل، كان المسيحيّون في هذه المنطقة من العالم، كما في رومة، عرضة للاضطهادات المريرة. وكانت كنيسة إنطاكية بقيادة إغناطيوس ثيوفوروس، الذي سيستشهد هو الآخر بعد أعوام قليلة في رومة مثلما استشهد قبله بطرس وبولس، ومثلما صلب قبلهما السيّد المسيح، لتكمل المسيحيّة طريقها منتصرة على الموت.

---

١ ـ راجع: Callewaert c. dans: Revue Historique ecclesiastique. 1901 PP. 771 - 797; 1902, PP. 5 - 15, 324 - 348, 607 - 615

الفصل الثالث

بين الاضطهاد والانتصار

- من كنيسة الرسل إلى رسل الكنيسة
- ذروة الاضطهادات في القرنين الثالث والرابع
- نهاية الاضطرابات
- الصراع بين المسيحيّة والوثنيّة

من كنيسة الرسل إلى رسل الكنيسة

كانت بداية القرن الثاني بالنسبة للمسيحيّين حقبة صعبة وقد غاب عنهم أولئك المباركون الذين عاصروا المسيح، والذين أسّسوا الكنيسة، ليخلفهم تلامذة لهم، كان عليهم أن يسيروا على دروب الشهادة كأسلافهم. قبل ذلك التاريخ بقليل، كان المؤمنون ينضوون تحت لواء الكنيسة التي أسّسها الرسل، أمّا الآن، فقد صار للكنيسة رسل، وكان عليهم أن يسيروا بها جامعة واحدة وسط أهوال الاضطهادات وزلازل الانقسامات والبدع والهرطقات والتشرذم.

لم يمضِ سبع سنوات على بداية القرن الثاني حتّى استشهد خليفة بطرس على كرسي إنطاكية: إغناطيوس ثيوفورس[١]. وكان استشهاده في رومة، كما بطرس وبولس. وقد ذكر بعض المدوّنات[٢] أن إغناطيوس هذا، كان ذلك الطفل الذي أشار إليه متّى في إنجيله: «فدعا يسوع ولداً وأقامه في وسطهم وقال: الحقّ أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات، فمن وضع نفسه مثل هذا الطفل، فذاك هو الأكبر في ملكوت السموات، ومن قبل طفلاً مثله إكراما لاسمي، فقد قبلني أنا[٣]». إلاّ أنّ آخرين من مؤرّخي الكنيسة لم يحاولوا تأكيد أنّ إغناطيوس قد رأى المسيح[٤]، ومن بين هؤلاء يوحنّا الذهبيّ الفم. ويذكر مؤرّخو الكنيسة أنّ إغناطيوس هو من أصل سوريّ هلّينيّ، وُلد في حوالى السنة ٣٥، واعتنق الدين المسيحيّ في إنطاكية على أيدي الرسل او التلامذة او المعلّمين، فاتّخذ لنفسه لقب ثيوفوروس، أي حامل الإله، تبرّكاً[٥].

١- راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٥٥ ـ ٥٦

٢ ـ Anastase le Bibliotecaire, vindiciae in gnatianae, II. CXII, P.G. Vol 5, Col 404

٣ ـ متى: ١٨: ٣ ـ ٥

٤ ـ راجع: Kleist, J. A., st Ignatius, 54.

٥ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٥٠ استناداً إلى: Bareille, G., Ingace d’Antioche, Dict. Théol. chretien;

على أيّ حال، فإذا كان إغناطيوس لم يعرف المسيح، فهو قد تتلمذ من قرب، دونما أيّ شكّ، على أيدي بطرس وبولس وبرنابا، ممّا جعله متمتّعاً بتلك الروح المتحمّسة للسيّد الذي تجسّد على الأرض. لذلك لم يكن أقلّ حماسة من أسلافه في المحافظة على الكنيسة وفي السير على خطى من سبقوه على دروب التبشير من خلال التجوال على الكنائس وبعث الرسائل لها واعظاً مرشداً في الحالتين. ويظهر من بعض كتاباته ذلك الاهتمام الواضح بوحدة الكنيسة وحرصه الشديد على إفهام المؤمنين أنّ خلفاء الرسل جديرون بالطاعة والاحترام، وقد جاء في رسالة له إلى أهل إزمير: «إتبعوا جميعكم الأسقف كما تبع يسوع المسيح الله الآب. وسيروا في أثر الشيوخ سيركم في أثر الرسل. واحترموا الشمامسة كما تحترمون وصايا الله. ولا تأتوا بعمل يمتّ إلى الكنيسة بصلة منفردين عن الأسقف. والذبيحة الإلهية لا تصبح شرعيّة محلّلة إلاّ برئاسة الأسقف أو من يفوّضه بها. وكونوا حيث يكون الأسقف فحيث يكون يسوع المسيح هناك أيضاً تكون الكنيسة الجامعة»[1]. وفي رسالته إلى أهل مغنيسية قال: «لا تتّخذوا من حداثة أسقفكم حجّة للإفراط في الدالّة عليه بل احترموه لأنّه يحمل سلطة الله الآب... وكونوا مسيحيّين لا بالاسم وحسب بل بالفعل، فإنّ هنالك قوما يدعون الواحد أسقفا ولكنّهم لا يعبأون به في تصرّفاتهم. ويلوح لي أنّ ضمير هؤلاء ليس مستقيما لأنّهم لا يؤمّون الصلاة في الأوقات التي يعيّنها أسقفهم[2]».

لم تكن محاربة أولئك «النصارى» من أصل يهوديّ للكنيسة الجامعة قد هدأت في بداية القرن الثاني، وبذلك كانت الكنيسة تشقّ طريقها المستقيمة وسط نارين: نار اليهوديّة بشقّيها المتنصّر والباقي على تهوّده، ونار الوثنيّة المضطهدة، حتّى إنّ بعض المؤرّخين يعتقد بوجود صلة بين الفئتين من خلال التحريضات التي كان يقوم بها اليهود مع السلطات الرومانيّة ضد المسيحيّين[3]. وعندما أثار اليهود

١ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٥٣

٢ - المرجع السابق، ص ٥٣

٣ - Duchesne, Mgr. Louis, Early history of christian church, PP. 71 - 79

الشغب على المسيحيّين في مدن فلسطين في حوالى سنة ١٠٧، وشى بعضهم بأسقف أورشليم الثاني بعد يعقوب، وكان اسمه سمعان، فقالوا «إنّه مسيحيّ من سلالة داود» فأمر حاكم فلسطين الرومانيّ بتعذيب سمعان، وكان طاعنا في السنّ، وأمر بعد ذلك بصلبه[1]. ويعتقد بعض الباحثين بإمكانيّة وجود ظروف مماثلة قد تكون وراء استجواب إغناطيوس أمام حاكم سورية المحلّيّ ممّا أدى إلى استشهاده في رومة إثر ذلك. وتذكر المدوّنات تفاصيل ذلك الاستجواب الذي اتّخذ فيه إغناطيوس موقفاً بطوليّاً رائعاً أكّد فيه للحاكم أنّه لن يتخلّى عن مسيحيّته مهما كان الثمن. وكان الثمن أن أُرسل إغناطيوس إلى رومة حيث طُرح للوحوش الضارية في مدرّج فلافيانوس في الثامن عشر من كانون الأوّل سنة ١٠٧، فمزّقت الوحوش جسده الطاهر مثلما مزّقت أجساد سواه من الشهداء المسيحيّين.

في هذه الأثناء، تابع الرومان التنكيل بالمسيحيّين في الشرق، وكما جاء في كتاب بعثه حاكم فلسطين إلى الأمبراطور الرومانيّ تريانوس، فإنّ «التنكيل لم يأتِ بالنتيجة التي توخّاها لأنّ المسيحيّين لم يتوقّفوا عن التوافد إلى قاعة المحاكمة مقدّمين ذواتهم للموت[2]». وفي عام ١١٢ أصدر تراجان مرسوما ينصّ على أنّ المسيحيّين الذين يرفضون تقديم مراسم الاحترام لآلهة الدولة وللأمبراطور حين يطلب منهم ذلك في المحكمة، فإنّهم سيعاقبون كخونة. وكانت عبادة الأمبراطور أكثر عبادات الدولة قوّة وانتشاراً، وقد أنشأها أغسطس وأصبحت تعبيراً مادّياً عن الولاء للعرش. وجعل مرسوم تراجان المسيحيّين خارجين حقيقيّين عن القانون في مئتي السنة التالية. وكانوا يلاحَقون ويعاقَبون بشكل منتظم في مناسبات متعدّدة[3].

١ - Euschius, hist. Ecc., IV, 22

٢ - Alalas, chrono., P. G., vol. 47, col. 414

٣ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٧

وهكذا، فقد كان على الذين ترأسوا كنيسة الرسل وساسوها بعد الرسل أن يكونوا مبشّرين وفلاسفة لاهوتيّين من جهة، وأن يكونوا مستعدّين للشهادة في أي وقت من جهة أخرى. فقد كان عليهم أن يحافظوا على طهارة العقيدة المسيحيّة واستقامتها ويصدّوا البدع والهرطقات، وأن يُشدّدوا العزيمة والإيمان في قلوب المؤمنين وسط الاضطهادات والتضييق. وبديهيّ القول أنّه لولا هؤلاء، لما تمكّنت الكنيسة المسيحيّة المسالمة من التغلّب على أعظم أمبراطوريّة في التاريخ. ولم يكن رسل الكنيسة بالضرورة من الذين خلفوا بطرس على كرسيّ انطاكية، بل كان بعضهم فلاسفة وموظّفين وأساقفة ومترسّلين. ومن هؤلاء كاتب أصبح قدّيساً، اسمه يوستينس Justinus، ولد في أوائل القرن الثاني في مدينة نابلس، ويقال إنّ أبويه لم يكونا سامريّين، وإنّه كان طالباً متحمّساً للفلسفة الأفلاطونيّة ثمّ اعتنق المسيحيّة نتيجة محاورة جرت له مع شيخ متواضع وقور لقيه على الشاطئ، وأوصاه بدراسة الأنبياء العبرانيّين والمسيح. وكان يوستينس قد درس المذاهب الفلسفيّة طلباً للحقيقة، فلم يقتنع. ولمّا اهتدى إلى المسيحيّة، أصبح المقتنع المؤمن بها، والمدافع الأوّل عنها، حتّى إنّه أسّس مدرسة لاهوتيّة فلسفيّة في رومة نفسها، ووضع دفاعين شهيرين عن الدين المسيحيّ. ولم يشذّ هذا القدّيس عن كبار آباء الكنيسة الأوّلين، إذ استشهد في رومة على خطاهم، بعد أن تجرّأ حين خاطب الأمبراطور أنطونينوس بيوس وقال: « ... أمّا نحن فإنّنا مقتنعون بأنّنا لن نسمح لأيّ كان بأن يُلحق بنا الأذى، ما لم يثبُت علينا فعل الأذى، أو يقوم البرهان على أنّنا رجال سافلون. أما بالنسبة إليك فاقتلنا لأنّك تستطيع ذلك، ولكنّك لا تستطيع أن تؤذينا». وعندما رفض هذا البارّ أن يقدّم الذبائح للآلهة الرومانيّة، جُلد، وقُطع رأسه في رومة، وأضحى من شهداء المسيحيّة وقدّيسيها وآباء كنيستها الأبرار[1].

في هذه الحقبة، كانت الغنوسيّة قد انتشرت بشكل واسع، بعد أن تسرّبت

١ - راجع: المرجع السابق، ج ١، ص ٣٧٢؛ Justin, Apologia, I ch. 2.

تعاليم مدرستها من السامرة إلى مصر حيث تمركزت بشكل لافت، ويذكر بعض المرويّات أن مدرسة الإسكندريّة كانت قد أضحت مركزاً لتعليم الغنوسيّة وقد اشتهر فيها أساتذة كبار، أمثال ڤالنتينوس، وڤاسيليذس، وكربوكراتس، وكان على آباء الكنيسة أن يتصدّوا لهؤلاء، ومن الذين أفلحوا في ذلك، إيريناوس Iraeneus الذي أصبح قدّيساً. وكان إيريناوس قد تتلمذ على يدي پوليكارپوس Polycarpe الذي أصبح هو الآخر قدّيساً، والإثنان من مواليد آسية الصغرى، أمّا پوليكارپوس، فكان أسقفاً على إزمير، بعد أن كان تتلمذ على يدي القدّيس يوحنا الرسول، ومات شهيداً سنة ١٥٦ إذ أحرق حيّاً في مدينته.

تصدّى القديس إيريناوس للغنوسيّة عبر كتاب شهير وضعه تحت عنوان: « ضدّ البدع». وكان لكتابه هذا تأثير فعّال في إظهار ضلال الغنوسيّة. أمّا نهاية حياة إيريناوس، فكانت شهادة أيضاً في مدينة ليون الفرنسيّة التي كان أسقفاً عليها، ويُعتقد أنه استشهد سنة ٢٠٢.

بيدَ أنّ الغنوسيّة تابعت نشاطها بعناد، حتّى إنّ أحد أبناء الأساقفة المستقيمي الرأي، راح يقول بغنوسيّة مسيحيّة طائفاً في آسية الصغرى مبشّراً بهذا المذهب. هذا المبشّر الغنوسيّ، هو مرقيون Marcion، ابن أسقف سينوب، وقد أضاف أتباعه فيما بعد إلى إنجيل لوقا ورسائل بولس العشر، رسالة مرقيون في التناقض بين التوراة والإنجيل. فصار لهم كتابهم المقدّس الخاصّ الذي راحوا يستعملونه في كنائسهم[1].

وكان على القدّيس پوليكارپوس الذي لقّب مرقيون بأنّه « أوّل خلق الشيطان» أن ينظّف الكنيسة من الضلال الذي بثّه فيها مرقيون، بعد أن وصل هذا الأخير إلى رومة، وراح ينشر عقيدته. ويذكر بعض المرويّات أنّ مرقيون الغنوسيّ

١ - راجع: Duchesne, Mgr Louis, Early history of christian church, P. 126; Leberton J., la crise Gnostique, II, PP. 30 - 33; Harnack A., Maricon, PP. 41 - 48, 165.

قد «ندم وارتضى بما اشترطته عليه الكنيسة قبل أن تحصل وفاته في حوالى سنة ١٦٠[١]». غير أنّ الغنوسيّة، رغم ارتداد مرقيون ودفاع الآباء، بقيت شائعة حتّى أواخر القرن الرابع في إنطاكية ومصر وفلسطين والجزيرة العربيّة وسورية وفارس وغيرها من البلدان[٢]. ذلك أنّ المذهب الغنوسيّ بقي يستقطب إليه بعض الدعاة، منهم مرديصان الرهاويّ (١٥٤ ـ ٢٢٢) الذي كتب مقالات كثيرة في الفلك والقدر والشرائع[٣].

إلى جانب تلك البدع، تعرّضت المسيحيّة في هذه الحقبة الصعبة من تاريخها للتشنيع الخبيث من قبل الرومان الذين راحوا يشيعون بين العامّة أنّ المسيحيّة ليست سوى إحدى الديانات السرّية الشاذّة، وأنّ أتباعها «يجتمعون في كلّ أسبوع ليقوموا بضروب العربدة والخلاعة والسكر وسط طقوس من السحر الأسود وسفك الدماء». ولم يتورّع بعض فلاسفة الإغريق والرومان عن تحقير الدين الجديد واعتبار أتباعه «برابرة يكنّون العداء للناس وللشرائع وللعادات والتقاليد ولثقافة المجتمع اللاتينيّ[٤]».

تصدّى آباء الكنيسة لجميع هذه الجبهات الشرسة ضدّ المسيحيّة بالفكر والكلمة والإيمان والشهادة. وقد اشتهر من بين هؤلاء القدّيس كوادراتوس في عهد أدريانوس، والقدّيس الأثيني أريستيدس في عهد أنطونيوس بيوس، وأريستون البلاويّ. وقد يكون أشهر هؤلاء القدّيس يوستينوس (حوالى ١١٠ ـ ١٦٣) الذي استشهد في رومة. وتاتيانوس السوريّ (١١٠ ـ ١٨٠) الذي وُلد في الجزيرة السفلى من أبوين وثنيّين وتنصّر في رومة على يد القدّيس يوستينوس بعدما كان

١ ـ Harnack, A op. cit., 25

٢ ـ Epiphanius, haereses, XLII, 1; Haruack A., 153 - 160

٣ ـ راجع: البطريرك اغناطيوس افرام، الدرر النفيسة، ص ٢٤٩

٤ ـ راجـع: Marc-Aurèle, Pensées, XI, 3; Labriolle P., La Réaction Paienne, PP. 117 - 118.

قد درس الفلسفات اليونانيّة، ولم يقتنع بالأديان التي كانت سائدة، بل كان من ألدّ أعدائها[١]. الاّ أن تاتيانوس قد انحرف في النهاية نحو الغنوسيّة.

كذلك برز من المدافعين عن المسيحيّة في نهاية القرن الثاني ثيوفيلوس الإنطاكيّ الذي ترأس أسقفيّة انطاكية بين ١٦٩ و ١٨٥، فكان الأسقف السادس بعد بطرس، وترك مؤلّفات عدّة في عقيدتي التوحيد والتثليث. وقد أصبح ثيوفيلوس قديساً ويُعدّ من آباء الكنيسة. كذلك اشتهر في هذا المجال أسقف إنطاكية التاسع بعد بطرس (١٨٥ ـ ١٩١) وهو سراپيون الذي انكبّ على تصويب الإنحرافات العقديّة. ومن الذين تجندوا لمحاربة الغنوسيّة قبل نهاية القرن الثاني، هيغيسيپوس الباحث (١١٠ ـ ١٨٠) صاحب كتاب «الذكريات» الذي أخذ عنه أفساپيوس المؤرّخ بعض الفصول المتعلّقة بأخبار أساقفة أورشليم وبعض الذين عاصروا السيّد المسيح[٢].

ذروة الاضطهادات في القرنين الثالث والرابع

لم يثنِ دفاع آباء الكنيسة واستشهادهم ولا دفاع الفلاسفة والمفكّرين الذين اعتنقوا المسيحيّة الدولة الرومانيّة عن إصرارها على اضطهاد المسيحيّين، وكانت الاضطهادات تخبو أحياناً وتتعاظم أحياناً أخرى، حسب ميول الأمبراطور ومعاونيه، وحسب الظروف السياسيّة والأحوال السائدة وقد مرّت المسيحيّة في أقسى ظروفها، قبل أن تنتصر على الأديان الوثنيّة إذ أصبحت الأمبراطورية ميّالة إلى الاعتراف بدين المسيح تمهيداً لجعله الدين الرسميّ للدولة، وقد بدأ هذا

١ ـ راجـع: Lebreton J., Apologétique chrétien ,Fliche et Martin, histoire de l'église, I, 424; N. 2; Eusèbe, Histoire Ecclésial, IV, 6.18; Origène, contra celsum, IV, 52; Bardy G., la conversion dans les premiers siècles, (Année Théal., 1941) PP. 89 - 106, 206 - 232

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٧٨ ـ ٧٩؛ Eusèbe, hist. ecc., IV, 22

الاتّجاه الأمبراطور قسطنطين الكبير، بعد أن قضى على منافسه في الحكم ماكسانس على أبواب رومة سنة ٣١٢، وتخلّص من ليقينيوس سنة ٣١٣.

يبدو أنّ المسيحيّة قد نعمت بشيء من الهدوء في بداية عهد الأمبراطور الرومانيّ ذي الأصل الفينيقيّ الإفريقي سبتيموس سويروس (١٩٣ - ٢١١). إلاّ أنّه في السنة العاشرة من حكمه، أمر بتحريم التبشير بالدينين اليهوديّ والمسيحيّ، ثمّ اتّخذ إجراءات عديدة لمنع انتشار المسيحيّة وتوسّعها، خاصّة بعد أن أفزعه إقبال الوجهاء والأعيان في الإسكندريّة على الدين المسيحيّ. ومن شهداء اضطهادات سويروس، ليونيذاس والد أوريجانوس الشهير، والقدّيسة الشهيدة بوتميانة، إضافة إلى عدد كبير من المبشّرين والواعظين والمؤمنين في أنحاء مصر. وكان المبشّرون يومذاك قد انتشروا في نواحي قيصريّة فلسطين وعكّة وصور وبيروت إضافة إلى الجبال اللبنانيّة. فعند «منصرم القرن الثاني، كانت الجالية المسيحيّة في صور قد أصبحت من الكثرة والقوّة بحيث أنّه أُنشئ في المدينة كرسي لمطران. وأصبح لهذه المطرانيّة بعد قليل أربع عشرة أسقفيّة. وفي كنيسة صور دُفن أحد آباء الكنيسة المشهورين: أوريغون، الذي كان يرأس مدرسة الإسكندريّة التي تعنى بتعليم العقيدة المسيحيّة قبل أن تنتقل هذه المدرسة إلى قيساريّة[1]». وكانت قد نشأت في صيدا، جارة صور، كنيسة أيضاً. وفي ما بين النهرين، إعتنق المسيحيّة ملك مدينة الرها[2]، أبجر التاسع (١٧٩ - ٢١٦) فانتشرت بسرعة بين رعاياه.

خفّ الاضطهاد الرومانيّ للمسيحيّين في عهد كركلاّ (٢١١ - ٢١٧) خليفة سويروس دون أن ينقطع تماما. واستمرّ الوضع على هذه النسبة من الأمان في عهود الأباطرة الذين خلفوا كركلاّ من الأسرة الشرقيّة. وسط هذه المهادنة،

١ - حتي - لبنان في التاريخ، ص ٢٥٥

٢ - الرها، وهي التي عرفت بـ «أورفا» وأوديسّا Uirfa - Edesse

استعادت كنيسة أورشليم بعض نشاطها. وأنشأ فيها أسقف قيصريّة قبدوقية ألكسندروس مكتبة جمعت أهمّ ما صُنِّفَ في الدين المسيحيّ، وما جُمع من وثائق ورسائل في هذا المضمار. وأضحت مكتبة أورشليم المرجع الأساسيّ للتاريخ الكنسيّ لتلك الحقبة. وكان ألكسندروس هذا قد ساس كنيسة أورشليم بين سنة ٢١٢ وسنة ٢٥١ نيابة عن أسقفها الأصيل القدّيس زقيسوس بعد أن شاخ وعجز عن القيام بأعباء الرسالة. وفي زمن سياسة ألكسندروس لكنيسة أورشليم، ازدهر حجّ المسيحيّين إلى الأماكن المقدّسة بشكل علنيّ، ممّا يفيد عن نسبة جيّدة من الأمان الذي شهده المسيحيّون لبعض الوقت. ومن دلائل هذا الاستقرار النسبيّ نشوء مدرسة قيصريّة فلسطين التي أسّسها أوريجانس حوالى سنة ٢٣١، وكان لتلك المدرسة أثر فعّال في انتشار المسيحيّة في فلسطين وجوارها[1].

هذا الهدوء، لم يدم طويلاً. ففي حوالى سنة ٢٣٤، وقع انقلاب عسكريّ ضدّ الأمبراطور سويروس ألكسندروس تُوِّج بنتيجته مدرّب الجند يوليوس مكسيموس أمبراطوراً، بعد أن قتل الجند الثائرُ الأمبراطور سويروس ألكسندروس ووالدته. وكان أوّل ما أقدم عليه الأمبراطور العسكريّ الجديد ان اضطهد حاشية سويروس الذي كان متعاطفاً مع المسيحيّين. هذا التعاطف جلب عودة الاضطهاد من قبل الأمبراطور الجديد الذي راح ينفي ويعتقل رجال الدين المسيحيّين، وقد استشهد في عهده عدد من الأساقفة والمبشّرين في سورية وفلسطين. إلا أن قِصر عهد مكسيمينوس، أدّى إلى محدوديّة نتائج هذه الموجة من الاضطهاد. وعندما تسنّم الأمبراطوريّة فيليّوس المعروف بالعربيّ (٢٤٤ - ٢٤٩) عاد الهدوء إلى أفضل ممّا كان عليه قبل مكسيموس بالنسبة للمسيحيّين. حتّى إنّ فيليبّوس جعل من بعض أساقفة إفريقية ولاة أمبراطوريّين، إضافة إلى من أدخلهم من نصارى في خدمة الدولة، حتّى إنّ بعضهم اعتبر أنّ فيليبّوس كان مسيحيّاً[2].

١ - راجع: Eusèbe, hist. ecc., VI, 19, 27; Patrologia Graeca, vol. 10, col. 1049 - 1105

٢ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٩٧ - ٩٩

يتّضح من مسار الأحداث أنّ الأسرة الأمبراطوريّة الشرقيّة كانت على شيء من التعايش مع الدين المسيحيّ، يختلف كلّياً عن العداء الذي أظهرته الأسر الغربيّة ضد المسيحيّين. وتتّضح هذه المعادلة أكثر نتيجة انتقال السلطة سنة ٢٤٩ إلى أمبراطور غربيّ: داقيوس، الذي انتزع الأمبراطوريّة حرباً من يد فيليپّوس إثر معركة حاسمة وقعت قرب ثيرُونة الإيطاليّة قضى بخلالها فيليپّوس مقاتلاً. فما أن انتقلت السلطة إلى يد داقيوس حتّى جعل السلطة المركزيّة في الدولة تضع على رأس اهتماماتها القضاء على المسيحيّة والمسيحيّين. وكأنّ في ذلك نوعاً من الانتقام من الأسرة الأمبراطوريّة الشرقيّة، التي يبدو أنّ الغربيّين قد نظروا إليها وكأنّها تمتّ بصلة في شرقيّتها إلى الأصول التي جاءت منها الديانة المسيحيّة.

حرّم داقيوس المسيحيّة تماماً. حتّى إنّ كبار مؤرّخي الكنيسة يقولون بأنّ داقيوس «حاول محو اسم يسوع[1]». ذلك أنّ الحكم الامبراطوريّ ألّف لجانا لتنفيذ إرادة الأمبراطور القاضية بإرغام المسيحيّين على عبادة الآلهة وتقديم البخور والخمر لها وتناول اللحم المقدّس. وفي منتصف القرن الثالث، بدأت اللجان تنفّذ مهمّتها. وكان من الطبيعيّ أن يمتنع المؤمنون عن السجود للآلهة، فكان الاضطهاد المروّع الذي استمرّ سنة كاملة. وكان من جملة من استشهدوا في تلك السنة، أسقف إنطاكية، بابولا، ومعه ثلاثة من معاونيه، وأسقف أورشليم ألكسندروس. وتعرّض أوريجانس لأقسى ضروب التعذيب في السجون الرومانيّة، إلاّ أنه نجا من الموت بأعجوبة. ومن شهداء ذلك الاضطهاد القدّيس خريستوفوروس الذي اعتُقل في إقليم ليقية جنوب آسية الصغرى، «فجُلد بقضبان الحديد حتّى تناثر لحمه واستحمّ بدمه، ثمّ طرح في لهيب النيران. ولمّا نجا منها عُرِّض لسهام الجنود فلم يمت، «فجُزّ رأسه جزّاً[2]». وفي سجلّ الأمبراطور داقيوس «مآثر» كبرى في الاضطهاد شملت الجلد والإحراق والذبح وتقطيع الأوصال. وعندما انتشر وباء الطاعون في

١ - Origène, Homel, IX, in Josuam

٢ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣

نواحي الأمبراطوريّة في عهد الأمبراطور غالوس (٢٥١ - ٢٥٣) رأى الوثنيّون أنّ سبب انتشار الوباء، إنّما هو غضب الآلهة لانتشار المسيحيّة، وراحوا يصخبون مطالبين بإبادة المسيحيّين، فكانت جولة جديدة أدّت إلى استشهاد كبير للمسيحيّين في الغرب والشرق[1].

هدأ الاضطهاد قليلاً في بداية عهد خليفة غالوس: ڤاليريانوس (٢٥٣ - ٢٦٠). غير أنّ سبب عودة الاضطهادات هذه المرّة كان تعرّض الأمبراطوريّة للخطر بسبب هجومات الإفرنج والألمان على حدودها الغربيّة، وتحرّك القوط في وادي الدانوب وحوض البحر الأسود، وثورة البربر في إفريقية، وعبور شابور الفرات وخرق حرمة الأمبراطوريّة... ذلك أنّ الوثنيّين قد رأوا، هذه المرّة أيضاً، أنّ سبب كلّ هذه الشدائد إنّما هو امتناع المسيحيّين عن إرضاء الآلهة، فكانت جولة جديدة من الاضطهادات إبتداء من سنة ٢٥٨، وكان من أشهر شهداء هذه الجولة أسقف رومة سكنوس الثاني. وقد استمرّ هذا الاضطهاد حتّى بداية عهد غاليانوس (٢٦٠ - ٢٦٨) إبن زنوبية، وقد تجاوب غاليانوس مع طلب الأساقفة بردّ كنائسهم ومدافنهم المصادرة إليهم. إلاّ أن بعض الحوادث التي جرت في عهد غاليانوس، تفيد بأنّ الإضطهاد لم يتوقّف بعهد هذا الأمبراطور توقّفا تامّاً وإن كانت قد خفّت وطأته.

جاء الاضطهاد الأعظم الذي شهدته المسيحيّة في العهود الرومانيّة كافّة، نتيجة أمر الأمبراطور ديوقليتيانس (٢٤٥ - ٣١٣).

نصّ مرسوم هذا الأمبراطور الذي «صدر في الثالث والعشرين من شباط (فبراير) سنة ٣٠٣ على محو كنائس المسيحيّين وحرق كتبهم وطرد كلّ من يشغل منهم وظيفة مدنيّة وعسكريّة من منصبه. وأمر بفرض جميع أنواع العقوبات باستثناء الإعدام. ولكن حتّى الإعدام طبّق على مقياس واسع[2]».

١ - راجع: Allard, P., les dernières Persécutions du IIIème siècle, ch. I.

٢ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٨

قبل ذلك التاريخ، كانت المسيحيّة قد انتشرت بشكل واسع في الشرق وأقدمت الكنيسة على تشييد المعابد الفخمة، منها كنيسة في عمواس فلسطين التي كشفت عن آثارها الدراسات الحديثة، ومثلها في الصالحيّة عند الفرات، وأخرى في نيقوذية على تلّة تقابل التلّة التي كان يقوم عليها قصر الأمبراطور ديوقليتيانس نفسه. وفيما راح المؤمنون يملأون الكنائس وباحاتها في المناسبات، خفّ الإقبال بشكل ملحوظ على الهياكل الوثنيّة.

هذان الازدهار والتوسّع، أثارا حسد كبار الموظّفين والكهنة الوثنيّين والفلاسفة الرومان المحافظين، فراح جميع هؤلاء «يملأون رأس الأمبراطور بتقارير عن مؤامرات مزعومة وعن أعمال شغب لا وجود لها. ويبدو أنّ هذا الأمبراطور، الذي حكم تسعة عشر عاماً ساكتاً عن المسيحيّة، كان يكره سفك الدماء والعنف، لذلك بقي طويلاً يحاول إبعاد كأس اضطهاد المسيحيّين عن شفتيه، متجاهلاً نصائح العرّافين والوزراء والأعوان والكهنة والفلاسفة الرومان الوثنيّين. إلاّ أنّ إجماع تلك الهيئات الوثنيّة على وجوب اللجوء إلى العنف للتخلّص من الدين المسيحيّ وأتباعه، وإصرارها على موقفها، جعل الأمبراطور يصدر مرسومه الذي أثار دهشة أهل الكنيسة، لأنّهم كانوا يعتبرون أنّ ديوقليتيانس يميل إلى المسيحيّة، حتّى أنّ زوجة الأمبراطور وابنته كانتا أغلب الظن اعتنقتا الدين المسيحيّ[١].

ما أن صدر الأمر الأمبراطوريّ حتى هاجمت الشرطة كنيسة نيقوميذية المواجهة لقصر الأمبراطور، وقامت عناصر القوّة المهاجمة بتخريب الكنيسة وإحراق ما كان فيها من كتب. حدث ذلك لحظة صدور القرار الأمبراطوريّ. وفي صباح اليوم التالي، ألصق رجال الأمبراطوريّة منشور الإدارة العليا على جدران الشوارع في نيقوميذية، «فنزع مسيحيّ واحداً منها ومزّقه، فأُلقي القبض عليه

١ - Lactanius, Bk XV.

وأحرق[١]» فكان هذا أوّل غيث الاضطهاد الفظيع. إذ بعد ذلك الحادث، إتّهم أهل البلاط المسيحيّين بمحاولة إحراق القصر الأمبراطوريّ، ممّا ألهب الغيظ في قلب الأمبراطور الذي، منذ تلك اللحظة، اعتبر أنّ جميع المسيحيّين في بلاطه وعاصمته أعداؤه، وخيّر زوجته بريسكة وابنتها ڤاليريا بين الموت والرجوع عن المسيحيّة... فاختارتا الحياة الدنيا. إلاّ أنّ كبير أمناء البلاط دوروثاوس، ورئيس الحجّاب بطرس، فضّلا الشهادة. وبعدهما دُقّ عنق أسقف نيقوذية: أنثيموس، وأُعدم جميع كهنته، وعدد كبير من أعضاء رعيّته بمن فيهم الأطفال والنساء[٢].

وإذ شبّت ثورة في ملاطية وسورية وسلفكيّة، نسب المقرّبون من البلاط هذا التمرّد إلى المسيحيّين، ممّا زاد في غضب الأمبراطور الذي ألحق بمرسومه الأوّل مرسوماً جديداً قضى باعتقال رجال الإكليروس، ألحقه بمرسوم آخر ينصّ على «إطلاق سراح من يكرّم الآلهة، وعلى تشديد العذاب على من يرفض ذلك[٣]».

ما من مراجع بوسعها أن تفيد بدقّة عن نسبة الذين خضعوا لتدبير الإغراء والتهويل، ولكن من الثابت أن عدداً كبيراً من قادة الكنيسة استشهد بخلال الشهور الأولى لبدء الاضطهاد، وأُلقي القبض على بعضهم الآخر، وسيقوا للقيام بالأشغال الشاقّة في المناجم، ومن بين هؤلاء أسقف إنطاكية: كيرلّس، الذي خلفه في رئاسة الكنيسة تيرانوس (٣٠٤ ـ ٣١٤). وقد استشهد في قيليقية عدد كبير من النساء والرجال، إضافة إلى ما تعرّض له المؤمنون من فنون التعذيب، كإدخال أسنان القصب تحت أظفارهم وصبّ الرصاص المذوّب عليها[٤].

في مقابل ذلك، يبدو أنّ عدداً كبيراً من المؤمنين هاله العذاب، فارتدّ. يؤكّد هذا ما ذكره المؤرّخون عن «رومانوس شمّاس قيصريّة فلسطين، الذي كان مقيماً

١ - Lactanius, Bk. XIII.

٢ - Lactanius, Bk. XIV; Eusébius, Bk VIII, ch. 6.

٣ - Eusébius, Bk. VIII. ch. 6

٤ - Eusébius, Bk. VIII, ch. 12

في إنطاكية يومذاك، فهاله تدمير الكنائس وارتداد بعض المؤمنين والمؤمنات، فهبّ لساعته يقوّي النفوس ويحذّر من السجود للأصنام، فقُطع لسانه وزُجّ في السجن. وإذ هُيِّئت نار لإحراقه، أمطرت السماء بشدّة وأطفأتها، فلجأ الجلاّدون إلى شنقه في الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ٣٠٣. وقُبض على أسقف صور تيرانيوس، وعلى كاهن صيدا الطبيب: زينوبيوس، وإذ أعرضت عنهما الوحوش الضارية لمّا أُلقيا إليها في مدرّج إنطاكية، حُزّ رأسهما حزًا[1]. ومن الذين نالوا إكليل الشهادة في ذلك الحين، الضابطان سرجيوس وباخوس في مقاطعة الفرات حيث أنشئ فيما بعد هيكل لتكريمهما تحوّل لاحقاً إلى صرح روحيّ كبير، وقد حملت المدينة الواقعة هناك اسم سرجيوس، فعُرفت بسرجيوبوليس، وهي التي حوّل العرب اسمها إلى الرصافة.

ومن شهداء السنة الأولى للاضطهاد ما يذكره التقليد عن استشهاد بربارة في بعلبك، وجاورجيوس، الذي تقول الأسطورة أنّه قتل التنّين في خليج بيروت المعروف بخليج مار جرجس. بيدَ أنّ المراجع التاريخية لا تؤكّد شيئاً عمّا يذكره التقليد بشأن بربارة وجرجس. ولكنّ الثابت أنّ أوّل شهداء فلسطين في اضطهاد ديوقليتيانوس كان بروكوبيوس القارئ الذي كان يقرأ الأسفار والصلوات في كنيسة بيسان، وتبعه زكّى شماس كنيسة جدر، وألفيوس قارئ كنيسة قيصريّة[2].

أمّا أشهر شهداء السنة التالية: ٣٠٤، فكان تيموتاوس وأغابيوس وتقلا في غزّة، وديونيسيون الطرابلسيّ الفينيقيّ، ورميلوس أبوذياكون في اللدّ، والكسندروس الغزاوي، وهم أشهر الشهداء الثمانية الذين نالوا الإكليل في تلك السنة، ويوليانوس الطرسوسيّ، ويوليته وطفلها كرياكوس اللذين استشهدا في طرسوس. والفاضلة ڤيرونية في نصّيبين. وتحدّث المؤرّخون «عن مسيحيّين في

١ - Eusébius, Bk. VIII, ch. 7

٢ - Eusébius, Martyr. Palest., I, II

الجزيرة العربيّة ذُبحوا بالفأس، وعن آخرين في إنطاكية شويت أجسامهم على المشواة. كما تحدّثوا عن نساء كنّ يرمين أنفسهنّ في نهر العاصي للخلاص من الاغتصاب. وبلغ من كثرة الذين أُفنوا في الأمبراطوريّة بهذه الطريقة أن أقام الجلاّدون الأمبراطوريون أخيراً عمود نصر يحمل كتابة أثريّة تفتخر بأنّهم أبادوا اسم المسيحيّين وخرافتهم وأعادوا عبادة الآلهة إلى سابق صفائها وزهوها. بيدَ أنّ المسيحيّة أصبحت بعد سنوات قليلة الديانة الرسميّة للدولة[1]».

كان ديوقليتيانوس عندما استلم أزمّة الحكم إثر مناداة الجند الرومانيّ به أمبراطوراً سنة ٢٨٤، قد جعل للدولة الرومانيّة أمبراطورَين، وجعل لكلّ منهما قيصراً يعاونه في الحكم ويحلّ محلّه عند الوفاة أو اعتزال الوظيفة، وطبّق هذا النظام الجديد، فجعل مكسيميانوس امبراطوراً يشاطره الحكم، وحكم ديوقليتيانوس الشرق، وسلّم حكم الغرب لمكسيميانوس. وكان من الطبيعيّ أن يطبّق مكسيميانوس في الغرب ما طبقه ديوقليتيانوس في الشرق، لا بل إنّ مكسيميانوس قد ذهب في أعمال اضطهاد المسيحيّين إلى ما هو أبعد وأشدّ فظاعة وهولاً، فقد كان يأمر كلّ مسيحيّ أن يختار بين تقديم الذبائح إلى الآلهة المعترف بها في الأمبراطوريّة أو الموت المحتّم. "وإنّه ليصعب على المؤرّخ أن يحصي عدد الذين بُترت أعضاؤهم أو صلبوا أو أغرقوا أو أُحرقوا أو رمي بهم إلى الوحوش الكاسرة في هذه المنطقة[2]».

رغم استقالة ديوقليتيانوس وزميله مكسيميانوس من المنصبَين الأمبراطوريّين سنة ٣٠٥، فقد استمرّ الاضطهاد ضدّ المسيحيّين في عهد الأمبراطورين اللذين خلفاهما: قسطنديوس في الغرب وغلاريوس في الشرق. وكان القيصر المعاون لقسطنديوس: فلافيوس سويروس، ولغلاريوس: مكسيمينوس دايا.

١ - راجع: حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٨؛ Eusébius, Bk, VIII, ch. 12, col 1.2

٢ - حتي، لبنان في التاريخ، ص ٢٥٨.

كان أبرز شهداء هذه الحقبة التي استمرّت حتّى سنة ٣١٠ إيفيانوس الذي كان قد تلقّن الفقه في بيروت، وتعمّق في اللاهوت على يدي بمفليس. وفي صور «زُجّ اولپيانوس في جلد ثور مع كلب وأفعى ضخمة وألقي في البحر. وفي إنطاكية بسط الشيخ الفلاح برلاها يده إلى لهيب النار حتى فنيت ونُكّل به تنكيلاً فظيعاً»... وفي إنطاكية أيضاً باغت الجند بلاجيّة الفتاة بمفردها في بيتها، فاستأذنتهم لترتدي أجمل ما لديها وصعدت إلى السطح ورمت نفسها إلى أسفل... وأستشهدت دومنينة الإنطاكيّة وابنتاها برنيقية وبروسذوكي برمي أنفسهنّ معاً في الفرات وقد فضّلن الموت على الخضوع لرغبات مكسيميوس الفاسق. كما نالت ثيودوسية الصوريّة إكليل الشهادة في قيصريّة فلسطين بعد أن مشّط الجند جسدها بأمشاط حديديّة. وعَذّب لوكيوس الحاكم الطبيبين العربيّين قوزما ودميانوس وضرب عنقيهما بالسيف. كما نفّذ حكماً بالأشغال الشاقة على سلوانس كاهن غزّة ورفاقه في وادي عربة. وطُرح دومنينوس في النار وأُدخل پامفيلوس السجن بعد عذاب أليم. واستشهد بولس الغزّاويّ. إضافة إلى أنطونيوس وزبينا وجرمانوس والفتاة البيسانيّة أوناثا. ثمّ استشهد پامفيلوس مع أحد عشر شهيداً بينهم ڤالانسيوس الشيخ شمّاس إيليه وبورفيروس الخطّاط[1].

نهاية الاضطهادات

عصفت في نهاية العقد الأول من القرن الرابع بالأمبراطورية الرومانيّة موجة عنيفة من الصراع على الحكم أصبح بنتيجتها للدولة الرومانيّة ثلاثة أباطرة وثلاثة قياصرة. وشاعت اغتيالات القياصرة تحت ستار الانقلابات المتواصلة. وعمّ الاضطراب الأوساط العسكريّة والسيّاسية. وقد اتّضح لأتباع الديانات الوثنيّة «ولأولئك الذين كانوا يرون في استمرارها نفعاً ماديّاً، بأن المسيحيّة آخذة في

١ - Eusébius, Mart. Palest. IV - VII

الانتشار، ولن تعتم حتى تحتلّ المقام الأوّل في الحقل الروحيّ. وكذلك اتّضح للدولة وموظّفيها أنّه كلّما تدهورت الأمور السياسيّة وتردّت أحوال الأمبراطوريّة تحسّنت أحوال المسيحيّة واتّسع نطاقها[1]».

وهكذا أصدرت الأمبراطوريّة الرومانيّة بهيئتها العليا مجتمعة في نيسان (إپريل) من سنة ٣١١ تلك البراءة الشهيرة التي اعترفت بوجود المسيحيّة وسمحت للمسيحيّين بصلاة الجماعة شرط عدم الإخلال بالنظام[2].

ما أن صدرت هذه البراءة حتّى أضحت المسيحيّة ديانة شرعيّة لأوّل مرّة في تاريخ الأمبراطوريّة الرومانيّة. وبدأت إعادة الكنائس إلى أصحابها في الشرق باستثناء سورية ومصر حيث حاول مكسيميليوس يائساً استئناف الاضطهاد (٣١١ - ٣١٢) مؤسّساً منظّمة وثنيّة على غرار الكنيسة لمحاربة النصرانيّة متوسّلاً من أجل ذلك أحقر الأساليب[3] ممّا جعل ألوف المسيحيّين يفرّون من صور وغيرها من المدائن ليتشرّدوا في الأماكن النائية. في هذه الحقبة استشهد أسقف حمص: سلوانس، إضافة إلى شمّاسه لوقا وقارئ الكنيسة موكيوس ويوليانوس الطبيب ولوقيانوس المعلم الإنطاكيّ، الذي قرّظه يوحنّا فم الذهب، وقد دُفن في مدينة ذريبانة حيث شُيّد هيكل فخم فوق ضريحة بأمر من القدّيسة هيلانة. وذريبانة هي التي أصبحت تحمل فيما بعد اسم هيلانة: إيلينوپوليس. ومن كبار شهداء هذه الحقبة الأسقف الشهير ميتوذيوس الأوليمپي[4].

كان قسطنطين الكبير (٢٧٤ - ٣٣٧) قد اعتلى عرش الأمبراطوريّة سنة ٣٠٦، إلاّ أنّه لم يسيطر على كامل الأمبراطوريّة قبل سنة ٣١٢ عندما هزم خصمه مكسانوس على أبواب رومة سنة ٣١٢. وكان أوّل ما فعله قسطنطين بعد هذا

١ - حتي، لبنان في التاريخ ص ٢٥٨ - ٢٥٩

٢ - Zeiller j., Dernière persécution, Fliche et Martin, II, 475

٣ - Eusébius, Bk. IX, col. 5

٤ - Vaillant A., De Autexusio de méthode d'olympe ,Patrol. orientalis, XXII, 5, 636 N. 1

الانتصار أن أطلق الحرّيّة للدين المسيحيّ وشجّعه آمراً بإعادة أملاك الكنائس المصادرة إلى المسيحيين موجباً على موظّفي الماليّة ان يقدّموا إلى الكنائس الكاثوليكيّة الجامعة، لا الأدونانيّة، ما تحتاجه من الأموال. وكتب إلى مكسيمينوس زميله في الشرق موجباً إنهاء الاضطهاد. وفي ٣١٣ صدر نصّ رسميّ عن جناحي الأمبراطوريّة يتضمن التالي:

«نحن قسطنطين أوغسطوس وليكينيوس أوغسطوس بعد تبادل الرأي في ميلان، تبيّن لنا أنّ مصلحة الدولة تقضي بتنظيم أمور التعبّد ومنح المسيحيّين وجميع الرومانيّين حقّ اتّباع الدين الذي يؤثرون، وذلك ليرضى الإله، أيّاً كان، عنّا وعن جميع الخاضعين لنا. وبعد التبصّر في هذا الأمر قرّرنا عدم التعرّض لحرّيّة المعتقد. وهكذا فإنّنا لا نمنع أحداً من الناس عن اتّباع دين المسيحيّين أو أي دين آخر يختاره المرء لنفسه آملين أن ننال بذلك رضى الاله الأعلى وبركته[1]».

بهذا انتهى عصر الاضطهاد، وأصبحت الديانة المسيحيّة متساوية من حيث الحقوق بالديانات الوثنية القديمة. وكان من الطبيعيّ، وسط هذه المساواة، أن تسجّل المسيحيّة انتصاراً كاسحاً على الديانات الوثنيّة وأن لا يطول الزمن ليصبح دين المسيح دين الأمبراطورية.

الصراع بين المسيحية والوثنية

عندما أصبحت المسيحيّة كدين متساوية من حيث القانون مع الوثنيّة، انتقل الصراع بين الديانتين من مرحلة اضطهاد الوثنيّة للمسيحية إلى مرحلة الصراع بينهما.

تمثّل هذا الصراع سياسيّاً بين ليكينيوس أمبراطور الشرق وقسطنطين أمبراطور الغرب. وكان ليكينيوس لا يزال وثنيّاً، ولم تكن خطوته المشتركة مع

١ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١٨١

قسطنطين في إعطاء الحرّيّة الدينيّة للمسيحيين سوى مجاراة لزميله قسطنطين ساعياً لخطب وده ولكسب تأييد المسيحيّين الذين كانوا قد أصبحوا عنصراً مهمّاً جداً في الشرق ولا سيّما في آسية الصغرى. وبينما راح قسطنطين يهتمّ بشؤون الكنيسة الداخليّة في الغرب، بقي مكسيمينوس ممتنعاً عن مساعدة أساقفة الشرق لإعادة بناء كنائسه. وهكذا فعندما بدأت طلائع التنافر بين قسطنطين وليكينيوس سنة ٣٢٠، بدأ هذا الأخير يضيّق على رجال الكنيسة وكبار الموظّفين المسيحيّين. ويذهب بعض المؤرّخين إلى أنّ الأسباب الحقيقيّة التي كانت كامنة وراء إجراءات ليكينيوس إنّما هي محاولته كسب تأييد وثنيّي الغرب من جهة، وتخوّفه من تعاون مسيحيّي الشرق مع قسطنطين ضدّه.

تفنّن ليكينيوس في تضييقه على المسيحيّين في تلك السنة، فراح يدعو إلى المجامع الكنسيّة، ليحرّم اجتماع الجنسين من المسيحيّين في مكان مقفل، موجباً اجتماعهما للصلاة في الهواء الطلق وخارج المدن، مصدراً أمره بوجوب تدريب كهنة من النساء لإرشاد بنات جنسهنّ. وكثر عدد الإكليريكيّين في السجون. ثمّ لجاء ليكينيوس إلى تطهير البلاط من المسيحيّين. وعاد إلى سياسة أسلافه فأمر بوجوب التضحية للآلهة وكان من الطبيعيّ أن يمتنع الأساقفة والإكليريكيّون وعدد كبير من المؤمنين عن طاعة هذه الأوامر، فتجدّدت المطاردات والتضييقات ومصادرة الأوقاف، وتجدّد تدمير الكنائس وسَوْق المؤمنين للعمل في المناجم والحكم على بعضهم بالإعدام. وهنا استشهد باسيليوس متروبوليت ذيوسبونطه التابعة لإنطاكية، وكثر عدد الشهداء في شرق آسية الصغرى، ومن هؤلاء الأربعون شهيداً في سبسطية في أرمينية الصغرى.

هذه الأعمال أثارت قسطنطين الذي نهى في الخامس والعشرين من ايار (مايو) ٣٢٣ جميع الموظّفين عن المطالبة بالتضحية للآلهة. ثمّ رفع الصليب عالياً معلناً حربه ضدّ ليكينيوس والوثنيّة. وردّ ليكينيوس بدوره مسترضياً الآلهة سائراً إلى الحرب.

بانتصار قسطنطين على ليكينيوس في صيف ٣٢٤، إستتبّ الأمر لحامل لواء المسيحيّة الذي أصبح الأمبراطور الأوحد.

يختلف المؤرّخون في أمر مسيحيّة قسطنطين. فبينما يعتبر البعض أنّه كان مسيحياً مؤمنا وأنّ دفاعه عن المسيحيّة ومعتنقيها كان نتيجة هذا التديّن، يقول آخرون بأنّ قسطنطين إنّما اتّبع هذه السياسة طمعاً بتأييد المسيحيّة الظافرة له. على أيّة حال فإنّ قسطنطين كان ابن الأمبراطورة هيلانة التي اشتهرت بدفاعها عن المسيحيّين وبحماسها للمسيحيّة. ومن الثابت أيضاً أنّ قسطنطين قد جعل شارة الصليب شعاراً لعلمه الأمبراطوري. وتُروى حكاية عن ظروف اعتناق قسطنطين للمسيحيّة مفادها أنّه شاهد في السماء أثناء زحفه على رومة سنة ٣١٢ صليباً متألّقاً عليه كتابة يونانيّة تقول: «بهذا ستغلب[1]». والثابت هو أنّ المسيحيّة قد أصبحت في عهد قسطنطين الديانة الرسميّة للأمبراطوريّة. ويُروى أنّ هيلانة والدة قسطنطين المسيحيّة التقيّة قد قامت بزيارة إلى اورشليم سنة ٣٢٦ حيث قيل إنّها وجدت الصليب الحقيقيّ في البقعة التي تقوم عليها كنيسة القيامة، إذ في ذلك المكان شيّد قسطنطين الكنيسة الأولى للقيامة. كما أنّه أنشأ على نفقة الدولة كنائس قسطنطينيّة ونيقوميذية وإنطاكية وبيت لحم والخليل[2]. واللافت أنّ قسطنطين الذي أصرّ على إعادة الأوقاف المصادرة إلى المسيحيّين وعلى إعتاق الموقوفين منهم والتعويض على من صودرت أملاكهم وعلى ورثة من استشهدوا، لام في الوقت نفسه أولئك الذين اضطهدوا المسيحيّين، وأبان في خطبه السياسيّة نقائص الوثنيّة، وذمّ العرّافين الوثنيّين، ونادى بسيّد الكون، وأخذ على عاتقه أمر الدفاع عن المسيحيّة. على أنّه بإعلانه المساواة في الدين منع على المسيحيّين الانتقام من الوثنيّين.

١ - راجع: حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٨٧

٢ - Usébius, Bk. III, 25 - 53

عادت الكنائس لتنتشر من جديد في كافّة أنحاء الشرق ومن بينها كنيسة صور التي أعاد المطران پولينوس بناءها وجعلها على مستوى أكبر ممّا كانت عليه، حتّى أضحت أكبر وأجمل كنيسة في جميع أنحاء فينيقية، وعندما دشّنت ألقى مؤرّخ الكنيسة الكبير: يوسيپيوس مطران قيصريّة، خطبة قدّم لها بقوله: إنّه عاجز وليس أهلاً لهذا الإكرام. وفي مدينة صور عُقد مجمع كنسيّ سنة ٣٣٥ حكم بالهرطقة على مطران الإسكندريّة أثناسيوس[1].

وقدّر «لفيلوغونوس أسقف إنطاكية الثاني والعشرين بعد بطرس أنْ يرى كنيسته البالية القديمة المتهدّمة تعود إلى سابق رونقها ومجدها. وتوفّي هذا الأسقف سنة ٣٢٤ فنعم خلفه أفستاثيوس بسخاء قسطنطين وبالشروع في بناء الكاتدرائيّة الكبرى قرب القصر في سنة ٣٢٧. ولم يتمّ بناؤها قبل سنة ٣٤١ وذلك في عهد فلاكيلوس السابع والعشرين بعد بطرس. وجاء في مصنّف أفسابيوس عن حياة قسطنطين وأعماله أنّ الفضل في اكتشاف المكان الذي صُلب فيه السيّد المخلّص والمكان الذي دُفن فيه جسده الطاهر يعود إلى مكاريوس أسقف أورشليم آنئذ[2]».

تتّضح مسيحيّة قسطنطين بشكل لا يقبل الشكّ من خلال تشريعاته المستمدّة من التعاليم المسيحيّة، وهي التي شملت عقوبات قاسية تطبّق على كلّ من يرتكب جرم الاغتصاب، بمن فيهم الإمرأة نفسها إذا ثبتت موافقتها على ذلك! وحرّم اعتداء المربّي على عفاف تلميذته، ومضاجعة السيّدة رقيقها، والعهر بخادمات الفنادق والخانات، وأوجب ملاحقة التسرّر، وصعّب الطلاق. وعُني قسطنطين في الوقت نفسه بحماية الضعفاء والمساكين والأبرياء، فارضاً العقوبات الشديدة على الوشايات والطعون الكاذبة، واضعاً حدّاً لقساوة السجّانين، مانعاً

١ - حتي، لبنان في التاريخ، ص ٢٥٥

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج١، ص ١٨٧-١٨٨

الأسياد عن الإساءة إلى أرقائهم، والآباء عن الغلاظة في معاملة أبنائهم، وشجّع الأمبراطور على الاعتناء بالأرامل واليتامى[1].

وكان قسطنطين قد منح الأساقفة شيئاً من السلطة القضائيّة، ومع الأيّام راح يزيدهم سلطة واحتراماً إلى أن منحهم سلطة إعتاق الرقيق بمجرّد إعلان ذلك في الكنيسة بحضور الكهنة، ثمّ اعتبرهم قضاة فأجاز للمدّعي أو المدّعى عليه أن يترافع في دعوى مماثلة في محكمة مدنيّة أمام الأسقف. واعتبر حكم الأسقف مبرماً غير قابل الاستئناف. ومن أقواله لرجال الكنيسة: «أنتم أساقفة على من هم داخل الكنيسة، وأنا أسقف بمشيئة الله على من هم في الخارج[2]». فلقد كان قسطنطين الأمبراطور حبر الدولة الأعظم ورأسها في آن. وسجّل بتدخله في شؤون الكنيسة، من خلال هذا الموقع، سابقة خطرة سوف تؤدّي فيما بعد إلى مشاكل جدّيّة بين الكنيسة والدولة، سوف ينجم عنها ذلك الانشقاق العظيم الذي شطر الكنيسة الجامعة في القرن الحادي عشر إلى كنيستين.

---

١ ـ المرجع السابق، ص ١٨٨-١٨٩

٢ ـ Eusébius, BK.IV,col.24

الفصل الرابع

إنقسامات بعد النصر

- إنطاكية وسائر المشرق
- مسألة عيد الفصح
- مسألة العائدين التائبين
- مسألة آريوس
- مسألة الدستور المؤرّخ
- مسألة أبوليناريس وسائر البدع
- مسألة نسطوريوس
- مسألة أوطيخة

كان انتصار قسطنطين على منافسيه إيذاناً بحدثين أساسيَّين سوف يطبعان المرحلة المقبلة من التاريخ في الشرق والغرب. الحدث الأوّل هو انتقال العاصمة الرومانيّة إلى الشرق: القسطنطينيّة. والحدث الثاني هو تحوّل إنطاكية الى عاصمة أساسيّة للمسيحيّين.

أسّس قسطنطين عاصمته في موقع بيزنطية التي كان قد أسّسها الإغريق الأقدمون في القرن السابع قبل الميلاد، على ضفّتي البوسفور حيث تلتقي أوروبّة بآسية. وفي ١١ أيّار (مايو) سنة ٣٣٠ دشّن قسطنطين عاصمته الجديدة. «وقد منحها موقعها الإستراتيجيّ الجغرافيّ فوائد عسكريّة واقتصاديّة، واتّحدت كلّ هذه العوامل لتجعل من المدينة الجديدة المركز الطبيعيّ الذي يستطيع العالم الشرقيّ أن يتجمّع حوله بسهولة. وسرعان ما فاقت «رومة الجديدة» على البوسفور رومة القديمة على نهر التيبر. ويدلّ هذا التحوّل ذاته على الاعتراف بالأهمّيّة الفائقة للقسم الشرقيّ من الأمبراطوريّة... واتّجهت كلّ الأمبراطوريّة في ذلك الاتّجاه. وكانت تقع في الشرق الدولة المتحضّرة الرئيسيّة: فارس، التي كانت رومة في نزاع مستمرّ معها. وكان مركز الثقل في شؤون العالم يتحول الى الشرق من جديد[١]». وسوف تستمرّ عاصمة الرومان تلك التي حملت اسم قسطنطين طيلة أحد عشر قرناً تنتهي مع فتح الأتراك العثمانيّين لها في العام ١٤٥٣ ليجعلوها مستقرّاً للسلاطين حتّى نهاية عهدهم.

أمّا إنطاكية التي كانت قد اشتهرت قبل ذلك التاريخ هي وضاحيتها دفنة بحياة الترف والخلاعة، حتّى إنّه لم يُعرف مكان في سورية الرومانيّة ظهر فيه التمتّع بالحياة كهدف رئيسيّ للسكان يأتي بعد هدف الواجب مثلما كان عليه الوضع في إنطاكية من شمال سورية، فقد غدت في نهاية القرن الأوّل ثالث مدينة

---

١ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٨٦ - ٣٨٧

في الأمبـراطوريّة بعد رومـة والإسكندريّة[1]. وفي بداية القرن الرابع كـانت بيـوت إنطاكية مجهّزة بشبكات المياه وشوارعها مضاءة بالمصابيح، ممّا جعل مؤرخي تلك الحقبة يصفونها بملكة العرائس[2].

إنطاكية هذه، كانت من النّاحية الإداريّة تشكّل قاعدة لإقليم ينتسب إليها ويتضمّن خمس عشرة مقاطعة هي: فلسطين الأولى، فينيقية البحريّة، فلسطين الداخليّة Salutaire، فينيقية اللبنانيّة، سورية الثانية أو الداخليّة. سورية الثالثة أو الفراتيّة، منطقة الرهى Osrohène، ما بين النهرين، قيليقية الأولى Isaurie، قيليقية الثانية Euphratèsie، شبه الجزيرة العربيّة[3].

بانتقال عاصمة الأمبراطوريّة الى القسطنطينيّة اصبحت إنطاكية العاصمة الكبرى للمسيحيّة في العالم. وإنّ كونها قاعدة لذلك الإقليم الشرقيّ الكبير الذي يضمّ ما ورد من مقاطعات، هو الذي سيجعل بطاركتها فيما بعد يلقّبون ببطريرك إنطاكية «كمدينة أو منطقة» وسائر المشرق. ومن هنا نرى اليوم أنّ أكثريّة الطوائف المسيحيّة في الشرق سواء كانت تابعة للكنيسة الغربيّة أم الشرقيّة، يحمل بطاركتها لقب إنطاكية وسائر المشرق. ذلك أنّ هؤلاء جميعاً هم بطاركة على كنائس ذوات جذور إنطاكيّة. غير أنّ خلف هذا التعدّد في الكنائس والانتماءات سبباً واضحاً ألا وهو الانقسامات.

كانت تلك الانقسامات قد بدأت في رومة يوم كانت كنيستها متقدّمة على سواها من كنائس الإمبراطوريّة، فلقد كان أسقفها هو أسقف عاصمة الدولة، ومثّل الكنيسة الجامعة أمام السلطة المدنيّة العليا، يدافع عن حقوق هذه الكنيسة

١ - Haddad Georges, Aspects of social life in Antioch in the Roman-Hellenistic period, (Chigago, 1949) PP. 70-73

٢ - راجع: Amnianus Marcellinus, Rerum Gestarum, BK. XIV, CH.1, Col.9

٣ - Claude Sélis, les syriens orthodoxes et catholiques, (édition Brepols, 1948) P.210; وراجع: المطران بطرس ديب في: Histoire de l'église maronite (Beyrouth 1962) PP. XII, XIII.

الجامعة ويتحمّل مسؤوليّة أقوال المسيحيّين وأفعالهم في جميع ارجاء الأمبراطوريّة الرومـانيّة[1]. أمّا وقد غدت إنطاكية متقدّمة على رومة بعد قسطنطين، فقد انتقل مركز الصراع إليها.

في رومة بدأ الخلاف على كيفيّة ممارسة عيد الفصح إذ حاول ڤيكتوريوس (١٨٩ ـ ١٩٩) أن يفرض رأي رومة في كيفيّة هذه الممارسة على أساقفة آسية الصغرى. وقام بعده إسطفانوس (٢٥٤ ـ ٢٥٧) ليوجب الاعتراف بمعموديّة التائبين العائدين الى حضن الكنيسة والاكتفاء بفرض الندامة والتوبة مهدّداً أساقفة إفريقية وآسية الصغرى وإنطاكية بالقطع[2] إن هم خالفوا العرف والتقليد الرومانيّين. فقد كان موضوع الخلاف في الكنيسة قبل إنطاكية منحصراً في هاتين المسألتين: مسألة عيد الفصح ومسألة التائبين العائدين.

مسألة عيد الفصح

كان المسيحيّون الأوّلون يؤمّون الكنيسة صباح الأحد في مثل الساعة التي قام فيها السيّد من الموت، وذلك إحياءً لمناسبة القيامة المجيدة. وكانوا في الرابع عشر من نيسان العبرانيّ يعيّدون تذكار الآلام والقيامة ثلاثة أيّام متتالية تنتهي في السادس عشر من ذلك الشهر. إلاّ أنّهم قبل نهاية القرن الأوّل اختلفوا في تعيين يوم ذكرى الآلام والصلب وفي تعيين اليوم الذي يحيون فيه ذكر القيامة. ذلك أنّ كنائس آسية الصغرى وقيليقية وسورية الشماليّة وما بين النهرين بقيت على التقليد القديم مكتفية بإحياء مناسبة الآلام والقيامة في الايّام الثلاثة الواقعة بين الرابع عشر والسادس عشر من نيسان العبريّ، بينما كنائس بلاد اليونان وإيطالية وإفريقية ومصر وفلسطين والبونط خصّت يوم الجمعة وحده بالآلام ويوم

١ - Irenaeus, Adversus Haereses, I, P. 27, III, P. 3

٢ - القطع: بالمفهوم الكنسي في ذلك الوقت كان يعني الفصل عن الكنيسة

الأحد بالقيامة، «وكانت، في السنين التي لا يوافق فيها الرابع عشر من نيسان العبريّ يوم جمعة، تذكر الآلام في أوّل يوم جمعة بعده، ومثله يوم الأحد للقيامة[١]».

هذا لناحية التاريخ، أمّا لناحية مفهوم المناسبة، فقد اختلفت تلك الكنائس حول اعتبار يوم الآلام يوم فرح أو يوم حزن. إذ بينما اعتبرت كنائس آسية الصغرى يوم الآلام يوم فرح بحجّة أنّه يوم تحرير من العبوديّة، جاعلة منه نهاية للحزن والصوم، كان سائر الكنائس يعتبر يوم الصلب يوم حزن فلا يسمح بحلّ الصوم قبل تذكار القيامة. ويبدو أنّ الاعتبار الأوّل كان مستمداً من يوحنّا الحبيب وفيليبوس، بينما الثاني من تعاليم بطرس وبولس[٢].

هذا الخلاف، وإن كان قد أوجد فوضى غير مستحبّة في مسألة عيد الفصح، فإنّه لم يؤدّ الى انقسام خطير في الكنيسة، إذ أصبح المؤمنون، بحسب الانتماء الإقليميّ يعيّدون كلّ على طريقة إقليمه، حتّى جاء ڤيكتوريوس محاولاً فرض رأي روما في كيفيّة ممارسة عيد الفصح. قبل ذلك التاريخ كان أساقفة الشرق قد عقدوا مجامع محلية في قيصريّة فلسطين وبين النهرين وغلاطية والبونط وكورنتس، بحثوا فيها مسألة الفصح وأقرّوا رأياً واحداً يقضي بمراعاة عادة ذكر القيامة في يوم الأحد وأن لا يُحل، الصوم إلاّ فيه[٣].

بيدَ أنّ هذه المسألة قد تفاقمت في نهاية القرن الثاني إذ في العام ١٩٨ تداعى أساقفة قيصريّة وأوروشليم وصور وعكّة وعقدوا مجمعاً في قيصريّة برئاسة أسقفها ثيوفيلوس، وأقرّوا «أنّ يوم الربّ هو أوّل أيّام الخلق والسبت آخرها. ثمّ بيّنوا أنّ الربيع هو أوّل فصول السنة. وأنّ العالم وجد في الخامس والعشرين من

١ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٨١

٢ - Usebe Hist. Ecc. V, PP. 23 - 25

٣ - Batiffol, l'église naissante, P. 271; Hefele - Leclerq, histoire des concils, I, P. 150

آذار! حينما كانت الشمس في وسط المشرق والقمر بدراً. ثمّ شرعوا بتعيين عيد الفصح، فأجمعوا على أنْ يقع في يوم الربّ (الأحد) لأنّ الظلام انقشع في هذا اليوم، وأشرق النور، ولأنّ الشعب تحرّر فيه من أرض مصر كما من ظلام الخطيئة، ولأنّ الشعب، مُنح فيه طعاماً سماوياً، ولأنّ موسى أوجب تكريمه، ولأنّ المرتّل قال عنه أنّه اليوم الذي نبتهج ونفرج فيه، ولأنّه اليوم الذي قام فيه الربّ[١]».

إثر هذا المجمع الإقليميّ راسل الأساقفة المجتمعون الكنائس الأخرى داعينها الى إقرار رأي المجمع، وذكروا في رسائلهم تلك أنّ كنيسة الإسكندريّة قد وافقتهم الرأي[٢]. غير أنّ اساقفة آسية الصغرى أصرّوا على المحافظة على التقليد القديم، وواجهوا مجمع قيصريّة فلسطين بمجمع عقدوه في أفسس اشترك فيه خمسون أسقفاً. وبعد التداول «كتب أسقف أفسس پوليكراتس بلسان مجمعه الى رومة وسواها يؤكّد أنّهم لا يُزيدون على التسلّم الرسوليّ ولا ينقصون منه وأنّه رقد في بلادهم يوحنّا الذي اتّكأ على صدر الربّ، وفيليپوس أحد الإثني عشر، وپوليكاربوس الشهيد، وأنّ هؤلاء جميعهم حافظوا على اليوم الرابع عشر للفصح وفقاً للإنجيل. وممّا قاله پوليكراتس موجّهاً كلامه إلى كنيسة رومة: - أنا أصغركم جميعاً. وما دام لي خمس وستون سنة في الربّ، وقد اجتمعت بالأخوة الذين من المسكونة وقرأت كلّ كتاب مقدّس، لا أجزع ولا أخاف لأنّ الذين هم أعظم منّي قالوا أنّه يجب الخضوع لله أكثر من البشر. وكنت أستطيع أن اذكر الأساقفة الحاضرين معي الذين رمتم أنتم أن أجمعهم، وقد جمعتهم ووافقوا على الرسالة لعلمهم أنّي لم أحمل هذه الشيبة عبثاً بل سلكت بالربّ دائماً[٣]».

أحدثت هذه الرسالة ضجّة في رومة، ويبدو أنّ ڤيكتوريوس أسقف رومة كان يتّجه إلى قطع كنائس آسية واعتبارها خارجة عن الدين القويم، إلاّ أنّ القدّيس

١ - المطران ساويروس يعقوب، الكنيسة السريانية الانطاكية، ج ١، ص ١٢١ - ١٢٢.

٢ - Usebe, Hist. Ecc., V, Col. 26

٣ - المرجع السابق V Col. 24؛ وراجع: رستم، ج ١، ص ٨٥

إيريناوس الذي كان أسقفاً لليون وعدداً من الأساقفة قد اعترضوا على هذا الموقف وآثروا عدم انقسام الكنيسة مقتنعين أسقف رومة بوجهة نظرهم، ممّا وفّر على الكنيسة، حتّى ذلك التاريخ، مرارة الانشقاق، ولكنّ مشكلة الفصح بقيت معلّقة.

مسألة العائدين التائبين

أدّت شدّة الاضطهادات التي حصلت في نهاية القرن الثالث، قبل قسطنطين، الى أن ارتدّ عن المسيحيّة ظاهريّاً مَن لم يتحمّلوا العذاب. وعندما استتبّ الأمن للكنيسة أظهر بعض هؤلاء توبتهم ورغبتهم في العودة الى المسيحيّة، فكان هذا سبباً آخر للخلاف داخل الكنيسة.

رأى بعض رؤساء الكنيسة وجوب التشدّد مع هؤلاء العائدين، خاصّة رجال الإكليروس منهم، وبشكل أخصّ أصحاب المراتب العليا، بينما رأى فريق آخر وجوب التساهل.

ومن الغلاة من أصحاب الرأي الأوّل من اعتبر أنّ الذين تحمّلوا العذاب باسم يسوع دون أنّ يرتدّوا عن إيمانهم أو أن يتظاهروا بالارتداد هم الذين يجب أن يبتّوا أمر عودة الذين ضعفوا.

هذه المسألة كان لها سابقة في منتصف القرن الثالث، ممّا أدّى الى انعقاد مجمع محلّيّ في قرطاجة اتّخذ قراراً بفصل بعض المتشدّدين المعاندين المستمرّين في تقبيح العائدين. وقد حصلت ضجّة في الكنيسة إثر هذا المجمع الذي عُقد مجمع محلّي آخر بعده بسنة في رومة، أيّد موقف مجمع قرطاجة. كان يومها كورنيليوس رئيساً لأساقفة رومة، فتجمّع معارضوه وساموا أسقفاً منهم على رومة، هو نوفاتيانوس، فأصبح بذلك على رومة أسقفان[1].

١ ـ Usebe, Hist. Ecc., VI, 43

انتقل الانقسام من رومة الى الشرق بواسطة الرسائل التي حرّرها كلٌّ من الطرفين الى كنائسه. فبينما رأى أسقف الإسكندريّة رأي كورنيليوس، آثر أسقف إنطاكية رأي الفريق الآخر، كلّ ذلك في مسألة العائدين التائبين. ولم تُجدِ محاولات ديونيسيوس[1] نفعاً في دعوة الطرفين الى الاعتدال اتّقاءً لانقسام الكنيسة[2]، فظهرت بوادر الانشقاق في كنيسة إنطاكية[3]، ممّا جعل أسقف إنطاكية فابيوس يدعو الى مجمع محلّيّ للبحث في هذه المسألة. فكان المجمع الإنطاكيّ الأوّل الذي عُقد سنة ٢٥٢ بعد أن توفّي الداعي إليه. وقد أيّد هذا المجمع أسقف رومة كورنيليوس بعد أن انتُخب: ديميتريانوس (٢٥٢ ـ ٢٦٠ [4]) خلفاً لفابيوس.

لم يكن الخلاف الذي عصف بالكنيسة مقتصراً على مسألة التائبين العائدين، بل كان يتناول أيضاً قضيّة مشابهة هي مسألة معموديّة الهراطقة والجاحدين، وكان الفريق المتشدّد بالنسبة للعائدين متشدّداً في الوقت نفسه بالنسبة لمعموديّة الهراطقة والجاحدين، فيما أبدى الفريق الآخر ليناً تجاه هؤلاء.

هذه المسألة كانت قد بدأت تشكّل موضوع خلاف داخل الكنيسة منذ العام ٢١٧[5]. وبعد هدوئها لبعض الوقت عادت لتتفاقم مع بروز الخلاف حول مسألة العائدين، فدخلت الكنيسة الجامعة في أزمة خطيرة.

كان المتشدّدون يطالبون بإعادة معموديّة المرتدّين عن الهرطقة والجحد، بينما كان المتساهلون ينهون عن وجوب إعادة معموديّة هؤلاء. وقد انعقد لكلٍّ من الفريقين مجامع محلّيّة في الغرب والشرق ظهر فيها الخلاف على أشدّه. وتبودلت رسائل بين الكنائس المختلفة، لا يزال بعضها محفوظاً، يدلُّ مضمونها

١ ـ ديونيسيوس Denys: هو الذي اصبح فيما بعد بابا رومة (٢٥٩ ـ ٢٦٨) وقد طوبته الكنيسة قديساً.
٢ ـ Usebe, Hist. Ecc., VI, 44
٣ ـ Bardy G., Paul de Samosate, P. 214
٤ ـ Usebe, Hist. Ecc., VII, 5
٥ ـ Lebreton J., St Cyprien, Fliche et Martin, II, PP. 199 - 200

على مدى العمق في اختلاف وجهتي النظر، وعلى مدى عمق الخلافات. وكان على رأس القائلين بالتساهل كپريانوس أسقف كرسيّ قرطاجة الذي دعا الى مجمع حضره سبعة وثمانون أسقفاً وعدد كبير من القساوسة والشمامسة صدر عنه: «إنّ اختـلاف الآراء لا يضـرّ ولا ينافي الاتّحـاد في الإيمان ولا يفكّ الربط بين الكنائس[1] ».

وكان على رأس الفريق الآخر البابا إسطفانوس (٢٥٤ ـ ٢٥٧) الذي كتب الى كنائس الشرق رسائل توضح وجهة نظره بشأن العماد المعطى على يد الهراطقة، فأرسل إنذارات شديدة اللهجة إلى أساقفة إفريقية وإلى كنائس الشرق: قيليقية، وقبدوقية، وغلاطية، موجباً عبرها المحافظة على تقاليد رومة الموروثة مهدّداً بقطع العلاقات.

كان يومها على قيصريّة قبدوقية التابعة لكنيسة إنطاكية أسقف اشتهر بعلمه وتمسّكه بسلامة العقيدة هو القديس الإنطاكيّ فرميليانوس. كان فرميليانوس يكره رومة، وقد ورث هذا الكره عن أستاذه أُوريجانوس الإسكندريّ. وكان عاتباً على البابا إسطفانوس نفسه «لقلّة اهتمامه ببعض الأساقفة الشرقيّين الذين أُوفِدوا إليه[2] ». لكلّ هذه الأسباب وقفت انطاكية، من خلال موقف فرميليانوس، موقفاً مناهضاً لرومة في هذه المسألة. وعندما هدّد اسطفانوس رومة بقطع العلاقات أجابه فرميليانوس قبدوقية: «إنّك قد بذرت خصومات لا تُعدّ ولا تحصى في كلّ كنائس المسكونة، ويا ليتك تعلم تحت أيّة خطيئة وضعت نفسك إذ انفصلت عن هؤلاء الناس جميعاً. وإنّك بعملك هذا لا تفصل عن شركة الاتّحاد الكنائسيّ سوى نفسك فتصبح أنت العاصي[3] ».

١ ـ Cyprien, Epist. LXXII

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١١٦ عن: Lebreton J., St Cypien, Fliche et Martin, II, P. 203

٣ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١١٧.

من شأن هذا الكلام أن يدلّ بوضوح على مدى شراسة المعركة التي قادها رؤساء الكنيسة قبل نهاية القرن الثالث الميلاديّ، والتي كانت ايذاناً بتشتّت كنيسة المسيح وتشرذمها. وكان المؤمنون، دونما أيّ شكّ، يتأثّرون بمواقف رؤسائهم الروحيّين وينقادون كالقطعان لرعيانها. وهذا ما سيؤدّي فيما بعد الى تدخل الأباطرة في شؤون الكنيسة: مملكة ذلك الذي مملكته ليست من هذا العالم، فأصبحت كنيسته بسبب رؤسائها تحت وصاية أولئك الذين ممالكهم من هذا العالم.

مات البابا قبل أن ينفّذ شيئاً من تهديداته وخلفه البابا سيكستوس ذو الطبع المسالم فتجاوب مع دعوات التقارب وإعادة اللحمة بين الكنائس التي كان على رأسها ديونيسيوس أسقف الإسكندريّة، فترطبت الأجواء وتوقّف التراشق، إلا أنّ الخلاف في الرأي بقي قائماً رغم تزايد عدد المسيحيّين بشكل كبير، مما أعطى الرؤساء الروحيّين مكانة في الدولة[1]. ويمكن الجزم بأنّ هذا الواقع قد جعل أصحاب الطموحات في السياسة والثروة والسلطة يتهافتون على الكهنوت بدرجاته العالية ليؤمّنوا لأنفسهم المناصب والثروات. يؤكّد ذلك قول المؤرّخ الكنسيّ أفسابيوس: «... إنّ هؤلاء الذين يتظاهرون أنّهم رعاتنا قد استخفّوا بقواعد الدين وتلهّبوا حسداً ولم يتقدّموا في شيء سوى المجادلة والمنازعة والمناظرة والمشاغبة والمباغضة[2] ». حتّى إنّ كپريانوس القرطاجيّ قد اتّهم أساقفته «باحتقار السماويات وإهمالها ليتفرّغوا للأمور البشرية، فتركوا الوعظ والإرشاد ليجرُوا وراء المال وجني الربا بالطرق المعوجّة[3] ».

في هذه الأجواء أصبح بولس السميساطيّ أسقف إنطاكية (٢٦٠ ـ ٢٦٨) موظّفاً مدنيّاً عالياً ذا مهام ماليّة ومشرفاً على الجباية في مملكة زينب التدمريّة التي منحته لقب ذوقيناريوس. وقد تمتّع هذا الأسقف بصلاحيّات ملكيّة هائلة، حتى إنّ

١ ـ Bardy G., Paul de Samosate, P. 260 - 261

٢ ـ Usebe, Hist. Ecc., VIII, 1

٣ ـ Cyprianus, De Lapsis, 6

الأساقفة الذين نظروا في أمره فيما بعد قالوا إنّه لم يكن بمقدور أحد أن يجرؤ فيشكو جوره[1]. «وتاه بولس بجوره وتكبّر. وسار في الشوارع بأبّهة الحكّام وفخفختهم. وصنع لنفسه عرشاً عالياً في الكنيسة، وأذن لمريديه بتقريظه فيها. ومنع تسبيح السيد المخلّص في الكنيسة مدّعياً أنّ تلك التسابيح إنّما أحدثها رجال متأخّرون، واستعاض عنها بمزامير داوود وبتسابيح خصوصيّة أعدّت لتمجيده وأنشدتها النساء له في الكنيسة نفسها. وأطلق بولس لسانه في انتقاد الآباء الأوّلين[2]».

لقد جعلت تصرّفات بولس بعض المؤرّخين يفترضون أنّه كان قد عرف أشياء عن اليهود ودينهم وعن التوراة قبل وصوله الى الكرسيّ الإنطاكيّ، وأنّ زينب التي اشتهرت بعطفها على اليهود اختارت بولس من هذا المنطلق[3].

شقّ بولس كنيسة إنطاكية نفسها. ذلك أنّ أساقفتها رأوا في بولس، الذي نشأ فقيراً فاغتنى بطرق غير شرعيّة وساكن النساء واستصحب بعضهن على الرغم من حداثتهن ومظهرهن المغري، ليس أهلاً لقيادة الكنيسة، بينما انقاد له بعض أساقفة الريف وكهنته وشمامسته. ويرى المدقّقون أنّ كنيسة إنطاكية قد انقسمت في ذلك العهد الى معسكرَين: «أبناء الريف وأمهات القرى من جهة، وهؤلاء بأكثريّتهم شرقيّون سريان وعرب، ومن جهة أخرى أبناء المدن الكبيرة وهم يونانيّون ورومانيّون ومتهلّنون... وكان من الطبيعي أن يرى الشرقيّون العرب في زينب العربيّة زعيمة وطنيّة تحاول التحرّر من حكم رومة وكلّ ما يمتّ إلى الغرب بصلة، فساروا مع بولس ومشى معهم أولئك اليهود الذين عطفت عليهم زينب[4]».

---

١ ـ Usebe, Hist. Ecc., VII., 30

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١٢٠ ـ ١٢١؛ عن Usebe, Hist. Ecc., VII, 30

٣ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١٢٠؛ عن Bardy G., PP. 250 - 258; Aubé B., l'église et l'état, 1, P. 453;

٤ ـ Harnack A., Lehrbuch Der dogmengeschi chte, I, P. 722; Harnack, Monarchianismus, XIII, P. 320

بلغت الخطورة التي شهدتها كنيسة إنطاكية في عهد بولس حدّ الضلالة، إذ طلع هذا الأسقف الزمنيّ ببدعة تقول بأنّ المسيح مخلوق صالح حمل في أحشائه روح الله[1]، فنشأت مقاومة أسقفيّة روحيّة إنطاكيّة عنيدة لبولس الضالّ، ممّا أدّى إلى اتّساع الانشقاق وإلى حصول اضطرابات كبرى داخل الكنيسة الإنطاكيّة وإلى تدخّل رومة بحسب بعض الباحثين، ممّا جعل أسقف طرطوس إلينوس يدعو الأساقفة الإنطاكيّين الى اجتماع للنظر في قضيّة بولس. كان ذلك المجمع الإنطاكيّ الثاني الذي انعقد سنة ٢٦٤ وحضره عدد كبير من الأساقفة والكهنة والشمامسة من مختلف الاتّجاهات. ويبدو أنّ ما نوقش في المجمع الإنطاكيّ الثاني هو مدى صوابية إيمان بولس والتزامه بالخطّ المسيحيّ القويم، إذ كان ظهر أنّ بولس قد شارك المونارخيّين رأيهم في أنّ الله أقنوم واحد، كما شارك الأراطمة قولهم بأنّ الله قد تبنّى المسيح[2].

تمكّن أتباع بولس من ستر هرطقتهم، وجاهد الأساقفة الآخرون لكشف حقيقة ضلال أولئك ففشلوا، كما أنّ زينب كانت داعمة لبولس بكلّ ما لها من مقدرة. كلّ هذه العوامل، إضافة الى الموقف الذي اتّخذه بولس في هذا المجمع، وهو موقف سياسيّ مناور، إعترف من خلاله بأنّه «قال قولاً جديداً» وقطع العهود على نفسه بالعودة الى الاستقامة، أدّت إلى انتهاء المجمع دون أن يتّخذ قراراً بشأن بولس.

ما أن انتهى المجمع الإنطاكيّ الثاني الى ما انتهى اليه حتّى استأنف بولس مسيرته الخاصّة. ولم تنفع رسائل الأحبار التي بعثوها إليه واعظين مرشدين، فكانت دعوة أسقف طرطوس ثانية الى مجمع في إنطاكية عقد سنة ٢٦٢ وحضره حوالى الثمانين أسقفاً[3].

---

١ ـ Augustinus, De Civit. Dei. XIX, P. 23

٢ ـ Bardy G., PP. 324 - 351; Riedmatten H., Actes du procés de Paul de Samosate, (1952) paradosis 6; Usebe, Hist. Ecc., VII, 28

٣ ـ راجع: Théodoret Haeret, Fabul, Compend. II, 8; Bardy G., PP. 296 - 297; Usebe, Hist. Ecc., VII, 29; Athanase De Synode., P. 43; Hilaire, De Synode., P. 86.

هذه المرّة استعان الأساقفة بـ « ملكيون » ، وهو كاهن كان يدرّس المنطق في إحدى مدارس إنطاكية الهلّينية. كذلك استقدموا كتّاباً ماهرين لتدوين المناقشة.

نتيجة ذلك تمكّن المجمع هذه المرّة من إدانة بولس بالهرطقة وبحبّ المال والجاه والفخفخة، وبإقدامه على مساكنة النساء والسماح لبعضهنّ بأن يرتّلن في الكنيسة، وخلع المجمع بولس عن رئاسة كرسي إنطاكية وانتخب دومنوس مكانه. وصدر عن ذلك المجمع رسائل محبّة إلى رومة والإسكندريّة وسائر أساقفة الكنائس والكهنة والشمامسة طالبين عبرها اعتراف هؤلاء برئاسة دومنوس على إنطاكية[1]. ورغم اعتراف رومة والإسكندريّة برئاسة دومنوس، بقي بولس ممتنعاً عن طاعة المجمع، وظلّ يعتبر نفسه رئيساً على كنيسة إنطاكية[2]، متمتّعاً، بفضل دعم زينب، بالسلطتَين الروحيّة والزمنيّة في إنطاكية، إلى أن زال عهد زينب على يد أورليانوس، إذ فرّت أمام جيشه الظافر من إنطاكية إلى تدمر ومنها إلى الفرات حيث أدركها الرومان وأسروها. كان ذلك في أوائل سنة ٢٧١، وكان دومنوس قد توفّي وخلفه تيمايوس في رئاسة إنطاكية فقصد الأمبراطور الظافر عارضاً مسألة الكنيسة طالباً إخراج بولس من كرسي الأسقفيّة وكفّ يده. ولقد كان من الطبيعيّ أن يتجاوب أورليانوس الرومانيّ الغربيّ مع طلب أساقفة إنطاكية المتعاونين الذين قاسوا الأمرّين في عهد زينب، فأمر بأن « تعطى كرسي الأسقفيّة الى أولئك الذين كانوا على صلة بالمراسلة بأساقفة العقيدة المسيحيّة في إيطالية ومدينة رومة[3] ». وغاب بولس السميساطيّ عن إنطاكية وانقطعت أخباره، كما انزوى أتباعه منتظمين في شبه كنيسة مستقلّة في إنطاكيةحتّى مجمع نيقية برئاسة أسقف كان يدعى لوقيانوس، وهو غير لوقيانوس المعلم الشهير.

كان لوقيانوس هذا ابن بلدة بولس: سميساط. وقد استقدمه بولس إلى

١ - Usebe, Hist. Ecc., VII, 30; 5, 23; Bardy G., PP. 313 - 315

٢ - Usebe, Hist. Ecc., VII, 30; Pierre Ibn Rahib, Chronicon oriental, P. 117.

٣ - Usebe, Hist. Ecc., VII, 30

إنطاكية بعد أن أصبح رئيس كنيستها ورسمه كاهناً ولقّنه تعاليمه[1]. وكان مجمع إنطاكية الثالث قد قطع لوقيانوس هو الآخر الذي سيصبح فيما بعد من آباء الدعوة الآريوسيّة. وقد مات لوقيانوس شهيداً سنة ٣١٢ في نيقوميذيا.

هذه الخلافات التي عصفت بالكنيسة في نهاية القرن الثالث، همدت في بداية القرن الرابع، عندما اشتدّ الاضطهاد للمسيحيّة، فلجأ الأساقفة إلى التفاوض مجتمعين لتوحيد الرأي ومواجهة الأخطار الداهمة. وقد عُقدت لهذه الغاية سينودوسات غربيّة برئاسة البابا، كما عُقدت مجامع إفريقيّة برئاسة أسقف قرطاجة، ومجامع إنطاكية برئاسة أسقف إنطاكية[2]. وكانت موافقة رومة على قرار المجمع الإنطاكيّ الثالث القاضي بخلع بولس السميساطي مفيدة جدّاً على صعيد اللحمة بينها وبين إنطاكية. بيدَ أنّه ما أن توقّف الاضطهاد واستتبّ الأمن للكنيسة بعد قسطنطين، حتّى عادت مسألة قبول الجاحدين لتشكّل عنصر صراع، من جديد، داخل الكنيسة. وكان مسرح الصراع هذه المرّة داخل كنيسة الإسكندريّة حيث ستولد البدعة الآريوسيّة التي ستشقّ الكنيسة مرّة أخرى.

مسألة آريوس

كان على رأس كنيسة الاسكندريّة في بداية القرن الرابع أسقف يدعى بطرس، وقد وضع حوالى العام ٣٠٦ رسالة حدّد فيها كيفيّة قبول الجاحدين، وهو الموضوع الذي طالما شكّل خلافاً في الرأي بين قادة الكنيسة. وقد جاءت معارضة رأي بطرس هذه المرّة من مصر نفسها، وتحديداً من قبل أسقف أسيوط ملاتيوس الذي ردّ على بطرس بعنف وتسفيه. وعندما اشتدّت وطأة الاضطهاد لجأ بطرس الى التخفّي، فتحيّن ملاتيوس الفرصة ليثير مسألتَي العائدين التائبين والجاحدين،

١ - Bardy G., P. 376

٢ - Zeiller J., Org. Ecc., II, PP. 398 - 400

وليتفرّد بترؤس الكنيسة المصريّة، إذ راح يرسم الكهنة ويعيّن الإكليروس ويتدخل آمراً ناهياً في أبرشيّة مصر، بينما كان عدد من أساقفتها معتقلاً يواجه الشهادة. وقد هبّ هؤلاء من معتقلهم لتعنيف ملاتيوس، وأقدم بطرس المتخفّي على إصدار الحرم بحقّه قبل استشهاد الأوّل بوقت قصير.

حاول خلفاء بطرس معالجة مسألة ملاتيوس دون جدوى، وبقي هذا الأخير مع أتباعه غير معترفين بسلطة أساقفة الإسكندريّة حتّى حلّ الشقاق في الكنيسة المصريّة وسط تراشق أساقفتها بالحرمان، ممّا سوف يؤدّي إلى إحداث ذلك الشرخ العظيم في الكنيسة الشرقيّة.

ففي منتصف القرن الرابع كان على الإسكندريّة أسقف يدعى ألكسندروس. وكان من كهنة تلك الأسقفيّة رجل يدعى آريوس ليبيّ المولد والمنشأ، وهو ممّن شايعوا ملاتيوس لبعض الوقت إلى أن ارتدّ فسيم شمّاساً. وعندما انتقد رئيسه في أمر الجاحدين قُطع، فعاد الى جناح ملاتيوس حيث سيم كاهناً. وبقي متنقّلاً بين جناح وآخر حتّى وثق به ألكسندروس، أسقف الإسكندريّة، وسلّمه بعض المهامّ، حتّى أصبح خادم كنيسة بافكاليس[1].

مهما كان موقف المرء من بدعة آريوس، فممّا لا شكّ فيه، بحسب المراجع التاريخيّة، أنّ آريوس كان عالماً زاهداً متقشّفاً. وقد تأثّر على ما يبدو بأفكار لوقيانوس المعلّم الإنطاكيّ الذي سبق وجاء الكلام عنه. وعلى الرغم من أنّ الآريوسيّة قد أضحت فيما بعد مذهباً واسع الانتشار، فإنّه لم يبقَ من تعاليم آريوس ما من شأنه أن يدلّ بشكل واضح وموثوق على دقّتها. وتقتصر المعلومات في الواقع على تلك المستقاة من ردود أهل الكنيسة على تعاليم آريوس، من هنا يمكن القول بأنّ محور تلك التعاليم هو التأكيد على وحدانيّة الآب وتخفيض منزلة الابن والروح القدس. وقد جاء في ملخّصات بعض الباحثين الأخصّائيّين أنّ: «الآب

١ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ١٩٢ عن: Bardy G. Origines de l'Arianisme, Fliche et Martin, III, PP. 69 - 71

وحده في نظر آريوس استحقّ لقب الإله. أمّا الابن فلم يكن سوى إله ثانويّ منخفض في الرتبة والمنزلة مخلوق من العدم بإرادة الآب، متميّز عن سائر المخلوقات في كونه صورة الله الآب في جوهره وإرادته وقدرته ومجده. والثالوث في نظر آريوس ثلاثة في الأقنوم، ولكنّهم ليسوا واحداً الاّ باتّفاق المشيئات[1]».

كان أوّل من التفّ حول آريوس الذي يجيد الوعظ والإرشاد عذارى الإسكندريّة اللواتي اشتهرن بالعمل الصالح وبكونهنّ فخر كنيسة مصر في تلك الحقبة من التاريخ، إضافة الى عدد من المؤمنين، وعدد آخر كبير من رجال الإكليروس الذين: «آثروا الإصغاء إليه رغم اختلاف تعاليمه عن تعاليم الأسقف رئيس كنيسة الإسكندرية[2]». إلا أنّه في الوقت نفسه برز معترضون من المؤمنين على تعاليم آريوس الجديدة، ممّا حدا أسقف الإسكندريّة على دعوة الطرفين لمناقشةٍ علنيّةٍ حول موضوع الخلاف.

كان هذا النقاش بمثابة بدء الانشقاق. فقد استمسك آريوس برأيه في الآب والابن والروح القدس، بينما استمسك خصومه بولادة الابن من الآب قبل كلّ الدهور، وبمساواة الابن للآب في الجوهر. وإذ أصغى ألكسندروس، أسقف الإسكندريّة، الى آراء الطرفين، قال برأي خصوم آريوس آمراً هذا الأخير بأن يقول هذا القول وبأن يمتنع عن أيّ تعليم مخالف. ولكنّ آريوس رفض أمر سيّده ممتنعاً عن الطاعة، فرأى الأسقف الإسكندري نفسه مضطرّاً إلى عقد مجمع محلّيّ حضره مئة من أساقفة مصر، شجب ثمانية وتسعون منهم أقوال آريوس. ممّا أدى الى صدور قرار قطع عن ذلك المجمع لآريوس والأسقفَين اللذين امتنعا عن شجب أقواله[3]. وكان، خارج نطاق هذا المجمع، عدد كبير من أساقفة الشرق، يؤيّد رأي آريوس،

١ - Bardy G., III, PP. 72 - 73

٢ - Epiphane Haeres, LXIX, 3; Athanisius, Contra Arian. I, 8

٣ - Socrates, Hist. Ecc. I, 6

بين هؤلاء أساقفة كلّ من: نيقوميذيا الإنطاكيّة، قيصريّة فلسطين، بيسان، اللدّ، صور، بيروت، اللاذقيّة، وعين زربة القيليقيّة[1].

وهكذا ظهرت في الشرق بوادر الانشقاق العظيم، وراح كلّ من الطرفين يسعى لكسب تأييد قسطنطين لموقفه، وراح آريوس يجوب الأسقفيّات الشرقيّة مكتسباً تأييد أساقفتها، كما راح هؤلاء الأساقفة بما لديهم من نفوذ وصلات مع الأمبراطوريّة، يدعمون آريوس ضدّ خصومه. وعُقدت مجامع محلّيّة في إنطاكية ومحيطها أيّدت آراء آريوس[2]. وقد واجه أسقف الإسكندريّة ألكسندروس هذا النشاط الآريوسيّ بمراسلة الأساقفة خارج مصر داعياً الى وحدة الكنيسة الجامعة[3]. وقد طالت رسائله، إضافة الى أساقفة الشرق، بابا رومة. ويمكن القول إنّ الربع الأوّل من القرن الرابع كان مسرح تراشق بالقطع والحرمان بين رؤساء الكنيسة، وبالنشرات والنشرات المضادّة، ممّا أزاح المسيحيّة عموماً في هذه المنطقة من العالم عن رسالتها الحقيقيّة إلى الصراعات الهدّامة في مختلف الأحوال. ذلك أنّ العامّة تحزّبت لكلّ من الطرفين، ودرجت في ذلك الحين الأغاني والأهازيج الغوغائيّة في أوساط الطبقات كافّة حتّى الأوساط السفلى منها التي نقلت الصراع الى الشارع[4]. ممّا أدى الى غضب قسطنطين الذي لم يدرك، بسبب سطحيّة معلومات مستشاريه، أهمّيّة النزاع لناحية العقيدة المسيحيّة. فراح يرسل أتباعه إلى الإسكندريّة في محاولة لحلّ النزاع حبّيّاً، داعياً إلى إقرار السلم والتساهل. بيدَ أنّ المسألة كانت أخطر من ان تُحلّ حبّيّاً كما أراد قسطنطين.

وسط هذه الأجواء عُقد المجمع الإنطاكيّ الرابع الذي حضره ستّة وخمسون

١ - Bardy G., Recherches sur St. Lucien d'Antioche, PP. 223 - 228; Epiphane, Haeres, LXIX, 6

٢ - Sozomène, Hist. Ecc. I, 15

٣ - Alexandre d'Alexandrie, Epist. Encyc. Apud. Socrates, Hist. Ecc., I, 6

٤ - Philostorge, Hist. Ecc., II, 2; Usebe, Vit. Con., I, 61

أسقفاً، وقد صدر عنه قرار جاء فيه أنّهم يقولون بـ: «إله فائق القدرة، أزليّ، لا يتغيّر، خالق السماء والأرض وكلّ ما يوجد، وبربٍّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور[1]». وقد قطع المجمع أساقفة ثلاثة يترأسون كلاً من قيصريّة فلسطين واللاذقيّة وبانياس لمدّة معيّنة بسبب اعتراضهم على قراره. وأقرّ رسالة سلاميّة وجّهها الى بابا رومة وعدد من رؤساء الكنائس والأساقفة.

نتيجة استشراء الخلافات داخل الكنيسة، تدخّل الأمبراطور قسطنطين ودعا جميع الأساقفة في الأمبراطوريّة إلى الاجتماع في نيقية، حيث عُقد المجمع سنة ٣٢٥، وحضره حوالى ثلاثمئة أسقف من كافّة أنحاء المسكونة. لذلك عُرف بالمجمع المسكونيّ، وهو أوّل مجمع مسكونيّ في التاريخ.

بدأ المجمع المسكونيّ الأوّل أعماله في ٢٠ أيار (مايو) ٣٢٥، وقد افتتحه الأمبراطور قسطنطين بقوله إنّه: «يشكر لملك الكون نعمه الكثيرة خاصّة تلك التي سنحت له أن يرى الأساقفة مجتمعين بفكر واحد وقلب واحد». وقال إنّه: «بقدرة الملك المخلّص تمكن من القضاء على الطغاة الذين قاوموا الله». وإنّه: «يعتبر كلّ شغب في داخل الكنيسة مساوياً في الخطر لحرب شاملة[2]».

أسفر نقاش بدعة آريوس في المجمع المسكونيّ الأوّل عن صدور قانون الإيمان النيقاويّ الذي أيّدته الأكثريّة الساحقة من أساقفة المجمع، ووافق عليه قسطنطين من هذا المنطلق، بينما عارضه أساقفة شرقيّون كانوا يؤيّدون آريوس. وقد نصّ القانون النيقاويّ على الـ «نؤمن» التي لا يزال المسيحيّون، في الكنيستين الشرقيّة والغربيّة، يتلونها صلاة بحرفيّتها حتّى اليوم. وحرم الآباء آريوس وأتباعه وأيّدهم قسطنطين في ذلك حاكماً على آريوس بالنفي.

١ - Schwartz E., Gesch. D Athaniasius, VI

٢ - Usebe, Vit. Con., III, 12

رغم هذا بقيت بدعة آريوس تتفاعل، وتركّز الخلاف بين أتباعه والكنيسة الجامعة على «المساواة في الجوهر»، ممّا حدا قسطنطين نفسه على أن يُنذر أولئك الخارجين بسوء العاقبة. إلاّ أنّ بعض الأساقفة الآريوسيّين المستترين تمكّنوا من التغلغل في البلاط عن طريق قسطنديا أخت قسطنطين، ممّا أعطى الآريوسيّة ليس فقط إمكانيّة البقاء في الكنائس الشرقيّة، لا بل إمكانيّة إعادة تنظيم نفسها واستعادة المبادرة لمهاجمة الكنيسة الجامعة، وراح هؤلاء يحيكون المؤامرات ضدّ أساقفة الكنيسة الجامعة وقد نجحوا في بعضها، حتّى عاد الشقاق ليعصف بالكنيسة كما من ذي قبل. فعاد الأمبراطور قسطنطين للتدخّل محاولاً التوحيد. ولكنّ أساقفة إنطاكية توجّسوا خيفة من تدخّل السلطة في شؤون الكنيسة، فسارعوا الى اتّخاذ قرارات لوضع حدّ لهذا التدخل. ويبدو أنّ هذا الموقف أغاظ قسطنطين الذي أمر بإعادة آريوس من منفاه الى وطنه شرط أن يعترف هذا الأخير بالدين القويم. وبالفعل، فقد عاد آريوس ومثَل بين يدي الأمبراطور «وأكّد أورثوذكسيّته، واعترف بأنّ الابن مولود من الآب قبل كلّ الدهور، ولكنّه لم يقل شيئاً عن المساواة في الجوهر[1]» فأحاله الامبراطور على مجمع انعقد في صور سنة ٣٣٥.

في هذه الأثناء بلغ الشغب في كنيسة مصر حدّاً لا يصدّق. إذ راح أتباع آريوس يتّهمون أسقف الإسكندريّة أثناسيوس، الذي أصبح قدّيساً فيما بعد، بأنّه أمر بكسر كأس الأفخارستيّة لأحد الكهنة، وبأنّه فرض الضرائب على المؤمنين، حتّى إنّهم اتّهموه بقتل أرسانيوس أحد أساقفتهم. هذه الأحاديث أزعجت الأمبراطور قسطنطين إلى حدّ أنّه أرسل أخاه درماتيوس الى الإسكندريّة للتحقيق شخصيّاً في هذه الاتّهامات. وإذا به يجد أرسانيوس حيّاً يرزق في أحد الأديرة. وتأكّد في الوقت نفسه من براءة أسقف الإسكندريّة من كلّ التهم الموجّهة إليه، فاكتفى قسطنطين بتعنيف المشاغبين وبتوجيه اللوم إليهم[2].

١ - Sozomène, Hist. Ecc., II, 27; Socrates, Hist. Ecc., I, PP. 25 - 26

٢ - راجع: Bardy G., Politique relig. de Constantin après le concil de Nicée, Rev. Sc. relig. (1928) No 2, P. 538; St. Athanase, Apologia contra Arianos, Let. 44, 47
رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢١١ - ٢١٢

عندما انعقد مجمع صور تآمر خصوم أسقف الإسكندريّة حتّى استحصلوا على قرار من المجمع يقضي بإرسال لجنة الى الإسكندريّة للتحقيق في الاتّهامات الموجّهة ضدّ أسقفها أثناسيوس الذي كان حاضراً المجمع. وقد قبل أثناسيوس بذلك شرط أن يكون أعضاء اللجنة من غير خصومه. إلاّ أنّ المتآمرين تمكّنوا من جعل المجمع يوفد الى مصر أساقفة آريوسيّين تألّفت منهم لجنة تحقيق مغرضة كان من الطبيعيّ أن تقدّم تقريراً يدين أثناسيوس، الذي اشتدّت الدعاية في صور نفسها ضدّه نتيجة ذلك التحقيق المغرض، ممّا أثار المؤمنين العامّة، فتوافدوا إلى قاعات المجمع متّهمين أثناسيوس بالسحر والقساوة مطالبين بمعاقبته. وفيما كان مبعوثو الأمبراطور يحثّون أعضاء المجمع على الاتّزان والاعتدال، توجّس أثناسيوس خيفة من نتائج المؤامرة، فانسلّ من صور خفية وانتقل الى القسطنطينيّة، ممّا جعل المجمع يصدر بحقّه حكماً غيابيّاً قضى بعزله من منصبه. وفي القسطنطينيّة تمكّن أثناسيوس من مقابلة قسطنطين الذي أصغى الى شكواه. وإذ استدعى الأمبراطور الأساقفة المجتمعين في صور لاستيضاحهم حقيقة الأمر، جاء بعض هؤلاء ولفّقوا ضدّ أثناسيوس تهمة جديدة، كان من شأنها ان تُغضب الأمبراطور ضدّ اللاجئ الى عدله، فحواها أنّ أثناسيوس هدّد بمنع تصدير الحنطة من الإسكندريّة الى القسطنطينيّة. فأمر قسطنطين بإبعاد أثناسيوس ونفيه إلى تريف في غاليّة[1].

بالنسبة لآريوس لم نجد في المراجع قراراً واضحاً صدر عن مجمع صور بهذا الشأن، ولكنّ المدوّنات تذكر أنّ مصر لم ترض عن أعمال المجمع الصوريّ، وأنّ القديس أنطونيوس الكبير[2] قد كتب الى قسطنطين مراراً يرجوه العفو عن تلميذه

١ - راجع: Sozomène, Hist. Ecc., II, 25; St. Athanase, Apolog. Contra Arianos, PP. 86 - 87; Socrates, Hist. Ecc., I, 34

٢ - القديس انطونيوس الكبير (حوالى ٢٥٠ - ٢٥٦)؛ وُلد في مصر. ابو الرهبان وتلميذ باولا أول الحبساء. تنسك في الصعيد فجذب الكثيرين الى الحياة النسكية فانتسبوا إليه في قوانينها.

أثناسيوس وإعادته الى أبرشيّته، غير أنّ قسطنطين كان يرى أنّه لا يعقل إجماع عدد كبير من الأساقفة المتنوّرين الحكماء على إدانة بريء، وأنّ أثناسيوس كان في نظره وقحاً متعجرفاً مشاغباً[1].

على صعيد آخر، رفض شعب الإسكندريّة تحمّل هذا الجور، فاشتعلت نار الفتنة في مصر ضدّ عودة آريوس إليها، بينما حاول الآريوسيّون إقناع أسقف القسطنطينيّة الجديد ألكسندروس بأن يقبل آريوس في الشركة، ولكنّ هذا الحبر رفض قبول آريوس قطعاً، وعندما أمره قسطنطين بذلك دخل الكنيسة وجثا أمام المذبح باكياً مبتهلاً. ويذكر بعض المدوّنات أنّه لمّا اجتمع أشياع آريوس ليُدخلوا زعيمهم الى الكنيسة «اضطرب آريوس وتنحّى عن القوم لقضاء حاجته... فاندلقت منه أحشاؤه ومات فوقها[2]».

كان ذلك سنة ٣٣٦. وبعد أن لفظ آريوس أنفاسه بعام، مات قسطنطين الذي خسرت برحيله الكنيسة المدافع القويّ عنها. وخلفه في حكم الأمبراطوريّة أولاده الثلاثة الذين تصارعوا فيما بينهم، فقُتل اثنان منهم وبقي قسطنديوس الثاني المالك وحيداً.

أبرز ما فعله الأمبراطور الجديد بالنسبة لخلافات الكنيسة أنّه أذن لأثناسيوس بالعودة من منفاه الى الاسكندريّة في السابع عشر من حزيران (يونيو) سنة ٣٣٧، كما شمل العفو سائر الأساقفة المنفيّين.

كان لوصول أثناسيوس إلى الإسكندريّة في الثالث من تشرين الثاني (نوڤمبر) ٣٣٧ فعل الاضطراب في الوسط الآريوسيّ. فراح الآريوسيون يسعون في الشرق والغرب لتنصيب أسقف منهم على الإسكندريّة. وبعثوا وفداً الى رومة لإقناعها بمناصرتهم. غير أنّ الأساقفة الأورثوذكس المصريّين عقدوا مجمعاً محلّيّاً

١ ـ Sozomène, Hist. Ecc. II, 31

٢ ـ St. Athanase, Epist. De morte Arii. Epist. Ad episcopos aegypti et Libyae.

سنة ٣٣٨ أيّدوا فيه أسقفهم أثناسيوس، وحرّروا رسالة سلاميّة إلى يوليوس بابا رومة وجميع أساقفة المسكونة وإلى الأباطرة الثلاثة خلفاء قسطنطين الذين كانوا لا يزالون أحياء[1].

سارع البابا يوليوس[2] إلى دعوة أثناسيوس الى رومة، وبعث الى الشرق وفداً يدعو الأساقفة الآريوسيّين وسواهم الى مجمع مسكونيّ في رومة للبتّ في المسألة. فرفض الأساقفة الآريوسيّون طلب رومة معتبرين أنّ المسألة شرقيّة وقد بتّ فيها مجمع شرقيّ، هو مجمع صور، مهدّدين بقطع العلاقات مع رومة إن هي اعترفت بأثناسيوس[3].

جاء ردّ رومة على الآريوسيّين عنيفاً، إذ بيّن يوليوس وجوب اطلاع جميع الأساقفة على القرارات المتّخذة ليشترك الجميع في إحقاق الحقّ.

توفّي البابا يوليوس دون أن يتمكّن من إعادة أثناسيوس الى دياره. وتولّى الكرسي الرسوليّ بعده ليباريوس (٣٥٢ ـ ٣٦٦) فاهتمّ هو الآخر بقضيّة أثناسيوس، وعبثاً حاول مع الأمبراطور قسطنديوس أن يدعو أساقفة الكنيسة الجامعة إلى مجمع في أكويلية للنظر في قضيّة أثناسيوس، ذلك أنّ الأمبراطور كان مهتمّاً بكسب تأييد الآريوسيّين في الشرق لأنّهم كانوا قد أصبحوا أكثريّة راجحة. وفي النهاية دعا قسطنديوس الأساقفة الغربيّين فقط الى مجمع عُقد في ميلان مطلع السنة ٣٥٥ حيث خيّرهم بين نبذ أثناسيوس أو نفيه، فوافق معظمهم على أهون الشرّين: النبذ. إلا أنّ البابا ليباريوس بقي مصراً على تأييد أثناسيوس الذي أُبعد بأمر الأمبراطور الى تراقية[4].

وعندما أرسل الأمبراطور بارجة حربيّة إلى الإسكندريّة لنقل أثناسيوس إلى

١ ـ St Athanase, Apologe. Contra Arianos, 3 - 19, 87, 19.

٢ ـ يوليوس الأول الذي اصبح فيما بعد قديساً. عاش (٢٨٠ ـ ٣٥٢) ولد في رومة. بابا (٣٣٧ ـ ٣٥٢)

٣ ـ Bardy G., Réaction, III, PP. 118 - 119; Sozomène, Hist. Ecc., III, 8

٤ ـ Bardy G. Variations, III, 138 - 147

الغرب، إمتنع هذا الأخير، فأرسل الأمبراطور فرقة عسكريّة لاعتقاله، صدّها المصلّون، وحصلت مقاومة عنيفة علت بخلالها أصوات العذارى الصالحات حول كنيسة الإسكندريّة حيث بقي أثناسيوس جالساً في كرسيه لا يأتي بحركة، إلى أن رأى وجوب الفرار، فانسلّ من الكنيسة هارباً نحو الصحراء الغربيّة لاجئاً إلى رهبانها الذين أحسنوا استقباله وحموه، فراح يصنّف ويكتب. وتوفّي هذا البطريرك الجليل: أثناسيوس الإسكندريّ، في العام ٣٧٣ فخسرت الكنيسة أحد آبائها، بعد أن حارب الآريوسيّة بصلابة، فنفي خمس مرّات دون أن يحيد عن استقامة معتقده. وفي ملجأه كتب حياة القديس أنطونيوس والعديد من المؤلّفات اللاهوتيّة. بينما استمرّت الآريوسيّة ببدعتها تحتلّ كنيسة الشرق التي بقيت في حال من الارتباك والصراع طوال قرن بكامله بسبب بدعة آريوس، التي لم ينتهِ أمرها في الشرق قبل نهاية القرن الرابع، لتستمرّ عند القوط واللومبرد حتّى القرن السابع حيث انقرضت تماماً.

وبالإمكان القول إنّ بدعة آريوس قد أحلّت بالكنيسة الشرقيّة نكبة أضعفتها، إضافة الى ما مهّدت له من بدع سوف تظهر فيما بعد لتُحدث مزيداً من الانشقاقات داخل الكنيسة، ولتشرذم مسار المسيحيّة بشكل متواصل دونما انقطاع.

مسألة الدستور المؤرّخ

بينما كانت الانقسامات تعصف بالكنيسة الشرقيّة، كانت الأمبراطوريّة نفسها عرضة للانشطار. فبسبب الصراع على السلطة تعاقبت الانفصالات بين شطرَي الأمبراطوريّة: الغربيّ والشرقيّ، أكثر من مرّة، وحكمهما أباطرة مختلفون. إلى أن حصل الانقسام النهائيّ سنة ٣٩٥ «حين توفي ثيودوسيوس الكبير وخلفه أبناء: هونوريوس واركاديوس، الواحد على الغرب والآخر على الشرق. وكان

ثيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) آخر أمبراطور على الأمبراطوريّة الواحدة. ومنذ ذلك الحين وُجدت أمبراطوريّة رومانيّة شرقيّة كان النجاح حليفها، بينما كان الفشل نصيب شقيقتها في الغرب، وأخيراً سقطت رومة في ٤٧٦ بنتيجة هجمات القبائل الجرمانيّة. وقد كسب ثيودوسيوس لقب الكبير لصموده الباسل أمام القوط ولدعمه المسيحيّة الخالية من البدع. واعتنق جميع خلفاء قسطنطين، باستثناء يوليان وحده (٣٦١ ـ ٣٦٣) الدين المسيحيّ[1]».

يوليان هذا لُقّب بيوليانوس الجاحد. وهو ابن أخت قسطنطين الكبير. نودي به أمبراطوراً سنة ٣٦١، وهو من مواليد القسطنطينيّة سنة ٣٣١. أمّا سبب تلقيبه بالجاحد فيعود إلى أنّه جحد الإيمان المسيحيّ وشجّع الوثنيّة. وقد أطلق المسيحيّون عليه هذا اللقب لكثرة ما سبّب لهم من اضطهادات. وكانت نهايته قتيلاً في إحدى المعارك مع الفرس.

منح يوليانوس حرّيّة المعتقد لأوّل مرّة بعد قسطنطين. وقد كان هدفه من ذلك إطلاق الوثنيّة التي نشط أتباعها من جديد. وقد أنّب يوليانوس أهل إنطاكية الذين كانوا قد أصبحوا بأكثريّتهم الساحقة مسيحيّين لعدم تقديمهم القرابين لأبولون بمناسبة ذكراه. وأكرم الفلاسفة الوثنيّين فيها، ورقّى وجهاء الوثنيّة إلى أعلى المراتب، وأقدم على التنكيل برفاة القدّيسين فأخرجها من قبورها، فردّ المسيحيّون في إنطاكية بأن أحرقوا هيكل أبولون. فأقفل الأمبراطور كنيسة إنطاكية الكاتدرائيّة وأمر بنهبها وتدنيسها. فكسر المسيحيّون تماثيل الآلهة[2]. وقد أعمل هذا الأمبراطور الجاحد السيف في رقاب الكهنة والعذارى في غزّة وعسقلان، ورمى بأجسادهم إلى الخنازير لتدوسها: «وفي بانياس أنزل تمثالاً للسيّد المخلص عن قاعدته وحطّمه تحطيماً وأقام محلّه تمثالاً لنفسه. وأحرق كنيسة بيروت.

١ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٨٨
٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢٣٩

وبعهده أشعل اليهود النيران في كنيستين من كنائس دمشق. ولقي شمّاس بعلبك حتفه لأنّه كان قد اجترأ في عهد قسطنطين على قلب الأصنام. وأُحرقت قبور المسيحيّين في حمص التي حُوّلت كنيستها الى هيكل لباخوس. وفي حماة أقيم تمثال لباخوس على مذبح الكنيسة[1] ». ويظهر التعاطف واضحاً بين اليهود وهذا الأمبراطور الجاحد الذي أمر بإعادة بناء هيكل أورشليم. وقد تمّ على يد اليهود بإشراف أحد أمناء الأمبراطور حفر أساسات الهيكل لإعادة بنائه، على أنّه فور انتهائهم من ذلك حدثت زلزلة عظيمة هدمت الأبنية المجاورة وقتلت بعض الفعلة وأعادت ردم الأساسات[2]. كان ذلك قبل مقتل يوليانوس الجاحد في ربيع سنة ٣٦٣ بقليل. وقد ذكر بعض المدوّنات أنّ فارساً مسيحيّاً من فرسانه اغتاله خلال معركته مع الفرس انتقاماً لاضطهاده للمسيحيّين.

وكان هذا الأمبراطور الجاحد قد عمل على زيادة الشرخ في الكنيسة، فأعاد جميع الأساقفة المنفيّين الى بلدانهم، ممّا أجج الصراع بين الكنيسة المستقيمة وأصحاب البدعة الآريوسيّة. بيدَ أنّ الأمر قد عاد ليستقيم بعض الشيء في عهد يوفيانوس الذي خلف يوليانوس، وقد كان مسيحيّاً مستقيم الرأي، فما أن تسلم الحكم حتى دعا أثناسيوس الكبير إلى إنطاكية، فوصلها في خريف ٣٦٣ ومنها عاد إلى الإسكندرية. ورغم محاولات هذا الامبراطور لإعادة اللحمة الى كنيسة إنطاكية، فقد بقيت منشقّة يرئسها اثنان: أحدهما مستقيم الرأي والثاني آريوسيّ. وإذ مات يوفيانوس بعد سنة من الحكم طال الانشقاق الأمبراطوريّة نفسها إذ حكم ڤلنتنيانوس الغرب (٣٦٤ ـ ٣٧٥) وأخوه ڤلنس الشرق (٣٦٤ ـ ٣٧٨) فأصبحت بذلك الأمبراطوريّة دولتين: شرقيّة وغربيّة.

حاول ڤلنس أن يجد حلاً للشقاق الذي عمّ كنيسة الشرق بأسرها فوجد في «الدستور المؤرّخ» ما من شأنه أن يكوّن ذلك الحلّ الوسط.

---

١ ـ المرجع السابق.
٢ ـ Philostorge, Hist. Ecc., VII, PP. 8 - 14

ذلك أنّه في العام ٣٥٩ كان قد عُقد مجمعان كنسيّان في وقت واحد بالتنسيق بين أساقفة الشرق والغرب: أحدهما شرقيّ عُقد في سلفكيّة بالقرب من الساحل القيليقيّ، والثاني غربيّ في رميني على شاطئ الأدرياتيك الإيطاليّ. ونوقش في المجمعين دستور إيمان جديد عُرف فيما بعد بالدستور المؤرّخ، لأنّ الأسقف الذي أعدّه، وهو مرقس أسقف أرسوز، بدأ النصّ بالإشارة الى موافقة الأمبراطور قسطنديوس وإلى السنة والشهر واليوم التي تمّت فيها هذه الموافقة.

نصّ الدستور المؤرّخ على التشابه في الجوهر بين الآب والابن، ممّا من شأنه بنظر واضعه والأمبراطور، أن يشكّل حلاً للخلاف بين الكنيسة المستقيمة والآريوسيّين حول مسألة الجوهر. وبينما أقرّ المجمع الغربيّ هذا الدستور تحت ضغط واضح من قبل الأمبراطور، أنهى المجمع الشرقيّ أعماله دون إقراره. ويبدو أنّ الأمبراطور لم ييأس، ممّا حقّق عقد مجمع في القسطنطينيّة سنة ٣٦٠ حضره ممثّلو المجمعين، وتمّ بخلاله إقرار الدستور المؤرخ الذي قال: «بالتشابه في الجوهر كما في الكتب». ونبذ المجتمعون «التخالف في الجوهر» وحرّموا استعمال اللفظين اللذين أثارا الجدل: "Ousia و Hypostasis" «مستعيضين عنهما بكلمة Omoios[1] ».

هذا هو «الدستور المؤرّخ» الذي حاول ڤلنس توحيد الكنيسة حوله. وكان الأمبراطور قسطنديوس قد جعل من هذا «المؤرّخ» دستوراً رسميّاً للدولة. وقد سار ڤلنس على خطى قسطنديوس فأمر بإعادة إبعاد الأساقفة الذين أقصاهم قسطنديوس عن مراكزهم وأعادهم يوليانوس اليها كما سبق وأشرنا. وإذ ظهرت بوادر معارضة لاعتماد «الدستور المؤرّخ» من قبل بعض أساقفة الشرق، منع الأمبراطور هؤلاء من عقد مجمع كانوا ينوون تنظيمه في طرسوس ليخرجوا منه بقرار يقول بالمساواة في الجوهر وليس بالتشابه، غير أنّ انشغال الأمبراطور بحربه ضدّ القبائل القوطيّة سمح لأصحاب الرأي المستقيم بأن يجهروا بالعقيدة النيقاويّة من جديد، نابذين «الدستور المؤرّخ» متشبّثين بوحدة الجوهر، ممّا عرّضهم

---

١ ـ Bardy, G., Variations, III, PP. 169 - 170

للاضطهاد من قبل ڤلنس بعد عودته من حربه ضدّ القوط، فأعدم بعضهم بالسيف «وألقى القبض على بعضهم الآخر، وأبعدهم على قوارب في مياه البوسفور حيث أحـرقـوا[1]». وعادت الكنيسة لتدخل دورة اضطهاد جديدة، طُرد بخلالها المستقيمو الرأي من كنائسهم التي سُلّمت إلى أصحاب القول «بالدستور المؤرَّخ»، وصودرت أملاك المعارضين وأوقافهم ونُفي الأساقفة المؤمنون وكفّ الجيش الأمبراطوريّ عن محاربة الفرس والبرابرة منصرفاً الى تدنيس الكنائس والمذابح[2]، حتّى إنّ بعض المدوّنات يؤكّد أنّ الأمبراطور أمر بإغراق عدد من المؤمنين في العاصي بسبب تأييدهم للكنيسة المستقيمة الرأي[3].

هنا يلمع أحد آباء الكنيسة الكبار: باسيليوس القبدوقيّ (٣٢٩ ـ ٣٧٩) أسقف القيصريّة الجديدة الذي واجه الأمبراطور بموقف رائع إذ قال له: «أيّ شيء ينتظرني منك؟. فإن لجأت الى المصادرة، فإنّك لن تجد عندي سوى بعض الكتب، وإن قلت بالنفي فإنّي غريب في هذا العالم، غريب أينما حللت. وإن أمرت بالتعذيب فإنّ هذا الجسد النحيل لن يلقى منك سوى ضربة واحدة. أمّا الموت فإنّه سيجعل لقائي بالربّ إلهي الذي من أجله أحيا وأتحرّك، ولأجله أصبحت نصف ميت، وللقائه أتلهّف منذ أمد بعيد[4]».

وعندما توجّه الأمبراطور ڤلنس نفسه يوم عيد العنصرة الى كنيسة قيصريّة وتقدّم إلى المذبح بهديّة، لم يتناولها منه أحد، فارتعد وارتعش، إلى أن تقدّم الاسقف باسيليوس وقبلها، فلانت صلابة الامبراطور وعامل باسيليوس معاملة طيّبة.

وعندما أراد الأمبراطور نفي باسيليوس مرض ابنه الوحيد وأشرف على الموت، فسارع حينها طالباً من باسيليوس أن يصلّي على ولده. فقبل الأسقف

١ - Sozomène, Hist. Ecc., VI, 14

٢ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢٤٧؛ St Gregoire, orat. 20, 25

٣ - Socrates, Hist. Ecc., IV, 17

٤ - St. Gregoire de Nazianze, Orat. XX, PP. 49 - 50

شرط أن يعمَّد الولد عمادة أورثوذكسيّة. وبذلك تعافى الولد. ثمّ عمّده أسقف آريوسيّ فمات حالاً. فغضب الأمبراطور وأخذ القلم ليحرّر أمراً بنفي باسيليوس فانكسر. فبراه فانكسر، وهكذا للمرّة الثالثة، فارتجف الأمبراطور ومزّق الصكّ[1].

سعى باسيليوس جاهداً للتقريب والتعاون بين كنيستي رومة وإنطاكية، وراسل مع عدد من أساقفة الشرق أساقفة إيطالية وغالية راجياً تدخّل أساقفة الغرب لإنقاذ الكنائس الشرقية من كبوتها، إلاّ أنّ باسيليوس الكبير قد توفي مطلع العام ٣٧٩ دون أن تتحقّق رغبته. وبعد انتقاله من هذه الفانية بسنتين، كان المجمع المسكونيّ الثاني الذي انعقد في القسطنطينيّة سنة ٣٨١ بحضور ١٤٨ أسقفاً وأباً من عظماء رجال الكنيسة، انسحب بعد بداية المجمع بقليل الآريوسيّون ولم يبقَ فيه سوى مستقيمي الإيمان. وقد نتج من هذا المجمع المسكونيّ الهام تثبيت الدستور النيقاويّ بعد إضافة بعض الفصول إليه[2]. وإذ حرّر الأساقفة رسالة إلى الأمبراطور، وكان يومها فيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) الذي كان يسوس كامل الأمبراطوريّة، شكروا له عبرها دفاعه عن الإيمان القويم وسعيه لتوطيد السلم بين الكنائس، أصدر الأمبراطور براءة جديدة مؤرّخة في الثلاثين من تموز (يوليو) سنة ٣٨١، أوجب بها إعادة الكنائس الى الكاثوليكيّين الاورثوذكسيّين. وبذلك انتهت مسألة «الدستور المؤرَّخ»، كما أمر الأمبرطور بطرد الآريوسيين من إنطاكية.

مسألة ابولينارس وسائر البدع

لم تكن البدعة الآريوسيّة التي شقّت الكنيسة محدثة فيها ذلك الشرخ العظيم، البدعة الوحيدة التي ظهرت في ذلك التاريخ من زمن الكنيسة، بل كان

١ - المطران ساويريوس يعقوب، الكنيسة السريانية الانطاكية، ج ١، ص ٢٤٨؛ Bardy G., Declin, III, PP. 260 - 261

٢ - Schwartz. P., zeitschrift fur Neutestament, (1926), PP. 38 - 88

المجال يومها واسعاً للاجتهادات في طبيعة المسيح وفي تحديد لاهوته وناسوته وفي الكثير من الشؤون المتَّصلة به، وكان كلٌّ من تلك الاجتهادات يسبّب خلافات ويتسبّب في اجتهادات مضادّة، حتّى كثرت البدع والهرطقات وتناولت أموراً لم تكن مطروحة من قبل، إلى أن طاولت صفة مريم العذراء: ام الله، وقد أحدثت هذه الصفة بحدّ ذاتها مشكلة داخل الكنيسة.

ففيما أكّد آريوس على الطبيعة البشريّة للمسيح، وبينما كانت الكنيسة المستقيمة الرأي تناضل لصدّ بدعة آريوس بعد أن أصبح انتشارها خطيراً، وكردّ فعل ضدّ الآريوسيّة ومفهومها هذا «أكّد أپوليناُرس، أسقف أُوديسَّة (توفّي حوالى ٣٠٩) أنّه بينما كان للمسيح جسد بشريّ حقيقيّ وروح بشريّة حقيقيّة، فإنّ الكلمة (Logos) تحتلّ في شخصه المقدس مكان النفس التي هي أسمى جزء في الإنسان. واتضح أنّ أپوليناُرس كان يستخدم في تفكيره المبدأ الأفلاطونيّ الحديث القائل بأنّ الطبيعة البشريّة مركّبة من ثلاثة عناصر: جسد، وروح (تبعث النشاط) ونفس (تجعل الإنسان عاقلاً ومختلفاً عن الحيوانات[1])...».

وقد قال أپوليناُرس بنقص في طبيعة المسيح البشريّة، فعلّم أنّ اللاهوت في المسيح قام مقام العقل في الإنسان. ولمّا عقدت الكنيسة الجامعة المجمع المسكونيّ الثاني وأدانت أپوليناُرس مؤكّدة على حقيقة كمال ناسوت المخلّص، أهملت تعيين جوهر العلاقة بين الطبيعتين الالهيّة والبشريّة في المسيح، ومسألة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، ممّا أدّى الى اجتهادات في التفسير. وإذ كانت التعاليم غير موحّدة ومنّسقة بين مدارس الكنائس إن في الشرق أم في الغرب، وكان لكلٍّ منها نهجها الخاصّ في التعليم وفي استعمال التعابير، فقد أدّى ذلك إلى فتح المجال واسعاً أمام مزيدٍ من البدع.

كانت بدعة أپوليناُرس الجبهة المواجهة تعاكساً لبدعة آريوس. كما كانت

١ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١، ص ٤١١

في الوقت نفسه ممهّدة لبدعة خطيرة جديدة سوف تؤدّي الى انشطار آخر في الكنيسة: النسطوريّة.

وتفيد المدوّنات بأنّ البدعة الأبولينارية، وإن كانت قد شغلت الكنيسة لبعض الوقت، إنّما هي بقيت هامشيّة نسبيّاً. وقد استحكم الخلاف بشكل بارز في إنطاكية بين الآريوسيّين والأپوليناريّين، خصوصاً حول طبيعة المسيح وحول مكانة مريم العذراء. كما تفيد بأنّ البطريرك الإنطاكيّ ثيودوتس (٤٢٤ ـ ٤٢٨[1]) قد حاول ردّ الأپوليناريّين عن ضلالهم، فعاد الى الأورثوذكسيّة حوالى نصفهم[2].

كذلك برزت بدع يصعب تحديدها والإحاطة بها جميعاً في ذلك الزمن المضطرب من تاريخ الكنيسة، منها البدعة المقدونيّة: صاحب هذه البدعة مقدونيوس بطريرك القسطنطينيّة. وهي على العموم فرع آريوسيّ. أنكر صاحبها لاهوت الروح القدس، فرذل بدعته المجمع القسطنطينيّ الأوّل سنة ٣٨١. ومنها بدعة نوڤاتيانوس التي عُرف معتنقوها بالنوڤاتيّين. ونوڤاتيانوس هذا كاهن رومانيّ كان قد أسس هذا المذهب سنة ٢٥١، وهو المذهب الذي تصلّب تجاه الخطأة كما سبق وجاء في مكان سابق من هذا البحث. والوالنتيّة التي اتّبع معتنقوها الأمبراطور الرومانيّ ڤلنس (٣٦٤ ـ ٣٧٨)، وهذه البدعة فرع آخر من الآريوسيّة. إضافة إلى المونتانيّة والمركيونيّة والبوربوريّة والأفخيتيّة والدوناتيّة، التي نُسبت إلى أسقف قرطاجة دوناتوس (حوالى ٣١٥) الذي تصلّب مع الخطأة، والتي أحدثت شقاقاً وفتناً كثيرة في إفريقية. والبولسيّة التي نُسبت إلى بولس السميساطيّ أسقف إنطاكية (٢٦٠ ـ ٢٧٢) والقائل بأنّ المسيح كان إلهاً بالتبنّي. والمركلوسيّة

١ ـ ثيودوتس: اسم يوناني: Theodotos ومعناه عطاالله. اختلف المؤرخون في تعيين مدة رئاسته بين (٤٢٤ ـ ٤٢٨) و (٤١٧ ـ ٤٢٩) و (٤١٨ ـ ٤٢٧). راجع:
Musset H., Histoire du christ.,I, 63; Constantius, Patriarchs of Antioche, P 43;
رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٠٦.

٢ ـ Theodoret, hist. Ecc., V, 37

والمانويّة نسبة الى ماني (٢١٥ ـ ٢٧٦) القائل بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشرّ، النور والظلام، غير أنّنا لا نرى مع بعض الباحثين أنّه من الجائز نسبة المانويّة الى المسيحيّة، بل قد يكون من الأصح اعتبارها من ديانات الشرق الأقصى.

مسألة نسطوريوس

ممّا يدعو الى الدهشة أنّ الذي سيكون، بعد آريوس، صاحب أخطر بدعة لاهوتيّة بعد الآريوسيّة، هو ذلك الذي بدأ حياته الأسقفيّة بمحاربة البدع كافة بشتّى الطرق والوسائل.

وُلد نسطوريوس Nestorius حوالى سنة ٣٨٠ في قيصريّة سورية من أبوين ليس واضحاً إن كانا سوريّين أو فارسيّين، وتتلمذ في إنطاكية إلى أن سيم كاهناً على مذابحها، واعتنى بتفسير الأسفار المقدّسة[1]، الى ان انتخب بطريركاً على القسطنطينيّة سنة ٤٢٨ بدعم من الأمبراطور البيزنطيّ ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠). وعندما احتُفل بتتويج نسطوريوس في العاشر من نيسان (إبريل)، خاطب الأمبراطور على مسمع من جمهور المحتفلين قائلاً: «أعطني بلاداً خالية من الهراطقة أقدّم لك السماوات بديلا. واستأصِل الهراطقة لنا نستأصل الفرس معك[2]».

وبالفعل، فقد استصدر نسطوريوس في الأسبوع الأوّل من ولايته حكماً من الأمبراطور قضى بإغلاق كنيسة الآريوسيّين في القسطنطينيّة. وقبل انقضاء شهرين من ولايته استصدر أمراً آخر قضى باقتلاع الهرطقة بجميع فرقها، فأُغلقت كنائس

١ ـ بشأن نسطوريوس راجع: Nauve. F., Naissance de Nestorius, Revue orientale chrétien (1909) PP. 424 - 426; Nauve, F., Analyse du traité écrit par Denys bar Salibi contre les nestoriens Revue orientale chrétienne (1909) P. 302; Brière M., Legende Syriaque de Nestoriuis No 19; Nauve, F., Héraclide de Damas, VI; Loofs F., Nestoriana, P. 171; Bardy G., Débuts du Nestorianisme, Fliche et Martin, IV, 166

٢ ـ Socrates, Hist. Ecc., VII, 29

الآريوسيّين والمقدونيّين والأپوليناريّين والنوڤاتيين والأڤنومـيّين والڤالانتينيّين والمونتانيّين والمركيونيّين والبوربوريّين والمصلّين والافخيتيّين والدوناتيّين والبولسيّين والمركلوسيّين ومعابد المانويّين وسواهم. وقد استُعمل العنف من أجل تنفيذ الإرادة الأمبرطوريّة ـ النسطوريّة، ممّا أدى الى وقوع جرحى وقتلى.

نسطوريوس هذا، الذي بدأ عهده عدوّاً للبدع، سوف يصبح أحد أسياد البدع.

لاحظ المؤمنون أنّ نسطوريوس كان يتحاشى ذكر عبارة «مريم، والدة الإله». ولمّا نشب الجدل بين أحد كهنته: أناستاسيوس، والآريوسيّين حول «والدة الإله» وكان اناستاسيوس يقول بأنّ مريم بشر وكبشر لا يمكنها أن تلد إلهاً، ولذا فإنّه لا يجوز القول عنها إنّها والدة الإله، أبى نسطوريوس أن يلوم كاهنه. وعندما حرّم أسقف مركيانوپولس: دوروثيوس، إستعمال صفة «والدة الإله» سكت نسطوريوس عن هذا التحريم دون أن يلوم دوروثيوس، الى أن ردّ نسطوريوس على لائميه بأنّ صفة «والدة الإله» غير واردة في الأسفار المقدّسة ولا في كلام الآباء في نيقية.

برزت بدعة نسطوريوس واضحة عندما قال بـ «طبيعتين في المسيح»: طبيعة ابن الله المساوي للآب في الجوهر، وطبيعة الإنسان المولود من العذراء، مستنداً في اعتباره هذا الى قول نيقاويّ جاء فيه: «إنّ ابن الله تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء». وهكذا بدأت بدعة نسطوريوس الذي اقترح استبدال قول «والدة المسيح» بقول «والدة الله».

وإذ اعتبر نسطوريوس أنّ الشخص الإلهيّ في المسيح هو الكلمة (Logos) فقد ظهر تأثّره واضحاً بأپوليناريس الذي سبقه إلى هذا الاعتبار قبل أربعين سنة.

بينما كان نسطوريوس في طريقه الى القسطنطينيّة لمّا دعاه الأمبراطور ليعيّن بطريركاً عليها، عرّج على معلّمه القديم ثيودوروس الأسقف الشيخ الحكيم،

فأقام عنده في موبسوستي لبعض الوقت، وتقول الرواية أنّ هذا المعلّم الشيخ قال لتلميذه نسطوريوس وهو يودعه: «... إنّي أعرفك يا بني، لم تلد امرأة رجلاً أشدّ حماساً منك... ولكن... عليك بالاعتدال إذا أردت النجاح في معالجة الاختلافات في الرأي[1]». ولكن يبدو أنّ نسطوريوس قد نسي وصيّة معلّمه.

هذا البطريرك الإنطاكيّ الذي كان عدوّاً للبدع، تطرّف في تعاليمه القائلة بالطبيعتين إلى حدّ أصبح يقول عنده بـ «شخصين أو أقنومين». ولقد هال المسار اللاهوتيّ لنسطوريوس الأوساط المستقيمة الرأي في إنطاكية، إلى أن اتّهمه بعض علماء اللاهوت بأنّه من أتباع بولس السميساطيّ، ويبدو أنّ معلّم نسطوريوس كان يعرف تلميذه جيّداً إذ حاول ضبط حماسه يوم أسدى إليه النصيحة، ذلك أنّ هذا الأخير ذهب في حماسه لرأيه إلى حدّ أنّه أمر بضرب الرهبان الذين احتجّوا على تعاليمه، وحتّى إلى حرم جميع الذين لم يقولوا قوله.

كان أوّل من تصدّى لنسطوريوس، كيرلّوس (٤١٢ ـ ٤٤٤) أسقف الإسكندريّة، إن على صعيد الطبيعتين أم على صعيد «والدة الإله». وإذ وصلت أصداء بدعة نسطوريوس إلى رومة دعا البابا قليستينس الأوّل (٤٢٢ ـ ٤٣٢) إلى مجمع محلّيّ عقد في صيف سنة ٤٣٠ فاعتبر تعاليم نسطوريوس غير قويمة. وقد كتب البابا بذلك الى أساقفة الشرق وأوجب التراجع عن الضلال فوراً مهدّداً بالقطع، ووجّه رسالة إلى نسطوريوس نفسه فارضاً التراجع عن الضلال بخلال عشرة أيّام وإلاّ كان لا بدّ من القطع[2].

عندما كان هذا السجال قائماً كان يوحنّا بطريركاً على كرسي إنطاكية (٤٢٩ ـ ٤٤٨). وبينما أيّد رومة في موقفها أساقفة آسية وأورشليم والإسكندريّة، أيّد نسطوريوس بطريركُ إنطاكية يوحنّا الذي عُرف نتيجة هذا الموقف المناهض لرومة ببطريرك الشرق. بذلك انقسمت الكنيسة يومها إلى شطرين.

١ ـ Brière M., Légende Syriaque de Nestoriuis, P. 19

٢ ـ Jaffé - wattenbach, Regesta pontificum romanorum, PP. 372 - 373

نتيجة هذا الخلاف دعا الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني إلى مجمع مسكونيّ عُقد في أفسس سنة ٤٣١ وسط تراشق بالمجامع المحلّيّة التي جرت من قبَل الطرفين المتنازعين على هامش ذلك المجمع المسكونيّ وبالتهجّمات اللاهوتيّة. إلاّ أنّه في نهاية المجمع أمر الأمبراطور الحزبين المتنافرين أن يجتمعا في مكان واحد، وقام أحد رجال البلاط: يوحنّا قومس، بقراءة براءة أمبراطوريّة عليهم جاء فيها خلع نسطوريوس، ودعت البراءة إلى ضرورة التمسّك بنصّ الدستور النيقاويّ، وأمرت البطاركة والأساقفة بالعودة الى أوطانهم[1].

استقال نسطوريوس من منصبه وعاد الى الدير في إنطاكية، وبقي هناك سنة واحدة إلى أن أمر الأمبراطور بإبعاده عن إنطاكية سنة ٤٣٢، فانتقل إلى البتراء ومنها الى الواحة الكبرى في صحراء ليبية حيث لم يعد يعرف عنه شيء[2].

وإمعاناً في التخلّص من النسطوريّة التي بقيت تهدّد وحدة الكنيسة بسبب استمرار الخلافات بين معتنقيها وخصومهم، أمر الأمبراطور في الثالث من آب (أغسطس) سنة ٤٣٥ بتحريم تعاليم نسطوريوس وحرق كتبه. ولمّا قام عسكر الأمبراطوريّة باضطهاد أتباع نسطوريوس تنفيذاً للأمر الأمبراطوريّ، وقد شمل هذا الاضطهاد النفي ومصادرة الأملاك، انتقل هؤلاء الأتباع الى نواح بعيدة في الشرق، حيث نشروا المسيحيّة من خلال إرسالهم المبشّرين الى آسية الشرقيّة، بعد أن أنشأوا الرهبانيّات واجتهدوا بالتبشير في الهند والصين وإيران، حيث ظهر فيما بعد النساطرة المعروفون بنساطرة بلاد فارس. وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ هؤلاء النساطرة هم الذين شكّلوا الكنيسة الشرقيّة، أو كما تسمّي نفسها مفاخرة «كنيسة الشرق»... وهم يَعتبرون نسطوريوس بين الآباء اليونان وليس السوريّين[3].

١ ـ Gerland - Laurent, PP. 55 -56

٢ ـ Socrates, Hist. Ecc., VII, 34

٣ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ج ١، ص ٤١٢

وبقي النساطرة يقطنون في كردستان بين الموصل وأرمينية إلى أن انضمّ قسم منهم إلى الكثلكة في القرن السادس عشر، فأصبحوا يعرفون بالكلدان، أمّا الذين بقوا على نسطوريّتهم فهم الذين عرفوا بالآشوريين، وقد تبدّد شملهم بعد حرب ١٩١٤ وأصبحوا مشتّتين في الشرق خاصة في العراق وبعض سورية ولبنان.

مسألة أوطيخة

بينما كان الجدل قائماً حول طبيعة المسيح بين نسطوريوس من جهة، وكيرلّس الإسكندريّ بطريرك الإسكندريّة (٤١٢ ـ ٤٤٤) من جهة أخرى، كان يقول قول كيرلّس راهب يونانيّ عاش في القسطنطينيّة، اسمه (Eutychès أوتيشس) وقد اصطلح على تسميته بالعربيّة: أوطيخة، أو، أوطيخا.

ويبدو من خلال المراجع أنّ مدرسة اللاّهوت الإسكندريّة كانت تشدّد في ذلك التاريخ على الطبيعة الإلهيّة في المسيح بنوع خصوصيّ دون أن تنكر فيه الطبيعة البشريّة[1]. إلاّ أنّ هذا الراهب اليونانيّ، وقد كان «زاهداً ورعاً محترماً، تقدّم جميع رهبان العاصمة وبرّز تبريزاً» تمادى في التركيز على الطبيعة الإلهيّة في المسيح، معتبراً أنّ الطبيعة الإنسانية فيّه، ليست سوى نقطة خمر وقعت في بحر ماء، فامتزجت فيه. وهكذا يكون المسيح ذا طبيعة واحدة وأقنوم واحد[2].

وإذ كان للبطريرك الاسكندريّ أصدقاء كثر، بسبب موقفه المناهض لنسطوريوس، فإنّ هؤلاء الأصدقاء الذين قد لا يجوز تسميتهم بالأتباع، قد اهتموا بأوطيخة بعد وفاة البطريرك، وسرعان ما انتشرت بدعته بينهم في القسطنطينيّة، حيث كان يقيم، إلى أن انتقلت باتّجاه مصر والرها وإنطاكية وقورش وسواها[3].

١ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٠٧ ـ ٣٢٧

٢ ـ Tixeront J., Histoire des Dogmes, III, PP. 84 - 85

٣ ـ Duchesne L., histoire Anc. de l'Eglise, III, 398.

كان أوّل من تصدّى لبدعة أوطيخة: دومنوس أسقف إنطاكية (٤٤١ ـ ٤٤٩) إذ ألّف كتاباً ظهر في نهاية سنة ٤٤٧ تحت عنوان «الشحّاذ»، أكّد على وجود الطبيعتين معاً في المسيح بدون امتزاج. وكان واضحاً من قراءة كتاب دومنوس أنّه استهدف الردّ على بدعة أوطيخة دون أن يسمّيه. إلاّ أنّ دومنوس ذكر أوطيخة بالاسم عندما كتب إلى الأمبراطور يشكو بدعة هذا الراهب، متّهماً إيّاه بالهرطقة. ولكن يبدو أنّ صداقة كانت تجمع بين الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٣٧٩ ـ ٣٩٥) وأوطيخة بلغت حدّ إجلال الأمبراطور لأوطيخة. فكان من الطبيعيّ إذّاك أن يرفض الزعيم البيزنطيّ شكوى دومنوس، وبلغ به الحنق أن أصدر إرادة أمبراطوريّة سنة ٤٤٨ تدخّلت بشكل سافر بشؤون الكنيسة، إذ حرّم بموجبها بعض المصنّفات الكنسيّة وعزل بعض الأساقفة من مناصبهم. وهكذا نشب الخلاف من جديد داخل الكنيسة بين حزبين سرعان ما تشكّلا من رواسب الماضي: حزب الأمبراطور وأوطيخة، وحزب دومنوس. وتمادى الأمبراطور في التدخّل بشؤون الكنيسة بشكل لم يسبق له مثيل. وعندما أثيرت مسألة أوطيخة أمام مجمع قسطنطينيّ محلّيّ سنة ٤٤٨، حاول صاحب بدعة الطبيعة الواحدة أن يتهرّب، ولكنّه اضطر في النهاية إلى حضور المجمع محاطاً برهط من موظّفي الدولة ومؤيّديه من الرهبان. ووسط هذا الاستعراض، أصرّ على بدعته، فحكم عليه المجمع بالهرطقة، وقطعه من كلّ رتبة كهنوتيّة ومن الشركة ومن رئاسة الدير الذي كان قد رُئّس عليه. إلاّ أنّ أوطيخة تمرّد على حكم المجمع، وراح يراسل رؤساء الكنائس في الشرق والغرب. مدّعياً أنّ المجمع القسطنطينيّ قد ظلمه، طالبا إنصافه. فقامت ضجّة بين تلك الكنائس، وسط انتصار الأمبراطور لأوطيخة. وإذ طلب الأمبراطور من البابا لاون الأوّل (٤٤٠ ـ ٤٦١) تلميحاً الدعوة لعقد مؤتمر مسكونيّ للنظر في قضيّة أوطيخة، بهدف إسقاط مقرّرات المجمع القسطنطينيّ، تروّت رومة بحكمة، ودرست الموضوع بدقّة، قبل أن تعقد مجمعاً محلّيّاً دقق في أعمال مجمع القسطنطينيّة، فوافق عليها، خلافاً لما كان يتمنّاه

الأمبراطور الذي أغضبه اعتذار رومة عن حضور البابا لأيّ مجمع مسكونيٍّ قد ينعقد للنظر في قضيّة أوطيخة.

لم يمنع موقف رومة الأمبراطور من الدعوة الى مجمع مسكونيّ بدأ أعماله في أفسس سنة ٤٤٩، وقد عيّن الداعي إليه الحضور وجدول الأعمال والرئيس وسائر الأمور المتعلّقة بهذا المجمع، بعد أن أمر بإلقاء القبض على بعض الأساقفة المناهضين لرأي أوطيخة. وفي أجواء يمكن وصفها بالبوليسيّة، تمكّن الأمبراطور من انتزاع قرار من المجمع، أعلن عن استقامة رأي أوطيخة وقرّر إعادته إلى مقامه ورئاسة ديره، بعد «إدخال الجند الى المجمع، والرهبان المؤيّدين لأوطيخة، والبحّارة المصريّين وسواهم من عناصر الغوغاء. وقد جرّ هؤلاء بعض معارضي أوطيخة من الأساقفة جرّاً على الأرض وداسوهم وسجنوهم ومات بعضهم بسبب كلّ هذا بعد أيّام قليلة من تعرّضهم للاعتداء، وتمكّن بعضهم الآخر من الفرار واللجوء الى رومة[1]». كذلك أصدر المجمع قرارات حطّت من مقام كلّ أسقف لا يرى رأي أوطيخة، واتّهمت عدداً منهم بالسرقات، أو بأنّه غير أهل لأن يكون كاهناً، وحرمت آخرين، واتّهمت سواهم بممارسة السحر والعرافة وبكسر الصوم وبالاشتراك في القصف مع اليهود، أو بالنسطرة. وخلع من خلع، وفرض رسم وتعيين أساقفة مكانهم من حزب أوطيخة والأمبراطور[2].

كلّ ذلك جعل هذا المجمع يوصَم باللصوصيّة من قبل بعض المؤرّخين الذين عرّفوه بـ «المجمع اللصوصيّ[3]».

ما أن وصلت أنباء هذا المجمع إلى رومة حتّى انتفض حبرها الأعظم لاون

١ ـ Libellus Appellationis, (Ed. Mommsen 1886) PP. 362 - 367

٢ ـ راجع: Martin P., Actes, PP. 11, 77 - 172; Theodoret, Epist. PP. 113, 116.

٣ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤

الكبير، الذي سارع إلى إرسال كتاب إلى الأمبراطور يعترض فيه على كلّ ما جرى مؤكّداً على وجوب انعقاد مجمع مسكونيّ جديد لإعادة النظر بكلّ ما صدر من مقرّرات. وعبّر البابا كذلك عن عدم قبوله بما حصل من خلال رسائل مماثلة بعث بها إلى الامبراطورة وإلى الإكليروس وإلى الشعب. غير أنّ الأمبراطور ثيودوسيوس قابل موقف رومة باللامبالاة، ممّا جعل البابا يعيد مراسلته بالمعنى نفسه دون جدوى[1].

لم يمض سنة واحدة على انعقاد ذلك المجمع حتّى لاقى الأمبراطور حتفه إذ حرن به حصانه وأوقعه عن ظهره فأرداه. وإذ لم يكن لثيودوسيوس من عقب، أدارت دفّة الأمبراطوريّة أخته بلشيرية لوقت وجيز، وتزوّجت بعد حين من مركيانوس قائد الجيش.

بزواجه المشروط من بلشيرية «بأن تبقى عذراء وأن يقتصر موضوع الزواج على الاشتراك في إدارة الأمبراطوريّة[2]» أصبح مركيانوس سيّد الأمبراطوريّة (٤٥٠ ـ ٤٥٧). كان من بين أوّل الاجراءات التي اتّخذها هذا الأمبراطور الذي اشتهر بعدله وبتأييد الجيش له بقوّة، أنّه أبعد أوطيخة عن البلاط، وأعلن على الملأ عزمه على إنهاء الظلم والفوضى. ثم سارع إلى الدعوة لعقد مجمع مسكونيّ جديد بعد أن أمر بإعادة الأساقفة الذين نفاهم المجمع السابق تعسّفاً إلى ديارهم.

عُقد هذا المجمع، وهو المسكونيّ الرابع، في خلقيدونية[3]. وقد بدأ أعماله في الثامن من تشرين الأوّل (أوكتوبر) سنة ٤٥١ بحضور عدد كبير من الأساقفة

١ ـ Inter Epistolas Leonis, Epist. 4, PP. 56 - 58

٢ ـ رستم كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٣٦

٣ ـ Chalcedoine من آسية الصغرى، وهي مدينة قديمة كانت تقع على Bithynie في منطقة بيثينية البوسفور، هي اليوم كاديكوي التركية.

الذين مثّلوا كنائس الشرق: إنطاكية، وخناصير[1]، وحلب، وقنسرين[2]، وجبلة[3]، وجبّول[4]، وبلتس؟ وسلفكة[5]، من مقاطعة سورية الأولى؛ وأفامية[6]، والرستن[7]، وبانياس، وحماه، وشيزر[8]، ومريمين[9]، ورفنية (Raphania)، وجسر الشغور[10]، من مقاطعة سورية الثانية؛ كذلك تمثّل من الأسقفيّات السوريّة كلّ من أسقفيّتي سلفكة الساحليّة، وأنيموريون؛ وحضر أساقفة كلٍّ من طرسوس وأدنه وأوغسطة وخمسة آخرون من قيليقية الأولى، وعين زربة، والإسكندرونة وموبسوستي وأرسوز، وخمسة آخرون من قيليقية الثانية؛ ومنبج[11]، وبالس[12]،

---

١ - بلدة سوريّة كانت تعرف قديماً بـ «كوناسارا» تقع الى الجنوب الشرقي من حلب على مسافة حوالى ستين كيلومتراً منها. وقد وجدت فيها آثار لكنيسة كبيرة

٢ - بلدة سورية تعرف بأسكي حلب. كانت على طريق القوافل بين حلب وانطاكية. كان قد حصنها سلوقوس نيكاثور الظافر (٣٥٥ - ٢٨٠ ق.م.) ودعاها خلقيس Chaleis؛ أدبيلوم

٣ - مرفأ سوري يقع جنوبي اللاّذقية. هو اليوم مركز قضاء. وهي جبلة الفينيقيّة، إبنة إرواد. وقبل أن تصبح كرسيّا اسقفيّا، استولى عليها السلوقيون، ثم الرومان مع فتح بمبيوس (٦٤ ق.م.).

٤ - موضع جنوب شرقي حلب. اسمها اللاتيني Gabbola

٥ - هي سلوقية تراخية الهلنستية، تقع على نهر كليكدنس في قيليقية شمال تركية. كان فيها مقام «نبوءات» أفلون.

٦ - كانت تقع بجوار قلعة المضيق في سورية على مسافة ٤٥ كلم من حمص. وقد دعيت اولاً «فرناكه» ثم «بيلا». وسعها سلوقوس نيكاثور الظافر (٣٥٥ - ٢٨٠ ق.م.) ودعاها أفامية باسم زوجته الفارسيّة. كانت مركزاً سلوقيا هاماً. احتلها الرومان سنة ٦٤ ق.م. ثم أضحت مركزاً أسقفياً في العهد البيزنطي.

٧ - هي Arethusa قرية سورية مركز قضاء يحمل اسمها في محافظة حمص.

٨ - كانت تقع على العاصي شمالي حماة.

٩ - كانت تقع في الأردن شرقي قصر المشتى القديم.

١٠ - جسر الشغور، هي Seleucobelos. بلده سوريّة ومركز قضاء جسر الشغور في محافظة أدلب.

١١ - مدينة في سورية. هي اليوم مركز قضاء منبج في محافظة حلب. عرفت قديماً بـ «مبّول»، أطلق عليها السلوقيون إسم Hierapolis. اشتهرت بهيكلها المكرس للإله هدد وللالهة اترغاتيس قبل أن تصبح مسيحيّة. فيها استلم الامبراطور هرقل عود الصليب من الفرس سنة ٦٣٠.

١٢ - هي اليوم: إسكي مسكنة. قرية في سورية شرقي حلب احتلها الصليبيون سنة ١١٠٠ بعد أن كان فتحها أبو عبيدة الجرّاح، وضمّها الرشيد الى جند العواصم. ثم خرّبها المغول سنة ١٢٦٠.

وقورش[1]، ودلوز[2]، وجرابلس[3]، ومرعش[4]، وصفّين[5]، وقلعة الروم[6]، والبيرة[7]، والرصافة[8]، وسميساط[9]، والصّور[10]، وزوغما[11]، من منطقة الفرات؛ وأساقفة كل

---

١ - قورش أو خورس Cyrrhus: بلدة قديمة كانت تقع قرب أعزاز في محافظة حلب. كانت مستعمرة سلوقية. ادخلها بومبيوس في حكم الرومان سنة ٦٤ ق.م. ثم ازدهرت فيها المسيحية وعرفت باسم هاغيوبوليس. وذهب بعضهم الى أن القديس مارون قد تنسّك بالقرب منها. ومن اساقفتها ثيودوريطس المؤرّخ، وهو الذي مثلها في المجمع الخلقيدوني.

٢ - هي Doliché القديمة. موضع بالقرب من معرّة النعمان في سورية. فيه آثار ابنية يرقى عهدها إلى ما قبل القرن السابع ميلادي.

٣ - بلدة في شمال سورية. اسمها القديم Europos. هي اليوم مركز قضاء يحمل اسمها في محافظة حلب. وهي نفسها التي كانت عاصمة دولة كركميش. وفيها حدثت المعركة الحاسمة بين الآشوريين والبابيليين والماديين سنة ٦١٢ ق.م. التي ادّت إلى سقوط الدولة الاشوريّة.

٤ - مدينة في جنوب تركية على حدود سورية. فتحها أبو عبيدة صلحاً سنة ٦٣٧، إلاّ أن العثمانيين الاتراك قد ذبحوا فيها آلاف الأرمن في ١٨٩٥ و ١٩١٧.

٥ - هي Neocesaria القديمة. تقع على الحدود السورية على شاطئ الفرات الايمن. وقد اشتهرت بموقعة علي ومعاوية على أرضها سنة ٦٥٧م.

٦ - هي Ourima. تقع غربي الفرات قبالة البيرة أو براجيل. كان فيها حصن قديم، لعب دوراً في الحرب الصليبيّة، إذ اخذه الافرنج من المسلمين أيام بغدوين الثاني سنة ١١١٩.

٧ - هي Perrhé، عرفت أيضاً بـ «براجيل». كانت تقع على الفرات قبالة قلعة الروم (راجع المرجع السابق)

٨ - هي Sergiopolis. مدينة قديمة في بادية الشام على بُعد حوالى ٤٠ كلم عن يمين الفرات. دعيت سرجيوبوليس بسبب استشهاد القديس سركيس فيها سنة ٣٠٥. وقد اشتهرت بمزاراها. شيّد فيها الامبراطور أنستازيوس (٤٩١ - ٥١٨) كنيسة كبيرة. وجدت فيها بقايا كنائس قديمة.

٩ - سميساط، أو شميشاط Samosate: مدينة سورية على الفرات. هي اليوم قرية تعرف باسم سمزاط تقع في الأراضي التركية. نبغ منها لوقيانس الكاتب، ولوقيانس القديس، وبولس الأسقف المعروف ببولس السميساطي الذي ورد ذكره في هذا البحث. ازدهرت في العهد الروماني. فتحها العرب حوالى ٦٤٠ واستردها البيزنطيون مراراً. فتحها صلاح الدين ١١٨٨.

١٠ - الصّور: هي صوري القديمة. قرية في سورية على الخابور بين دير الزور والحسكة. وجدت فيها آثار لمختلف العهود القديمة.

١١ - لعلّها بلقيس، أو دير الزور.

من الرها[١] ، وبرثا[٢] ، والرقة[٣] ، وقرقيسيّة[٤] ، وقسطنطينة ، وحرّان[٥] ومركوبوليس ، إضافة الى أسقف العرب من منطقة الرها ، وأساقفة : آمد[٦] ، وغزّة[٧] ، وأبجل ، وكيفا وميافارقين[٨] ، وصوفانة من منطقة ما بين النهرين ؛ وأساقفة : بصرى[٩] ، ودرعة ، ومسميّة[١٠] ، والقنوات[١١] ، واللجا[١٢] ، والسويدا[١٣] ، والصنمين ، وحسبان ، وحرّان[١٤] ،

---

١ - هي الرها Edesse أو أورفا Urfa : مدينة بين النهرين في تركية ، اشتهرت بمدرستها اللآهوتية . اشتهر من أساتذتها افرام السرياني ورابولا .

٢ - وردت في المراجع اللآتينية Birtha وأحياناً Mocedonopolis وقد ترجمها « رستم » بـ « بيره جك »

٣ - مدينة سوريّة شيدها الاسكندر المقدوني ودعاها اليونان « نيقيوفوريون » والرومان « كالينيكوس » .وعرفت أيضاً بـ « الرشيد » لأنّ هارون الرشيد جعلها عاصمته الصيفيّة بعد نكبة البرامكة وبنى فيها قصر السلام .

٤ - وردت في المراجع اللاتينيّة Ciresium . رجّح رستم أن تكون قرقيسيون عند مصب الخابور في الفرات . أمّا قرقسيّة فهي مدينة سوريّة تقع عند ملتقى الفرات بالخابور .

٥ - حرّان . هي Carrhae : مدينة تركيّة قديمة تقع في بلاد ما بين النهرين . موطن أسرة ابراهيم الخليل بعد هجرته من أور . دعاها الرومان كارهاي .

٦ - آمد : هي ديار بكر الحاليّة ، مدينة تركية على شاطئ دجلة الأيسر .

٧ - هي غير غزّة فلسطين . اعتبرها المؤرّخون مجهولة الموقع . قد تكون « الأزغ » التركية الواقعة شمال ديار بكر . أمّا كيفا فهي حصن كيفا المدينة التركية على نهر دجلة . كانت مقر أسقف سرياني .

٨ - ميافارقين : قاعدة بلاد ديار بكر بين الجزيرة وأرمينية (تركية) .
سميت قديماً مارتيروبوليس Martyropolis ، أو مدينة الشهداء لما جمع فيها من عظام الشهداء الفرس المسيحيّين

٩ - هي بصرى إسكي شام : مدينة في محافظة حوران السوريّة . فيها آثار من العهد الهلنستي . عاصمة الاقليم الغربي في أيام ترايانوس (١٠٦) . أصبحت في العهد المسيحي كرسيا أسقفيا ذا شأن . اشتهرت بكنيستهاالرائعة في القرن السادس ، راجع حاشية ص ١٦٠ .

١٠ - هكذا وردت عند رستم . وفي اللآتينية Phaena . نميل إلى اعتبار انّها بلدة المسيفرة السوريّة من اعمال محافظة درعة .

١١ - قرية سورية من أعمال محافظة السويداء هي قناتا Canatha الرومانية . ازدهرت فيها المسيحيّة في القرنين الرابع والخامس . استولى عليها العرب سنة ٦٣٧ . وجدت فيها انقاض كنيسة فخمة . وفيها مزار للنبي أيوب . هي اليوم مركز إقامة شيخ الدروز الاكبر .

١٢ - هي « الحرّة السوداء » (سورية الجنوبية) الفاصلة بين جبل الدروز وحوران . وقد ذكرت في المراجع : قسطنطينة اللجا . وهي تكتب محلّيا اليوم : اللجاه .

١٣ - بلدة سورية تشكل قاعدة جبل الدروز . احتلها الانباط في القرن الأوّل قبل الميلاد . والرومان في أوائل القرن الثاني ميلادي . اصبحت كرسيا اسقفيا في القرن الخامس . وجدت فيها انقاض كنيسة قديمة .

١٤ - هي غير حرّان ما بين النهرين (تركية) التي تعرف باللاتينية بـ "Carrattae" أو "Carrttes" . أما هذه فذكرت باللاتينية Eutinui . ومن الراجح انها هي والصنمين وحسبان الوارد ذكرهما سالفاً تقع في منطقة جبل السويداء ، امتداداً حتى شمال الاردن .

وجرش[١] ، ومأدبا ، وشقة[٢] ، وخان النيلة[٣] ، ونوى[٤] ، ومشنف[٥] ، وعمان ، وشحبة[٦] ، وإذرح[٧] ، من العربيّة ؛ وأساقفة صور ، وطرطوس ، وإرواد ، وعرقة ، وبيروت ، والبترون ، وجبيل ، وعرطز[٨] ، وبانياس ، والنبي ، يونس[٩] ، وعكة ، وصيدا ، وطرابلس ، من فينيقية الأولى أو الساحليّة ؛ وأساقفة دمشق ، وسوق وادي بردى ، وحرلانة في غوطة دمشق ، ويبرود[١٠] ، وخناصر[١١] ، والدانا[١٢] ، وحمص ،

---

١ - هي نفسها جرش الاردنية الواقعة في شمال المملكة على سفح جبل عجلون والقائمة على انقاض مدينة قديمة انشأها الاسكندر المقدوني أو أحد قادته . ازدهرت في العهد السلوقي . احتلها الرومان ٦٣ ق.م . ثم خضعت لتأثير الانباط . انشئ فيها كرسي اسقفي في القرن الرابع قبل ان يفتحها العرب سنة ٦٣٥ . وجد فيها آثار كنائس كبيرة وهياكل وشوارع رومانية .

٢ - هي Maximianopolis ودعيت ايضاً سقايا . تقع في جبل السويداء . وجد فيها بقايا دير قديم يرجع بناؤه الى اواخر القرن الثاني ميلادي . ومن الراجح أيضاً ان مأدبا الوارد ذكرها قبلها تقع في المنطقة نفسها .

٣ - هي Néapolis في جبل السويداء .

٤ - هي Névé باللاتينية تقع في منطقة جبل السويداء .

٥ - وردت في المراجع اللاتينية Neela . تقع في المنطقة نفسها .

٦ - هي Philippopolis من اعمال الاردن .

٧ - هي الواقعة بين معان وسلع في الاردن والتي عرفت أيضاً بزربانة وقد ذكرتها المراجع اللاتينية Zerabène وقد اشتهرت بالتحكيم الذي عقد فيها بعد وقعة صفين بين علي ومعاوية سنة ٦٥٨ .

٨ - وردت في المراجع اللاتينية Orthosia . عربها رستم الى عرطوز دون ان يذكر موقعها .وتقع عرطز في شمال لبنان قضاء البترون . وجدت فيها آثار لأبنية كنسيّة قديمة - المؤلف - راجع : انيس فريحة ، اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها . الجامعة الاميركية في بيروت (بيروت ١٩٥٦) ص ٢١٩ .

٩ - قرية لبنانية تقع في قضاء الشوف من محافظة جبل لبنان . وردت في اللاتينية Porphyreon .

١٠ - وردت في المراجع اللاتينية Corada . عربها رستم الى جيرود التي لم نجد لها ذكراً في المراجع . ويبرود مصيف سوري في قضاء النبك محافظة دمشق من قرى جبل القلمون الذي ازدهر في العهد الروماني والبيزنطي . وممّا يؤكد على ان يبرود كان مركزاً اسقفياً وجود آثار لكنيسة قديمة كبرى كشفت التنقيبات عنها كما عن آثار تعود الى أزمنة قديمة متسلسلة في التاريخ .

١١ - هي في المراجع اللاتينية Chonacara . عربها رستم الى كناكر . قرية في سورية (محافظة حلب) عرفت بـ « كوناسارا القديمة » . وممّا يؤكد على صحة كونها مركزاً أسقفيّاً اكتشاف آثار لكنيسة كبيرة فيها تعود الى القرن الخامس

١٢ - هي الواردة في المراجع اللاتينية Danaba . عربها رستم الى « مهين » . قرية في شمال سورية ، فيها انقاض كنيسة قديمة وقبور يظهر فيها تأثير الفن السوري في القرن الرابع .

وحوّارين[1]، وبعلبك، واللاذقيّة[2]، وتدمر؛ وأسقف يمثّل العرب من فينيقية الثانية او اللبنانيّة.

وحضر المجمع اضافة الى جميع هؤلاء أساقفة أوروبة، وآسية، وتراقية، واليونان، وإيليرية، وإفريقية. إضافة الى ممثّلين للأمبراطور والدولة الرومانيّة على أرفع المستويات[3].

أهمّ ما أسفر عنه هذا المجمع المسكونيّ الرابع، وهو الشهير بالمجمع الخلقيدونيّ، تحريم بدعة المشيئة الواحدة (المونوفيزيّة). وقد صدر عنه، بعد حوالى عشرين يوماً من الاجتماعات والنقاشات، تخلّلها ستّ جلسات، تحديد للعقيدة المسيحيّة، صدّق عليه الأمبراطور، جاء فيه:

«إنّنا نعلّم جميعاً تعليماً واحداً تابعين الآباء القدّيسين. ونعترف بابن واحد هو نفسه ربّنا يسوع المسيح. وهو نفسه كامل بحسب اللاهوت وهو نفسه كامل بحسب الناسوت. إله حقيقيّ وإنسان حقيقيّ. وهو نفسه من نفس واحدة وجسد. مساو للآب في جوهر اللاهوت. وهو نفسه مساوٍ لنا في جوهر الناسوت. مماثل لنا في كلّ شيء ما عدا الخطيئة. مولود من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت. وهو نفسه في آخر الأيّام. مولود من مريم العذراء، والدة الإله بحسب الناسوت. لأجلنا ولأجل خلاصنا. ومعروف هو نفسه مسيحاً وابناً ورباً ووحيداً واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال من غير أن يُنفى فرق الطبائع بسبب الاتّحاد بل إنّ خاصة كلّ واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة، تؤلّفان كلتاهما شخصاً واحداً وأقنوماً واحداً لا مقسوماً ولا

١ ـ هي الواردة في المراجع اللاتينية Evaria. مكان في سورية بين دمشق وتدمر وحمص. سكنه النصارى الآراميون. فيه مات ودفن يزيد بن معاوية سنة ٦٨٠

٢ ـ هي Laodicia في المراجع اللاتينية. عربها رستم الى قطينة. وهي في الواقع مدينة اللآذقية السورية قاعدة المحافظة التي تحمل اسمها. عرفت المدينة في العصور القديمة باسم "Ramita" ثم «لوكاه اكته» ثم «مزابدان». أضحت جزءاً من منطقة اوغاريت ـ رأس شمرا في الالف الثاني ق.م. احتلها البابليون ٦٠٤ ق.م. ثم اليونان ٣٣٢ ق.م. ازدهرت في العهد السلوقي فأصبحت مدينة هامة اطلق عليها سلوقوس الاول اسم Laodicia البحرية تكريماً لأمه. منحها انطونيوس حريات واسعة. خربها نيجر. احتلتها زنوبية في القرن الثالث. خربتها الزلازل (٤٩٤ ـ ٥٥٥). أعاد بناءها يوستينيانوس. احتلها المسلمون حوالى ٦٣٨. استولى عليها السلاجقة ثم الصليبيون ١٠٩٧.

٣ ـ راجع: Sehwartz, Ed., Acta, II, PP. 56 - 64, 326 - 351

مجزّأً إلى شخصين بل هو ابن ووحيد واحد هو نفسه الله الكلمة الربّ يسوع المسيح كما تنبّأ عنه الأنبياء من البدء وكما علّمنا الربّ يسوع المسيح نفسه وكما سلّمنا دستور الآباء[1]».

وإضافة الى تحريم بدعة المشيئة الواحدة ومنع أتباع أوطيخة عن إقامة الحفلات الدينيّة ونفي أوطيخة الذي توفّي بعد ذلك التاريخ بوقت قصير، حلّ المجمع مسائل تتعلق بأساقفة كلّ من صور وبيروت وآسية، وكنيسة أورشليم، وقبل تبرّؤ بعض الأساقفة من بدعة المشيئة الواحدة، فعرّف المجمع عن جميع هؤلاء بأنّهم مستقيمو الرأي. وبهذا انتهت أعمال المجمع المسكونيّ الرابع: المجمع الخلقيدونيّ الشهير، بتصديق الأمبراطور على القرارات والقوانين. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المونوفيزيّة غير شرعيّة إن كنسيّاً أو على صعيد قوانين الدولة.

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣، عن Mansi, VII, Col. 116; Hahn A., bibliotek Der Symbole, 146

الفصل الخامس

بين الخلقيدوني والإسلام

- من النسك الى الرهبنة
- الفكر المسيحيّ بين الوثنيّة والإسلام
- الكنيسة اليعقوبيّة
- الفرس قبل الإسلام

حينما كانت الخلافات تعصف بالكنيسة وتُحدث تلك الانشقاقات التي أثّرت في المسيحيّة سلباً، وكان بعض كبار رجال الدين وقادة الإكليروس المسبّبين الأساسيّين لها، بينما كان الأباطرة في أكثر الأحيان يحاولون فرض وحدة الكنيسة من خلال التدخّل المباشر، كانت المسيحيّة تتلمّس درباً أصيلاً لتحقّق ذاتها ولتؤدّي رسالتها السماويّة في الحقل البشريّ الذي كثر حصاده وكان فعَلته الحقيقيّون ... قليلين.

من بين أولئك الفعلة من اعتبروا المسيحيّة سيراً على خطى المسيح. أولئك هم النسّاك والزهّاد الذين اشتهر بعضهم بأفعال شهدت من الزهد ما يصعب على إنسان اليوم تصوّره أو تصديقه. وقد بلغ شأن هذه الظاهرة التي عمّت الشرق أن دعت الى وضع تنظيم لروّاد الزهد والتنسّك والعزوبة والفقر فكان بدء الرهبنة في المسيحيّة.

من النسك الى الرهبنة

لمّا كان الاضطهاد في بداية الانتشار المسيحيّ قد أرهب المؤمنين إيماناً حقيقيّاً بالمسيحيّة، وجعلهم أمام ثلاثة خيارات: إمّا الموت، أو نكران المسيحيّة، أو الهرب إذا أمكن، فقد اختار بعض «الرّهبانين» الفرار الى البراري والقفار مفضّلين على الخيارَين الآخرين حياة البؤس والزهد بإيمان يحافظون عليه.

هؤلاء «الرّهبانون»، هم الذين سيكونون أساس ما سيُعرف لاحقاً بـ «الرهبنة» وبـ «الرهبانيّة»، هؤلاء هم الذين سيعرّفون بالرهبان. فإنّ جذر «رهب» الساميّ المشترك يفيد الخوف والقلق والرعب والهرب والرهبة. وفي العربيّة «رهب»: خاف. «وأرهب»: خوّف. و «ترهّب»: صار راهباً. و «الراهب» هنا دخلت الى العربيّة، جديدة نسبيّاً، أي أنّها دخلت إليها بعد أن أصبح هناك رهبنات ورهبان. والرّهبان في العربيّة معناها: الخائف. وقد أضيف الى

أحد معانيها فيما بعد: مَن اعتزل من الناس الى دير طلباً للعبادة. والرَّهبان أيضاً معناها: المبالغ في الخوف، مثلما نقول الخَشيان، من خشيَ، والفزعان من فزع.

أخطأ، برأينا، من اعتبر أنّ الرهبنة في أساسها «كانت طريقة محبّبة في الحياة... وكان لمبادئها الأساسيّة، وهي العزوبيّة والفقر والطاعة، جاذبيّة كبرى[1]» ذلك أنّ أساس الرهبنة عذاب وفقر وهرب ورهبة مضاف إليها: التقوى.

يُجمع المؤرّخون على اعتبار أنّ القديس أنطونيوس الكبير (٢٥٠ ـ ٣٥٦) هو أبو الرهبان. ولكنّ هذا القدّيس، كما هو معروف، هو تلميذ لناسك حبيس ااسمه باولا، عنه أخذ الزهد، ومنه استوحى التنسك الذي كان أصلاً للرهبنة.

وُلد أنطونيوس في مصر. وبعد أن تتلمذ على يدي أوّل الحبساء: پاولا، تنسّك في الصعيد قبل أن يجذب الكثيرين من أولئك الزهّاد الهاربين إلى القفر والبراري، متمسّكين بمسيحيّة أصيلة معتبرين أنّ يسوع المسيح قد عاش هارباً فقيراً تائهاً موصياً بأنْ لا يكون للواحد من تلاميذه ثوبان.

ذاع صيت أنطونيوس الكبير في مصر والشرق. فقصده نسّاك وزهّاد من كافّة أنحائه. وكان من بين هؤلاء باخوميوس الذي أسّس ما عُرف بالحياة النسكيّة المشتركة من خلال تأسيس عدّة أديار في مصر العليا، ووضع القوانين لها، وهي التي صارت تُعرف فيما بعد بالقوانين الرهبانيّة، كان ذلك قبل سنة ٦٤٠.

ومن بين الذين قصدوا أنطونيوس ليتتلمذوا على يديه، الناسك هيلاريون المولود في فلسطين، وتحديداً في غزّة، فعاد الى مسقط رأسه حيث اعتكف في برّيّة غزّة حاذياً حذو أنطونيوس، فالتفّ حوله هو الآخر عبّاد من سائر الأنحاء الشرقيّة. هذان القدّيسان كانا منوالاً نسج عليه آخرون. وهكذا أخذت تنتشر مراكز التنسّك الجماعيّ بعد أن كان النسك إفراديّاً في براري لبنان وسورية وفلسطين ومصر. فقد اكتُشفت في هذه الأماكن كهوف ومغاور ثبت أنّها كانت

١ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٤٠٤

مراكز نسك، أهمُّها تلك التي في وادي الفرزل المطلّ على البقاع الغربيّ، إضافة إلى مغارة الراهب الشهيرة عند نبع العاصي قرب الهرمل[1].

وإذا كان أصل الرهبنة لغويّاً، ساميّاً مشتركاً، فإنّ أصل كلمة دير، يونانيّ: Mandra. وكانت الكلمة تعني في الأساس: الحظيرة، وكانت تطلَق تحديداً على حظيرة الغنم. ثمّ أطلق الرهبان الأوّلون هذا الاسم على مكان اجتماعهم. كما استعملوا أحياناً لفظ Choinobion الذي معناه المنتدى والمجمع. ويبدو لنا أنّ وادي قنّوبين قد اتّخذ اسمه من هذا الأصل، بالنظر إلى ما كان يحفل به هذا الوادي من نشاط نسكيّ ورهبانيّ في القرون المسيحيّة الأولى.

وعندما تعدّدت الأديار كان لا بدّ من وضع القوانين لها، وإضافة إلى ما وضعه في هذا المجال كلّ من أنطونيوس الكبير وباخوميوس، جاءت قوانين القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠ ـ ٣٧٩)، أحد آباء الكنيسة ومعلّميها، لتضع أسس الحياة الرهبانيّة المشتركة في الشرق. هذه القوانين ما زال يجري عليها إلى يومنا الرهبان الباسيليّون ـ من الملكيّين الكاثوليك ـ بينما يجري الرهبان الموارنة على قوانين مار أنطونيوس الكبير.

وُلد باسيليوس في قيصريّة قبدوقية حوالى ٣٢٩. انتقل الى أثينة حيث حصّل العلوم وعاد منها الى مسقط رأسه حيث راح يعلّم الفصاحة والبيان. وإذ أخذ الناس يُبدون نحوه الإجلال والتقدير، خشيت روحه المسيحيّة الكبرياء، فهجر المدينة، إلى البرّيّة بعد أن وزّع ماله وأملاكه على الفقراء، وانصرف للتعبّد في حياة نسكيّة. وعملاً بنصيحة رئيسه الروحيّ الأسقف أفستاثيوس، راح يتفقّد شؤون الرهبان والنسّاك في سورية وما بين النهرين ومصر. وعندما رجع الى موطنه في ٣٥٩ أنشأ ديراً للرهبان اجتمع فيه عدد منهم، فكانوا يعيشون في تقشّف على

١ - راجع: الأب هنري لامانس اليسوعي، تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار، ج ١، ص ١٠٩ - ١١٠.

خطى باسيليوس الذي «كان يلبس قميصاً خشناً في النهار، ويتمنطق فوقه بالجلد، ويلبس المسح ليلاً فقط لئلاّ يلحظه أحد في النهار فيسمو في عينيه. وكان لا يأكل إلاّ مرّة واحدة في اليوم ويكتفي بالخبز والماء، حارماً نفسه حتّى من الخضار التي كان يميّز نفسه بها في الأعياد. وكان يمضي أيّامه مصلّياً متأمّلاً قائماً بالأعمال اليدويّة، ولياليه ساهراً مروّضاً نفسه على الصبر والاحتمال، وكان ينام الساعات القليلة مفترشاً الأرض محتملاً الصقيع قاهراً جسده إماتة[1]».

وبعد أن أسّس باسيليوس الكبير عدّة أديار ضمّت مئات الرهبان، وضع قوانينه التي عمّت الشرق وانتقلت الى الغرب. ومن تلك القوانين النذر المثلّث: الطاعة والفقر والعفّة. وتميّزت قوانين باسيليوس بفرض العمل اليدويّ المشترك على الرهبان، إضافة إلى مطالعة الكتاب المقدّس والتأمّل في محتوياته. وهذا ما ميّز قوانينه عن تلك التي وضعها أنطونيوس وباخوميوس.

كان لباسيليوس شقيقة تدعى ماكرينة، أنشأت، مع رفيقة لها اسمها إميلية، ديراً على نهر الإيريس قبالة الدير الأوّل الذي أنشأه أخوها، انضمّت إليه راهبات متعبّدات، ممّا من شأنه أن يفيد عن قدم الترهّب النسائيّ في الشرق.

ومن مشاهير المؤسّسين الأوائل للرهبانيّات، القدّيس مارون، شفيع الطائفة المارونيّة، الذي لم يُعرف مكان مولده وتاريخه، إنّما كانت وفاته حوالى سنة ٤١٠.

عاصر القدّيس مارون، أسقف قورش ثيودورتيس Théodorêtos (نحو ٣٩٣ ـ ٤٦٦). وكان هذا كاتباً سجّل أحداثاً تاريخيّة كنسيّة عاصرها، وقد ذكر في مدوّناته مارون الناسك في عداد نسّاك أبرشيّته. وأوضح أنّه اعتكف على إحدى القمم قرب هيكل وثنيّ، حيث قضى حياته بالصلاة والتوبة. كما قال هذا الأسقف المؤرّخ المعاصر لمارون إنّ الله قد منّ على الناسك مارون بالقدرة على الشفاء، وإنّ

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢٩٠.

الناس كانوا يقصدونه للتبرّك ولالتماس الدعاء، وإنّ بعضهم تتلمذ عليه وسار على خطاه[1].

ومن الذين عاصروا مارون، القدّيس يوحنّا فم الذهب (٣٤٧ ـ ٤٠٧)، أحد آباء الكنيسة ومعلّميها. وكان يوحنّا، وهو من مواليد إنطاكية، قد مارس هو الآخر الحياة النسكيّة لبعض الوقت، وأصبح بطريركاً على القسطنطينيّة (٣٩٨ ـ ٤٠٤) وعانى الاضطهاد على يد الأمبراطورة أفدوكية زوجة الأمبراطور البيزنطيّ أركاديوس (٣٩٥ ـ ٤٠٨) فنفته لأنّه وبّخ بمواعظه أهل البلاط البيزنطيّ على سيرتهم. وقد لُقب يوحنّا بفم الذهب أو الذهبيّ الفم لبلاغته. وقد نُسبت اليه الليتورجية: أي مراسيم الخدمة الدينيّة المشهورة في الكنيسة اليونانيّة.

ورد أوّل ذكر في المدوّنات التاريخيّة الكنسيّة للقدّيس مارون في رسالة بعث بها القدّيس يوحنّا فم الذهب من منفاه في مدينة كوكوزة من بلاد أرمينية حوالى سنة ٤٠٤ أو ٤٠٥ الى «مارون الكاهن الناسك» جاء فيها:

> «إنّ علائق المودة والصداقة التي تربطنا بك، تمثّلك نصب عينينا كأنّك حاضر لدينا، لأنّ عيون المحبة تخرق من طبعها الأبعاد ولا يضعفها طول الزمان. وكنا نودّ أن نكاتبك بكثرة لولا بعد الشقّة وندرة المسافرين إلى نواحيكم. والآن فإنّا نهدي إليك أطيب التحيّات، ونحبّ أن تكون على يقين من انّنا لا نفتر عن ذكرك أينما كنّا لما لك في ضميرنا من المنزلة الرفيعة. فلا تضنّ أنت علينا أيضاً بأنباء سلامتك. فإنّ أخبار صحّتك تولينا، على البعد، أجلّ سرور وتعزية في غربتنا وعزلتنا، فتطيب نفسنا كثيراً إذ نعلم أنّك في عافية. وجلّ ما نسألك أن تصلّي الى الله من أجلنا[2]».

ومن مدونات ثيودوريتس، بالإضافة إلى ذلك، ما ذكره مفصلاً في تاريخه الخاص بأصفياء الله من النسّاك مخصّصاً مارون بقوله:

١ ـ Théodoret, Hist. Ecc., XVI, XXI, XXII, XXX

٢ ـ الرسالة السادسة والثلاثون من رسائل القديس يوحنا فم الذهب المنشورة في مجموعة الآباء اليونان، Migni وراجع: Pierre Dib, l'église Maronite, P. 41

«هذا ـ أي مار مارون ـ أيضاً زيّن مصافّ القدّيسين. فإنّه إذا اعتنق المعيشة في العراء. احتلّ قمّة جبل كان موضوع إكرام لدى الكفّار (الوثنيّين). وبعد أن طهّره من الشياطين مكرّساً إيّاه لله، أقام فيه منشئاً هنالك خيمة ما استعملها الا نادراً. ولم يقتصر على الاعمال النسكية المعتادة لكنه أوجد طرقاً أعظم بهدف جمع غنى الحكمة كاملة، فإنّ جزاء المحارب يقاس بعمله. ووهبه الله مواهب الشفاء حتّى اشتهرت أخباره بين الناس في جميع الآفاق، فتقاطروا عليه من كل حدب وصوب، بعد أن كانوا قد خبروا أنّ ما اشتهر عن مارون من فضائل وعجائب صحيح. فلقد كان يزيل عنهم إضطرام الحمّى المتوقّدة بندى البركة وظلّ النعمة، وكانت الشياطين تهرب من عظمة سطوته، فإذا كان الأطبّاء الحاذقون يعالجون الأمراض المختلفة بعقاقير مميّزة، فهذا العظيم القدر كان يعالج الأمراض كافّة بدواء واحد خاص: الصلاة، لأنّ صلاة الأبرار دواء عام في طبّ العاهات. وما كفى أنّه كان يبرئ الداء الجسديّ فقط بل الروحانيّ أيضاً. كان يداوي الأنفس بما يتطلّب شفاؤها. يشفي أحدهم من داء البخل، والآخر من داء الغضب، وآخر يصف له دواء القناعة، ويعلّم سواهم قانون العدل، ويحذّر بعضهم من الشرّ، ويشفي من الضجر، ويوقظ من غفلة الفتور، إلى غير ذلك من الأمراض النفسيّة. وبينما هو مهتمّ بالعمل الإلهيّ وبشفاء الأنفس والأجساد، تحمّل مرضه الى أن انتقلت روحه من هذه الحياة. فحدث عراك شديد إثر وفاته بين مجاوريه، إلى أن تمكّن سكّان البلدة المتاخمة الكثيرو العدد، الذين حضروا بأجمعهم، من هزيمة الآخرين، فاختطفوا الكنز المشتهى للغاية، وأقاموا عليه هيكلاً عظيماً جدّاً. ولا يزالون إلى يومنا هذا ينالون المنفعة مكرّمين هذا المنتصر بحفلات عامّة. ونحن مع كوننا غائبين ننعم بالبركة اذ يعوّض ذلك عن المكان[١]».

أمّا أقدم دير للرهبان أتباع مار مارون، فقد بُني سنة ٤٥٢ على اسم «مارون أشهر نسّاك سورية الشماليّة» على أثر المجمع الخلقيدونيّ بأمر صريح من الأمبراطور مارسيان، كما ذكر المؤرّخ العربيّ أبو الفداء، وبطلب من النافذين في مجمع خلقيدونية، أي الأسقف ثيودوريه والبابا لاون[٢]. ووصف بعض الباحثين «دير بيت مارون بأنّه كان القلعة الوطيدة للعقيدة المسيحيّة حسب التحديد الخلقيدونيّ[٣]».

---

١ ـ راجع: Théodoret في المرجع الأسبق.
٢ ـ الاباتي بولس نعمان في اطروحته: ثيودوريتس القورشي ودير مار مارون.
٣ ـ المرجع السابق مستشهداً بقول للمستشرق البحاثة Voobus

وفي مخطوط سريانيّ قيّم محفوظ في المتحف البريطانيّ، يحتوي على رسائل تبودلت إثر نقاش علميّ حصل في إنطاكية بين رهبان بيت مارون، الذين يمثّلون الفئة الخلقيدونيّة، ورهبان بيت أرباز، الذين يمثّلون الفئة اللاّخلقيدونيّة، اكتشفه العالم البريطانيّ François Nau، جاء في رسالة للاّخلقيدونيّين أنّ: «رهبان بيت مارون المقيمين في نطاق أفامية هم غرسة الكرمة الخلقيدونيّة ونصبة لاون بابا رومة، وفرع المرارة الذي نبت من الكرمة التي غرسها ثيودوريه أسقف قورش، وبكلمة، إنّهم أبناء الانشقاق الكبير الذي حصل في الكنيسة سنة ٤٥١. وإنّهم هم (أي أصحاب الطبيعة الواحدة) قد استطاعوا التخلّص من الأحمق أوطيخة، بينما الموارنة لم يستطيعوا التخلّص من تأثير ثيودوريه ولاون[١]».

يتّضح من كل ذلك أنّ رهبان مارون قد اتّبعوا بشكل لا يقبل الشكّ مقرّارت المجمع الخلقيدونيّ، حتّى إنّ إنشاء ديرهم سنة ٤٥٢ بأمر صريح من الأمبراطور وبطلب من البابا لاون والأسقف ثيودوريه، إثر المجمع الخلقيدونيّ المنعقد سنة ٤٥١ يجب، استنتاجاً، أن يكون قد حصل لتدعيم الخطّ الخلقيدونيّ ولمواجهة الخطّ المناهض.

ومن الأديار التي تأسّست في بدء العصر الرهبانيّ، أي في بداية القرن الخامس، ذلك الذي أسّسه في بيت لحم القدّيس إيرونيموس بمؤازرة أخيه پولينيانوس والكاهن منصور، للرهبان. وقد رافق إيرونيموس وصحبه تقيّتان هما پولا Paula وأستوكيوم Eustochium، فشيّدتا في جوار المذود المقدّس ببيت لحم، وبقرب الدير الأوّل، ديراً آخر للنساء. وبينما ترأّس إيرونيموس دير الرهبان، أشرفت پولا على دير الراهبات[٢]. والقدّيس إيرونيموس هو Jérôme Hieronymus (٣٤٧؟ ـ ٤١٧ أو ٤٢٠) من آباء الكنيسة، وُلد في دلماتية من أبوين شرقيّين

---

١ ـ المرجع السابق
٢ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢٩٤ بالاستناد الى: Helm R., Hieronymus zusatze in Eusibius chronik.

مسيحيّين تقيّين. وفي الثانية عشرة أرسله والداه إلى رومة حيث درس الفصاحة والبيان. وبعد أن استسلم لأهوائه، إرتد إلى المسيحيّة الصحيحة، فقبل سرّ المعموديّة على يد البابا ليباريوس (٣٥٢ ـ ٣٦٦) سنة ٣٦٥. وإذ سعى لاجتذاب شقيقته الصغيرة الى حياة التبتّل والتنسّك، غضبت عليه عمّته وطردته، فسافر إلى الشرق ونزل ضيفاً على الكاهن أفاغريوس في إنطاكية. وهناك درس اليونانيّة والعبريّة، وتعمّق في اللاهوت. ثمّ سار في دعوة التبتّل والتنسّك فاعتكف ببرّيّة خلقيس (قنسرين)، ثمّ عاد إلى إنطاكية سنة ٣٧٧، وكان في الثلاثين من عمره حين تقبّل درجة الكهنوت، وترقّى في درجاته إلى أن أصبح سنة ٣٨١ مقرّراً للمجمع المسكونيّ الثاني، ثمّ أصبح كاتباً لبابا رومة الذي أوكل إليه وضع ترجمة موحّدة للكتب المقدّسة. كان اسم ذلك البابا داماسس الأوّل (٣٦٦ ـ ٣٨٤) الذي بعد وفاته رشّح بعض الأساقفة إيرونيموس للسدّة الباباويّة، غير أن الفريق المعارض له رشقه بالاتّهامات الجائرة، ممّا جعله يقوم إلى إنطاكية، ومنها إلى عكة فيافة فأورشليم فبيت لحم، ومعه مَن ذكرنا من رفاق، حيث شيّدوا الديرين[1].

لم يكن إيرونيموس وپولا هما الوحيدين اللذَين أسّسا الأديار في هذه المنطقة، فإنّ عدداً من الحجّاج الغربيّين قد أسّس أيضاً الأديرة في أورشليم وبيت لحم وغيرهما من الأماكن المقدّسة في القرن الرابع، وأقام فيها معتكفاً على الصلاة والصوم والزهد. فبالاضافة الى ديرَي إيرونيموس وپولا في بيت لحم، هناك دير ميلاني للراهبات في أورشليم، ودير روفينوس للرهبان على جبل الزيتون. هذه الأديار يعود عهدها بحسب الباحثين إلى القرن الرابع. وفي المدوّنات ذكر لمالكوش الحبيس الذي اعتكف في النصف الأوّل من القرن الرابع في قنسرين، إضافة إلى أكثر من ثلاثين ناسكاً في براري سورية الشماليّة وسورية الوسطى، وقد وُصفوا بأنّهم فاقوا نسّاك مصر في ممارسة الفلسفة. وقد اشتهر من بين هؤلاء

١ ـ لحياة هذا القديس راجع:
Cavallera F., Saint Jérôme, Sa vie et son œuvre (Louvain, 1922) 2 Vols.; Monceaux P., Saint Jérôme, la jeunesse, l’Etudiant, l’Ermite, (Paris, 1932)

إبراهيم القيدونيّ، الذي زهد بعد سبعة أيام من عرسه، واشتهر بالورع والتقوى، ولمّا توفّي سنة ٣٦٦، احتشد المؤمنون لتشييع جنازته وتسابقوا لاقتطاع شيء من ثيابه تبرّكاً، ذلك أنّ بعض المؤمنين كان قد تطرّف في موقفه من لذّات الجسد، ولا سيّما في أمر الزواج، فافترق الزوجان ليلة العرس، أو حافظا على العفّة أبداً، أو ترك أحدهما الآخر رغم فائق المحبّة وشدّة التعلّق، وعاد البعض إلى تمجيد التأبّد والتبتّل والدفاع عنهما دفاعاً عقليّاً منطقيّاً، ولا تخلو بعض مصنّفات الآباء القدّيسين من التأسّف الشديد على وجوب المحافظة على الجنس بالطريقة الجسديّة المعروفة واصفين ما يتّبعها من عواقب بالنجاسة والقذارة[1].

في القرنين الخامس والسادس تكاثر عدد الرهبان حتّى أصبحوا يُعدّون بعشرات الألوف. وكما انقسمت الكنيسة على صعيد الأسقفيّات كذلك انقسمت رهبانيّاً. إلاّ أن نظم الفئتين الرهبانيّتين بقيت تلك التي وضعها باسيليوس الكبير الذي بقي زعيماً معنويّاً للمعسكرَين اللذين اتّخذا منه مُثلهما العليا. وهكذا فقد عمرت تلال إنطاكية وأفامية وآمد والرها بالأديرة. وانتشرت الصوامع في بعض أنحاء البادية[2]. كما قامت، في «طريقة» مستحدثة، قلاّيات إلى جانب الأديرة أوى كلّ منها ناسكاً واحداً اشتهر بورعه وزهده وقداسته، وكانت له الحرّيّة لقهر الجسد كيفما شاء، تلك القلاّيات هي التي عُرفت عند الكنيسة المارونيّة بالمحبسات ومفردها محبسة. ومن أغرب ما توصّل إليه البحث عن قهر الذات والتنسّك والاعتكاف في هذا المجال، رؤوس الأعمدة، فلقد اختار بعض النسّاك لهم رؤوس الأعمدة وقضوا عليها السنين الطوال زاهدين متقشّفين متوحّدين. وأشهر

١ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٢٨٩ و ٢٩٧؛ Patrologia Latina, Vol. 23, Col. 29 - 54; Sozomène Hist. Ecc., VI 23 - 24; Bam C., Chrysostomus und Seine Zeit, I, 85f.; Martin P., Zeit. Fur. Katolische theologie, 1880, PP. 426 - 437; Socrates, Hist. Ecc., VI, 23; Saint Jérôme, Epis. LXVI, 3; Palladius, Hist. Laus., LXI, 2; Saint Augustin, Soliloq., I, 9, 17, Conf., X, 30, 2 Civitate dei. XIV, 16; Chrysostomus, Saint Jean, de Virgin., XIV

٢ ـ للاطلاع على سير الرهبان والنساك في تلك الحقبة راجع: Douwen et land, Iohannis episcopi., ephesini (Amsterdam, 1889)

هؤلاء القدّيس سمعان العموديّ الأكبر (نحو ٣٨٩ ـ ٤٥٩) وسمعان العموديّ الأصغر (نحو ٥١٧ ـ ٥٩٢).

وُلد سمعان الأكبر في قرية سيسان الواقعة بين سورية وقيليقية. وبعد أن عمل راعياً في بدء صباه، قصد أحد الأديار وهو حديث السنّ فقضى فيه سنتين. ثمّ انتقل إلى آخر أكثر فقراً. ولكثرة ما بالغ سمعان في أساليب قهر الذات والإماتة، إذ من جملة ما كان يفعله في هذا المجال أنّه كان يشدّ على وسطه حبلاً أدماه وقرح جلده، طلب إليه رئيسه أن يترك الدير ويذهب حيث يشاء ويمارس ما شاء من أساليب قهر الذات.

لم نطالع في سيَر النسّاك والزهّاد ما هو أشدّ قهراً للذات وتعذيباً لها ممّا مارسه سمعان العموديّ الكبير في حياته. فبعد أن ترك الدير مطيعاً رئيسه تصومع على سفح قريب من إنطاكية. ومن جملة ما أقدم عليه في هذا المجال أنّه صام أربعين يوماً صياماً مطلقاً مراراً عديدة. وفي خطوة فريدة من نوعها بنى لنفسه صومعة بلا سقف على ذلك السفح المقفر، وقيّد نفسه بالحديد إلى إحدى زواياها، وأقام فيها متحمّلاً لسع الصقيع ولهب الشمس، ولم ينقطع سمعان عن ذلك القيد إلاّ بعد أن مرّ به أحد متفقّدي النسّاك من رجال الدين وأرشده بقوله: «مَن لم يكن إيمانه قيداً له لا ينفعه قيد». عندها فقط نزع سمعان القيد من رجله. بيدَ أنّ إقبال الناس عليه تبرّكاً أخافه خشية خروجه عن النسك. فانتقل من صومعته إلى مكان بعيد وبنى لنفسه عموداً في العراء ليتّقي من خلال الصعود إليه شرّ الوحوش المفترسة، ولكنّ الناس أدركوه بعد البحث. أمام هذا الواقع لم يرَ سمعان بدّاً من الانصياع لمشيئة الله، فجعل من عموده منبراً للتبشير. ومن هنا اتّخذ سمعان لقب العموديّ بعد أن ذاع صيته في الشرق، فأخذ الناس يتوافدون عليه افراداً وجموعاً من الطبقات كافّة طالبين التبرّك والشفاء. حتّى إنّ بطريرك إنطاكية قد أتاه يوماً حاملاً القربان الأقدس ليناوله بيده. هذا بعض ممّا ذكره السنكسار عن سمعان العموديّ الأكبر.

وفق هذه الظروف المعيشيّة كان من الطبيعيّ أن يصاب سمعان بأمراض عديدة. الاّ أنّ هذا لم يفقده إرادة النسك وقهر الذات. وفي يوم من أيّام سنة ٤٦٩ جاء الناس كعادتهم وتحلّقوا حول عموده وراحوا يصلّون. وكان سمعان راكعاً يصلّي كعادته، ولكنّه لم يطلّ عليهم عند عصر ذلك اليوم مرشداً معزّياً شافياً مثلما عوّدهم، بل بقي ساجداً مصلّياً. وانقضى ليل وجاء عصر آخر وبقي سمعان على حاله. فصعد إذ ذاك إليه بعضهم فوجدوه جثة هامدة[1]. ونُقل ما تبقّى من سمعان إلى كنيسة كاسياني. ومنها فيما بعد إلى كنيسة الاتحاد للتوبة. وبقي عموده مزاراً، وشُيِّدت حوله كنيسة ملوكيّة يحيط بها دير كبير، وكلاهما من روائع الهندسة المسيحيّة السوريّة. وما يزال هذا الموضع قائماً حتّى اليوم، وهو يعرف بـ «قلعة سمعان».

يُجمع المؤرّخون على أنّ أعمال سمعان العموديّ الأكبر قد بهرت البادية بأسرها، ممّا دفع قبائلها العربيّة إلى التنصّر. وجاء في المدوّنات أنّ أهل الحيرة بجميع عشائرهم كانوا يقصدون هذا القدّيس ليستمعوا إلى وعظه وإرشاده. وعندما منعهم النعمان، ملك الحيرة، من ذلك خشية اعتناقهم المسيحيّة، رأى هذا الملك العربيّ في منامه رجلاً جليلاً يدخل عليه ممسكاً بسيفه آمراً بجلده، فأطبق على الملِك خمسة رجال وراحوا يجلدونه. ثمّ سمع الرجل يقول: «حذار! حذار! لمَ منعت قومك عن زيارة سمعان؟ أوَلا تدري أنّي أقطّعك إرباً!» فكان أوّل ما فعله النعمان أنّه سمح لقومه باعتناق المسيحيّة[2].

لم تقتصر آثار سمعان على كلّ ما ذُكر، بل ترك اسمه لينتسب اليه الجبل الذي تنسّك فيه قرب حلب، فأصبح يُعرف بجبل سمعان. إضافة إلى الاسم الذي تركه على المجمّع الذي أقيم حول عمود عاش عليه ٣٧ سنة: قلعة سمعان. ومن

١ ـ راجع: De Lahaye H., les Saints Stylites, XXXI - XXXII; Théodoret, Hist. Ecc., 36.

٢ ـ Nau F., Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie (Paris, 1933) P. 38

أهم آثاره، إضافة الى تنصر عرب البادية، نهج التنسّك على عمود الذي أصبح متَّبعاً بشكل لافت. حتّى إنّ بعض المدوّنات يذكر عدّة نسّاك عموديّين اسمهم سمعان، منهم القدّيس سمعان العموديّ الأصغر المعروف بالبحريّ، الذي تنسّك هو الآخر على عمود بالقرب من إنطاكية، ثمّ في جبل قريب من مصبّ العاصي. ومن العموديّين من حملوا غير هذا الاسم[١].

***

لا يمكن للباحث أن يفصل بين الرهبنة والتنسّك في القرون الثلاثة الأولى التي ظهرت فيها الرهبنة. فإنّ تأسيس الرهبنات الذي بدأ على أنّه جمع للنسّاك المتوحّدين في مؤسّسة نسك جماعيّة، لم ينه النسك التوحّديّ الإفراديّ بشكل ملحوظ، فقد بقي النسك الإفراديّ منتشراً في نواحي الشرق بشكل يبدو أنّه كان كثيفاً. لذلك تخلط المراجع، أو على الأقلّ تَجمع في مدوّناتها، بين أخبار النسّاك وأخبار الرهبان إلى حدّ يصعب معه فصل إحداها عن الأخرى بشكل دقيق. وغالباً ما اعتبر المجتمع، آنذاك، كما اعتبرت الدولة، النسّاك والرهبان اسمين لمسمّى واحد.

أزعج الرهبان والنسّاك الوثنيّين بشكل حاد. فراح الأخيرون يتّهمون أولئك الزهّاد المسيحيّين بأنّهم سخفاء أعداء للمجتمع المدنيّ وللمسرّات الطبيعيّة، وبأنّهم يبذرون الشقاق في مجتمعاتهم ويلحقون الأضرار بهياكل الآلهة. بل اتّهموهم بأنّ فيهم أرواحاً نجسة، فصوّروهم كشياطين يظهرون فجأة ليتغالظوا على الناس ويشاكسوهم وليبتعدوا عنهم بعد ذلك إلى القفار ليغودوا من جديد مكرّرين فعلتهم. وكتب ليبانيوس[٢] سنة ٣٨٤ إلى الأمبراطور ثيودوسيوس رسالة طالباً فيها

١ - راجع: Synodicon Oriental "Chabot", 285; Lietzmann H., Das Leben des Heiligen Symeon stylites; Dawes E., and Baynes N. H., three Byzantine saints, (Oxford, 1948).

٢ - ليبانيوس (٣١٤ - حوالى ٣٩٣): كاتب وخطيب سوري باللغة اليونانية. ولد في انطاكية وفيها اسس مدرسة للبيان. اشتهر بين طلابها القديسان يوحنا فم الذهب وباسيليوس الكبير. أما هو فقد كان فيلسوفاً وثنياً صديقاً للامبراطور يوليانوس الجاحد (٣٣١ - ٣٦٣) وقد دافع معه عن الهلينة.

تدخُّله الفعّال ضدّ من وصفهم «بالمخرِّبين للهياكل مالئي الكهوف والمغاور، وليس فيهم من الزهد سوى معاطف سوداء يرتدونها، إلاّ أنّهم يأكلون أكثر من الفيلة ويشربون وهم يرتّلون ما يضني العبيد من كثرة السكب. يصفِّرون وجوههم، ولكنّهم يخفون تحت هذا التلوين بلبلة وتشويشاً». وجاء في الرسالة: «أيّها الأمبراطور، هؤلاء هم الذين يهاجمون الهياكل متجاوزين القانون جالبين الحطب لإشعال النار بها مزوَّدين بالحجارة والحديد للهدم والتدمير[١]».

ولم تكن السلطة بحاجة الى رسالة الفيلسوف الوثنيّ كي تلاحق الرهبان، إذ كان الأمبراطور الرومانيّ ڤلافيوس - Valens (٣٦٤ - ٣٧٨) الذي اعتنق الآريوسيّة، قد أصدر قانوناً يقضي بأن يقوم الرهبان بالخدمة العسكريّة. وقد لاقى هؤلاء من التشدّد والظلم والقساوة كثيراً على يد جيش الأمبراطوريّة الذي راحت فرقة منه تلاحق الرهبان والنساك حيث وجدوا وتسوقهم وسط الهزء والإذلال والضرب إلى مجمّعات الخدمة، وقد استشهد عدد كبير من أولئك الزهّاد بسبب تلك الأعمال[٢].

لم يكن الوثنيّون والسلطات الوحيدين الذين أزعجهم النسّاك والرهبان. فلقد انقسم منظّرو المسيحيّة آنذاك بين مؤيد للزهد والتنسّك والتبتّل ورافض لها. وقد اعتبر بعض هؤلاء الأخيرين التقشّف والترهّب ضرباً من الجنون، وحارب أصحاب هذه النظرة كلّ أنواع الزهد والتنسّك. وعندما كان المجتمع الوثنيّ يقابل وفود هؤلاء النسّاك والرهبان من البراري إلى المدن بالعداء، كانت الأوساط المسيحيّة، في غالبيّتها، تقابلهم، وهم بوجوههم الصفر وشعورهم الحليقة وألبستهم الحقيرة، بالسخرية المحقّرة[٣].

١ - Libanius, Oratio, II, P. 32

٢ - راجع: Théodoret, Hist. Ecc., IV, 19; Saint Jérôme, Chron., 2 - 48

٣ - Chrysostomus, Contre les détracteurs de la vie monastique, I, 2f, II, 6f, III; trad. le grand, (Paris, 1933), 89 ff.; De gubernatione Dei, VIII, 4.

كذلك أزعج النسّاك والرهبان أحياناً الأساقفة والبطاركة. ذلك أنّ التنسّك والترهّب اعتُبر في شكل من الأشكال بأنّه انتقاد للحياة الإكليريكية يومها. ذلك أنّ الرهبان والنسّاك وجدوا يومها أنّه من المستحيل تحقيق حياة مسيحيّة حقيقيّة في الكنيسة التي كانت قائمة[1]. فبات تدخّل الرهبان والنسّاك في أمور الكنيسة أمراً مرفوضاً في بعض الأحيان من قبل بعض الأساقفة والبطاركة الذين اتّهموا أولئك بالسحر والشعوذة. ولكنّ هذا الوضع لم يكن عامّاً، بل كان التعاون واضحاً أحياناً بين النسّاك والرهبان والكنيسة في الشرق. فكان بعض الرهبان يعمل في التبشير بقيادة كنيسة انطاكية[2].

ولكن يبدو لنا أنّ الحياة الرهبانيّة قد خرجت عن مسارها الأساسيّ، لا بل الطبيعيّ، في بعض الأحيان، وهذا شأن كلّ رسالة في التاريخ. فلقد ذكر بعض المراجع تحريم مجمع محلّيّ، عُقد في اللاذقية، الربا على الكهنة، ومنعهم من ارتياد الفنادق، وأوجب عليهم مغادرة الأعراس قبل بدء الرقص، والابتعاد عن الحمّامات العموميّة فور دخول النساء إليها. كما منع الكهنة من نقل فضلات موائد الحفلات إلى بيوتهم، ومنعهم من ممارسة السحر والتنجيم[3]. وكانت قد ظهرت أعمال عنف من بعض الرهبان في الرها عندما هاجموا طائفة غنوسيّة وأضرموا النار في معبدها، كذلك هاجموا كنيساً يهوديّاً وأحرقوه. وقد أدّى ذلك إلى سنّ قوانين أمبراطوريّة سنة ٣٩٠ منعت الرهبان من الإقامة في المدن، وأخرى حرّمت عليهم التدخّل في الشؤون المدنيّة وارتياد مراكز السلطة[4].

ولكن بعد قرن من ذلك التاريخ، تطالعنا المدوّنات بأنّ الرهبان المونوفيزيّين

١ - Duchesne L. Histoire Ancienne de l'église, II, 491

٢ - راجع: Olaf Hendriks, Activité Apostolique des premiers moines syriens, Proche - Ori-ent Chrétien, (1958), 25

٣ - راجع: Labriole P. Morale et spiritualité, Fliche et Martin, histoire de l'église, III, PP. 382 - 384

٤ - راجع: Labriole P. Saint Ambroise, PP. 109 - 125; Cod. Theod., VI, 36, XVI, 3.

قد استعملوا العنف في المجمع المسكونيّ الرابع السيّئ الذكر، الذي عُرف بالمجمع اللصوصيّ، وهو الذي انعقد في أفسس صيف ٤٤٩، حيث لم يحترموا لجوء خصمهم فلاڤيانوس إلى مذبح الكنيسة، فجرّوه حتّى أوقعوه أرضاً وراحوا يدوسونه، فتوفّي بعد ثلاثة أيّام متأثّراً بكدماته[1].

ومن أخبار الرهبان المونوفيزيّين في فلسطين أنّهم اتّبعوا أفدوكية التي قالت بالطبيعة الواحدة، وكانت تنفق عليهم بسخاء. وكان قد أمّ فلسطين عدد كبير من النسّاك والرهبان وقالوا بالطبيعة الواحدة. وفي حوالى ٤٥١ أصبح الرهبان القائلون بالطبيعة الواحدة يشكّلون الأكثريّة في الشرق، يوم كانت الكنيسة بأحبارها منقسمة مناصفة بين استقامة الرأي والمونوفيزيّة[2]. حتّى إنّ أحد الرهبان: ثيودوسيوس، قد تزعّم القول بالطبيعة الواحدة. وقد وصف بعض المؤرّخين الراهب ثيودوسيوس بأنّه: «كان مشاغباً من الطراز الأوّل. وأنّه كان يجمع في شخصه صفتَين قلّما اجتمعتا في شخص واحد: الممالقة والوقاحة. وإنّ صلابة وجهه كانت قد دفعت ديوسقورس[3] في الإسكندريّة إلى أن يأمر به، فجُلد وأركب الأجرب الأعرّ[4]!»

وفي المجمع الخلقيدونيّ سنة ٤٥١ ظهر عدد كبير من الرهبان الذين كانت تتزعّمهم أفدوكية، فاغتاظوا لمقرّرات المجمع «وقبّحوا وأنكروا وتمادوا في اللوم... وعندما عاد أسقف أورشليم يوبيلانيوس إلى أسقفيّته، حاصره الرهبان المعارضون لمقرّرات المجمع الخلقيدونيّ، وخيّروه بين الموافقة على موقفهم من المجمع، أو الاستقالة والعزلة، فرفض. فأحاط الرهبان به من كلّ جانب وهدّدوه بالقتل. وإذ

١ - Mansi, VI, Col., 691, 1017, VII, Col. 68

٢ - راجع: Abel F. M. Histoire de la Palestine, II, PP. 334 - 340

٣ - ديوسقورس: بطريرك الاسكندرية (٤٤٤ - ٤٥١) حُطّ عن كرسيه وخذل في مجمع خلقيدونية لاتباعه مذهب اوطيخة.

٤ - Evagrius, Hist. Ecc., II, 5

تمكّن من الفرار، إغتالوا سويريانوس أسقف بيسان... ممّا أدّى إلى سيامة أساقفة على فلسطين يقولون بالطبيعة الواحدة[1]. وعندما أرسل الأمبراطور ماركيانوس قوّة عسكريّة للاقتصاص من الرهبان، لجأ هؤلاء إلى العنف، فكانت معركة وقعت قرب نابلس سقط فيها عدد كبير منهم. أمّا الباقون فظلّوا خاضعين لإرادة أفدوكية، ممّا اضطر رومة على أن تتدخّل لإنقاذ الوضع، فكتب البابا لاون الكبير إلى أفدوكية يحضّها على إنقاذ الرهبان من الضلال[2].

وكما في فلسطين كذلك في وادي الفرات «سار على أفواه النسّاك والرهبان القول بالطبيعة الواحدة. ومنهم راهب اسمه بطرس القصّار، جاء إلى إنطاكية وألّف عصابة تمكّن من خلالها من التوصّل إلى سدّة الأسقفيّة الإنطاكيّة[3]». إلاّ أنّ هذا العمل أوقع انقساماً في إنطاكية بعد مشاكسات طويلة السيرة لبطرس هذا الذي انتقل فيما بعد إلى مصر، وأحدث شرخاً مماثلاً في كنيستها دام أكثر من خمس وثلاثين سنة. فدخلت كنائس الشرق في حالة فوضى درجت فيها سيامة أسقفين على كلّ كرسي، إحدهما أورثوذكسيّ والآخر مونوفيزيّ. وقد استمرّت هذه الأحوال بعد موت بطرس.

غير أنّ المدوّنات لم تفد عن خروج للرهبان المستقيمي الرأي عن خطّهم الأساسيّ والطبيعيّ. على أيّ حال فإنّ الرهبانيّات عشيّة ظهور الإسلام، كانت لا تزال منتشرة، ومنقسمة، وكذلك كان النسّاك والزهّاد لا يزالون منتشرين أفراداً في البراري والقفار.

١ - رستم، كنسية مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٤٧ بالاستناد الى: Bardy G., luttes christologiques, IV. PP. 276 - 277; Bardenhewer O., Gesch. Der. Altkirchlichen. Lit., IV PP. 315 - 317

٢ - Jaffé - Wattenbach, Regesta, 499

٣ - رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج١، ص ٣٤٩ استناداً الى Téodore le lecteur, hist. Ecc. I, 20 - 22

بينما كانت المسيحيّة تشقّ طريقها إلى القلوب والعقول بعد مجيء المسيح، كان عليها أن تواجه التيّارات الفكريّة التي كانت قد بهرت العقول في ذلك العصر الناهض من التاريخ. فلقد جاء المسيح يوم كان العصر رومانيّاً في الشرق. وكانت البلاغة أحبّ الآداب عند الناس. والبليغ «كان الشخص الذي يترافع أمام المحاكم ويعلّم الناس فنّ المرافعة». غير أنّه، عمليّاً، كان البليغ «محاضراً يذهب من مكان إلى آخر ليظهر مقدرته كخطيب أمام الجماهير المتعلّمة... فكان البلغاء يخطبون في عدد كبير من المواضيع دون أن يقتنعوا بصحّتها[1]». وكانت البلاغة عنصر مباهاة، وكانت مادّة أرستقراطيّة. ومن الأمثلة على المباهاة، أنّ أدريانوس الصوريّ، عندما هاجر إلى أثينة «حيث تبوأ كرسي البلاغة، وفي الخطاب الافتتاحيّ الذي وجّهه إلى الأثينيّين[2]، أسهب في الكلام، ليس على حكمتهم، بل على حكمته، لأنّه بدأ كلامه بقوله: للمرّة الثانية تأتي الآداب من فينيقية[3]». ومن أدريانوس أيضاً نسوق مثل أرستقراطيّة البلاغة، إذ كان هذا البليغ الصوريّ «يلبس الثياب الثمينة ويزيّن نفسه بالجواهر ويركب، في طريقه لإلقاء محاضراته، عربة كانت لجمُ خيولها مطليّة بالفضّة... وعندما كان أدريانوس في أثينة قابل الأمبراطور ماركوس أوريليوس الذي دعاه في طريق عودته الى العاصمة لزيارة بلاطه. وكان أدريانوس مسروراً بمغادرة أثينة حيث حوكم وبرئ من تهمة قتل سفسطائيّ أهانه. وشرّف أدريانوس الأمبراطور بصداقته له، حتّى إنّه تنازل وعيّن له موضوع إحدى خطبه. وعيّنه كومدوس، خلف أوريليوس، سكرتيره الخاص[4]».

١ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣٥٤

٢ - المرجع السابق.

٣ - Philostratus and Eunapins, the lives of the sophists, Ed. and tr. Wilmer C. Wright (London, 1922), P. 227

٤ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١ ص ٣٥٥

كان أمثال أدريانوس عديدين. ومن هؤلاء: أنتيباثر تلميذ أدريانوس، وقد عاش في النصف الأوّل من القرن الميلاديّ الثاني. ولوكيانوس السميساطيّ المولود حوالى سنة ١٢٥. وسواهما ممّن كانوا يمتهنون الأدب المأجور أحياناً.

وفي أفضل الأحوال، كان الفكر يتناول الأفلاطونيّة الحديثة، إضافة إلى السفسطائيّة. وكانت أفامية قد غدت في القرن الثالث مركز مدرسة للأفلاطونيّة الحديثة. وأغلب الظنّ، أنّ النظريّة الجوهريّة قد وُضعت في مدينة صيدا. أمّا صور، فقد حافظت على شهرة عالية في الفلسفة. وكان للإسكندريّة أيضاً مكانة عالية في هذا المجال. أمّا بيروت، فقد برزت في مجال القانون بفضل مدرسة الحقوق الرومانيّة التي ازدهرت فيها منذ أوائل القرن الثالث حتّى منتصف القرن السادس. وقد سمّى يوستينيان مدينة بيروت «أمّ القوانين ومرضعتها». ومن معهدها برز أقطاب القانون في ذلك العصر، أمثال بابينيانوس واولبيانوس.

كان فلاسفة الأفلاطونيّة الحديثة يتناولون في اجتهاداتهم مواضيع العقل والروح واللاهوت بوجه عام. إضافة إلى الرياضيّات ونظريات الأرقام وموضوع خلود العالم، كما اجتهدوا في مواضيع علم النفس، غير مفرّقين بين المفهومَين الحديثَين لكلٍّ من «النفس» و «الروح[1]».

وسط هذه الأجواء الفكريّة، كان المفكّرون من كبار معتنقي المسيحيّة يحاولون تعميم الإيمان بالدين الجديد على مستوى العقل، بعد أن آمن العامّة من قبيل الرجاء والعاطفة. وإذا كان الفقراء والمنبوذون والمساكين والمرضى قد وجدوا في الدين الجديد ملاذاً ورجاء فأقبلوا عليه هرباً من اليأس، فإنّ اولئك الأرستقراطيّين المتباهين من أهل الفكر، لم يجدوا في الدين الجديد ما يتناسب وكبرياءهم. من هنا، فإنّ المهمّة الأصعب التي واجهتها الكنيسة يومذاك، كانت

١ - راجع: Zeller Ed., Die Philosophie der Griechen, 3ed. ed. (Leipzig, 1881) Vol. III, pt. 2, PP. 636 - 677, 700

استقطاب أهل الفكر واستيعابهم. وكان عليها أن تتمكّن من الانتصار، في الوقت نفسه، على ديانات الأسرار التي كان الانتساب إليها بدوره أرستقراطيّاً، مقتصراً على أولئك الذين أُتيح لهم الاطّلاع على أسرارها.

أوّل من برع في مجال الفكر المسيحيّ في بداية عهد المسيحيّة، كان أولئك الذين عُرفوا بـ «الآباء الرسوليّين». وقد عُرفوا بالرسوليّين لمعاصرتهم بعض رسل المسيح. ومن أشهر هؤلاء، القدّيس أغناطيوس الإنطاكيّ الذي تتلمذ على يد يوحنّا الرسول، وخلف بطرس في أسقفيّة إنطاكية، ومات شهيداً في رومة حوالى سنة ١١٠. وهو واضع «الرسائل السبع» المحفوظة في تاريخ الكنيسة، والتي تنضح فكراً مسيحيّاً عميقاً، كان له تأثيره في الفكر الوثنيّ دون شكّ[1]. ومن آباء الكنيسة القدّيس يوستينوس Justinus (نحو ١١٠ ـ ١٦٣) وهو الكاتب والفيلسوف المسيحيّ الذي وُلد في نابلس من أعمال فلسطين، ودرس المذاهب الفلسفيّة طلباً للحقيقة فلم يقتنع، ثمّ اهتدى إلى المسيحيّة وأسّس مدرسة لاهوتيّة فلسفيّة في رومة. ووضع دفاعيّن شهيرين عن الدين المسيحيّ، قبل أن يتمّ استشهاده في رومة[2]. وتاتيانوس السوري Tatianus (١١٠ ـ ١٨٠) من مواليد الجزيرة السفلى الذي بدأ حياته الفكريّة هو الآخر باحثاً عن الحقيقة كما يوستينوس، إلى أن تنصّر في رومة ولزم هذا الأخير، فأخذ عنه وانتصر للمسيحيّة ودافع عنها، وأنشأ في رومة بعد استشهاد معلّمه مدرسة علّم فيها الدين وشرح الأسفار[3]. وتيوفيلوس الإنطاكيّ القدّيس الذي عُدَّ من آباء الكنيسة والذي ترأس أسقفيّة إنطاكية بين (١٦٩ ـ ١٨٥) وقد وضع مؤلّفات هامّة في عقيدتي التوحيد

١ - راجع: Eusibius, Bk III, 36.

٢ - راجع: Justin Apologia, I, 2; Lebreton J., Apologia, chret. IIe siècle, Fliche et Martin Hist. de l'Eglise, I, 427 - 451; Bardi, la conversion dans les premiers siècles, Année theol., 1941, 89 - 106, 206 - 232.

٣ - راجع: Orat., 29.; Quasten J., Initiation, I, PP. 249 - 250; Lebreton J, Talien, Fliche et Martin, Histoire de l'Eglise, I, PP. 451 - 454

والتثليث مجاهداً ضدّ الهراطقة. إلاّ أنّ هذا المجاهد المسيحيّ لم يكن مفكّراً من الطراز الأوّل وإن كان أديباً واسع الخيال رشيق اللفظ فخم الكلام، فهو، وإن كان قد سخر ممّن بحث في شكل الأرض وقال إنّ العقل البشريّ لا يمكنه أن يدرك ما إذا كانت الأرض كرويّة الشكل أو مكعبّة، فقد أجاد في الدفاع عن الكنيسة ومبادئها المستقيمة[1]. ومن أشهر مصنّفاته رسائله الثلاث إلى أوتوليكوس المجهول الهويّة تاريخيّاً، إنّما يتّضح من رسائل ثيوفيلوس له أنّه كان وثنيّاً مجّد آلهته وسخر من ثيوفيلوس لاعتناقه المسيحيّة، وهزئ من إلهه غير المنظور، ومن قيامة الموتى، فجاءت رسائل ثيوفيلوس ليردّ من خلالها على ذلك الوثني مجيباً بأنّ «الله روح لا يراه إلاّ المؤمن، ولا يجده إلاّ نقيّ القلب، ولا يُوصف لأنّه يفوق البصيرة، وإذا كنّا لا نبصره فإنّنا نلمس وجوده بمظاهر عنايته وتدبيره». أمّا بشأن قيامة الموتى فيقول: «أوَ ليس من الضروريّ أن نثق بالطبيب الذي يعالجنا، والمعلّم الذي يعلّمنا، والربّان الذي يقود سفينتنا؟ فأحرى بنا أن نؤمن بما يقوله الله لنا: الإله الحقّ لا آلهة الوثنيّين المزوّرة». ويتساءل ثيوفيلوس عن ماهيّة آلهة الوثنيّين وقيمتها وسبب توقّفها عن التناسل بعد خصبها الأوّل. ويهزأ من الفلاسفة الوثنيّين فيرى في اعترافهم بوجود هذه الآلهة وفي اختلافهم في الرأي حولها ضرباً من الجهل ودليلاً على عدم قيمة فلسفاتهم. كما أنّ ثيوفيلوس يشدّد على قصّة الخليقة كما جاءت في سفر التكوين مواجهاً بها ضآلة الأساطير اليونانيّة حول كيفيَّة نشوء العالم، مؤكّداً على أنّ الأنبياء وحدهم يستحقّون الثقة في ما يقولون بموضوع الخليقة، لأنّهم إنّما بوحي الله يتكلّمون. ليخلص بعد هذا كلّه إلى أنّ موسى والأنبياء أقدم بكثير من مشترعي اليونان وشرائعهم[2]. وخلاصة قول ثيوفيلوس هو بإله واحد خالق السماوات والأرض لا بداية له ولا نهاية حيّ قيوم لا يتغيّر. وهو آب لأنّه

---

١ - Usébe, Hist. Ecc., IV, 24; théophile, Ad. autol., II, 13, 24, 32, III, 18; Jérôme, Viris inlustribus, XXV; Tixeron J., Précis de patrologie, PP. 58 - 59

٢ - Théophile, Ad. autol, I, 2 - 9, II, 2 - 38, III, 16 - 23

سبق كلّ شيء وخلق كلّ شيء. وكان الكلمة عند الله وكان كائناً فيه، ففاه الله بالكلمة قبل كلّ شيء وصنع بها كلّ شيء. وانطق الأنبياء بالرّوح القدس فكانوا قدّيسين عادلين، وبحكمته تكلّموا على خلق العالم وعلى كلّ شيء[1].

وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ ثيوفيلوس كان القائل الأوّل بالثالوث الأقدس. إلا أنّ هذا أمر غير دقيق لأنّ القول بالثالوث قد جاء في الأناجيل نفسها. إنّما قد يكون ثيوفيلوس أوّل من استعمل لفظ الثالوث وليس أوّل من استعمل معناه. قد يكون أوّل من استعمل هذا اللفظ في الأدب المسيحيّ القديم. ومن خلال ما تبقّى من مدوّنات ثيوفيلوس وما أمكن حفظه، يتبيّن أن الأعمال الأدبيّة والفكريّة لهذا الأب الكنسيّ قد اقتصرت على رد بعض التهم الموجهة الى المسيحيّة دون أن يتناول العقيدة المسيحيّة بشكل كامل[2].

ومن الذين اشتهروا في هذا المجال: سرابيون Serapion وهو الأسقف التاسع على إنطاكية بعد بطرس. وقد صنّف رسائل عدّة في موضوع الدفاع عن الإيمان المسيحيّ، كما صنّف كتاباً في الإنجيل المزعوم لبطرس بيّن فيه التزوير المرقيونيّ.

ومن أشهر آباء الكنيسة الذين عاشوا قبل مجمع ليقية، أوريجين Origénès (١٨٥ ـ ٢٥٣) المولود في الإسكندريّة. وقد أصبح أشهر أساتذة مدرستها اللاهوتيّة، كما أسّس مدرسة أخرى في قيصريّة. ووُصف بأنّه من نوابغ الفكر البشريّ. وقد ترك آثاراً واسعة في اللاهوت، وشرح الأسفار المقدّسة، وإن كان قد تطرّف في بعض تعاليمه[3].

***

---

١ - Téophile, Ad. Autal, II, 9 - 10

٢ - Bardy G., Théophile d'Antioche, PP. 40 - 46

٣ - Justin. Apologia, I, 2

في العهد البيزنطيّ، «استمرّت المجادلات بين الكتّاب اليونان واللاتين من المسيحيّين، وبينهم من غير المسيحيّين، لعدّة سنوات، بعد اعتناق قسطنطين للديانة المسيحيّة. ولم تكن قد اندثرت بعد الأفلاطونيّة الحديثة التي بلغت أزهى عصورها في القرن الثالث والقسم الأوّل من القرن الرابع... وكان آباء الكنيسة يشقّون طريقهم إلى الأمام كقادة للفكر، بينما كان السفسطائيّون والبلغاء يتراجعون دون أن يزولوا تماما[١]».

في هذه الحقبة برز في انطاكية بلغاء سوريّون بعد أن أسّس ليبانيوس (٣١٤ ـ حوالى ٣٩٣) مدرسة للبلاغة فيها. وكان ليبانيوس هذا، هو «من مواطني إنطاكية، ويُظهر اسمه بعض العلاقة مع لبنان[٢]»، يحتقر المسيحيّة ويعدّها عدواً للحضارة الصحيحة، ولا يرى خيراً إلاّ في الهلّينية. كذلك فعل سواه من أساتذة هذه المدرسة امثال أميانس مرسلينوس (٣٣٠ ـ ٤٠١) الذي، وإن كان في مواقفه الفكريّة أكثر تسامحاً من ليبانيوس، كان على العموم مناهضاً للفكر المسيحيّ.

جعلت مدرسة إنطاكية، لكثرة ما انتجه أولئك المؤلّفون، من إنطاكية العاصمة الفكريّة لسورية الشماليّة، فمن تلامذة ليبانيوس ومدرسته سوف ينبغ فلاسفة ومفكرون مسيحيّون خيّبوا ظنّ أستاذهم عدوّ المسيحيّة. من هؤلاء من كان مستقيم الرأي أمثال يوحنّا فم الذهب وباسيليوس الكبير، أو أصحاب بدع أمثال آريوس ونسطوريوس. وما من شكّ في أنّ القدّيس يوحنّا فم الذهب (٣٤٧ ـ ٤٠٧) كان أبرز المؤلّفين المسيحيّين الذين أنجبتهم إنطاكية في تلك الحقبة من التاريخ.

كان يوحنّا يحصّل العلم أصلاً ليتخصّص في القضاء، إلا أنّه بُهر بالمسيحيّة التي نزلت على روحه دعوة حقيقيّة لا مناص منها، فتخلّى فجأة عن مساره المقرّر

١ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٩٣

٢ - المرجع السابق.

ليتّبع حياة الزهد في جبل قريب من إنطاكية. ومن ثمّ راح يعظ بفصاحة نادرة في مدينته إنطاكية داعياً إلى نبذ الميوعة في الأخلاق والترف في الحياة. ذلك أنّ جامعي الثروات في ذلك الزمان والمكان ما كانوا يعفّون عن وسيلة من أجل بلوغ غايتهم، فكانوا يستعملون العنف والاحتكار والخداع والربا الفاحش ضاربين عُرض الحائط مسألة المعوزين والمحرومين والمساكين. عنّف يوحنّا وأنّب وهاجم ببلاغته جميع هؤلاء. حتّى إنّه طال بهجومه البلاط الأمبراطوريّ بالذات، ممّا أغضب الأمبراطورة أفدوكية. فلقد كان يوحنّا هذا، ليس ذهبيّ الفم فحسب، بل أوّل ثائر مسيحيّ قياديّ في التاريخ، أمّا رسالته فكانت اجتماعيّة فريدة في ذلك العصر الذي تركّز فيه الفكر المسيحيّ على موضوعيّ الكهنوت واللاهوت. وقد أدّت شهرة هذا الثائر المسيحيّ البليغ إلى انتخابه سنة ٣٩٨ بطريركاً للقسطنطينيّة. وممّا من شأنه أن يلقي مزيداً من الضوء على الشخصيّة الفذّة لذلك المناضل المسيحيّ الإنسان، أنّه فور انتخابه بطريركاً لعاصمة قسطنطين كان أوّل ما فعله أنّه باع الكنوز التي كانت في الأسقفيّة، والتي كان قد جمعها أسلافه، وأنفق أثمانها على الفقراء والمعوزين. ولم يمنعه ارتقاؤه السدّة البطريركيّة من استئناف حملته البليغة الصاعقة على الجشعين والسلطويّين والمتسلّطين، ودعوته الصارخة لإنصاف الفقراء والمساكين. لقد كان هذا الأسقف الثائر أوّل من ترجم دعوة المسيح السماويّة إلى لغة أهل الزمان. لم يعرف تاريخ الكنيسة رائداً لإنصاف المرأة قبل يوحنّا فم الذهب، فهو أوّل من أكّد على أنّ خيانة الزوج في المسيحيّة، لا تقلّ شرّاً عن خيانة الزوجة. كان هذا بحدّ ذاته ثورة في المفاهيم الاجتماعيّة يومذاك. ولم تقتصر ثورة يوحنّا على المجتمع العلمانيّ وعلى البلاط وأهله، بل تعدّت كلّ ذلك إلى الكنيسة نفسها، إذ من سدّته البطريركيّة راح يطهّر الإدارة الكنسيّة بيد طاهرة كاوية مبتدئاً من الأعلى دون أيّ تردّد.

لقد كان يوحنّا جديراً بلقب أكثر أهمّيّة من الفم الذهبيّ، وإن كان كلامه سامي المدلول، ولكنّ ثورته المسيحيّة الرائدة كانت أبلغ من الكلام بكثير. لقد كان جديراً بأن يسمّى يوحنّا المحرّر.

لم يَرهب هذا الفذّ بإيمانه وريادته البلاطَ ورجال الدولة وكلّ ما يتبعها من خوَذ. وصف أفدوكية زوجة الأمبراطور أركاديوس بأقسى الألقاب، فأدان تكبّرها، وشبّهها بهيرودية Hériodiade زوجة هيرودس أنتيباس غير الشرعيّة التي حملت زوجها على قطع رأس يوحنّا المعمدان، محتجّاً على إقامة تمثال لها قرب الكنيسة العظيمة. وبالفعل، فإنّ يوحنّا لم يكن مخطئاً في تشبيهه لأفدوكية بهيرودية، وكأنّه كان مدركاً مصيره بما يشبه النبوّة. فمثلما اغتالت هيرودية يوحنّا المعمدان كذلك فعلت أفدوكية التي اضطهدت يوحنّا فم الذهب، ممّا أدّى إلى نفيه مرّتين من العاصمة. فتحمّل متاعبه كلّها بثبات وصبر، «إلى أن توفّي وهو في طريقه إلى المنفى في أقصى حدود الأمبراطوريّة قرب القفقاس، وقد أُجبر على المسير مسافات طويلة متعرِّضاً لأشعّة الشمس والأمطار، فانهارت قواه وتوفّي في الطريق[1]». ونُقل جثمانه «فيما بعد إلى القسطنطينيّة ودُفن في احتفال مهيب. وقد أكسبته شهرته كأعظم واعظ في الكنيسة الأولى لقباً عُرف به بعد وفاته وهو الذهبيّ الفم... ويدوم اعتبار يوحنّا على مدى العصور كمعلّم من أشهر معلّمي الأخلاق المسيحيّة الأولى الذين أنجبتهم الكنيسة». وقد وُجدت على جدار كنيسة آياصوفيّة سنة ١٩٤٦ صورة له من الفسيفساء مخبّأة تحت الملاط الذي غطّاها به الأتراك مع غيرها من الصور منذ قرون عدّة.

لم يكن يوحنّا فم الذهب الوحيد بين آباء الكنيسة الذين ظهروا في تلك الحقبة، وإن كان هو الأبرز. فلقد «أنجبت كنيسة إنطاكية عدداً من العلماء الأعلام الذين دافعوا عن العقيدة القويمة في عصر كثرت فيه البدع واشتدّ ضغط الهرطقة، وحافظوا على نصوص الأسفار المقدّسة في زمن كثر فيه اختلاف المعاني الرمزيّة[2]».

١ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ بالاستناد الى: Sozomenus, VIII, 28; Palladius, VI; Patrologia graeca, Ed. J.P. Migni, Vols: XLVII - XLIV (Paris 1862 - 1863); the Nicene and post- Nicene fathers of the christian church, Ed. Philip Schaff, Ser. 1, Vol. 9 - 14 (Newyork, 1889 - 1890).

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٠٢ - ٣٠٣

من هؤلاء ثيودوريتس (نحو ٣٩٣ - ٤٦٦) أسقف قورش، الكاتب السريانيّ الذي وضع مقالات وتاريخاً للكنيسة، وقاوم المونوفيزيّة في المجمع الخلقيدونيّ، قبل أن يُتّهم بالنسطوريّة وتُحرَّم مؤلّفاته سنة ٣٥٣. ومنهم أفلوغيوس أسقف الرها. وماركلّوس الشهيد أسقف آفامية. وكيريللوس، ويوحنّا أسقفا أورشليم. وأبيفانوس أسقف سلامينة قبرص[1].

ومن الذين اشتهروا من أهل الكنيسة في الربع الأوّل من القرن الخامس بمقاومتهم الآريوسيّين والماركيونيّين والمقدونيّين وعموم المونوفيزيّين، ثيودوريتس (٣٩٣ - ٤٥٧) الكاتب السريانيّ الذي وُلد ونشأ في إنطاكية وأخذ عن أساتذتها العلوم الدنيويّة، ثمّ نقل عن آبائها تفسير الأسفار المقدّسة واللاهوت قبل أن يقبل النذر ويدخل أحد الأديار بالقرب من آفامية معتنقاً الطهر والعفّة والتقوى، ممّا رفعه إلى درجة الأسقفيّة على قورش (٤٢٣ - ٤٣٠). ويُعتبر مصنّفه الـ (Curatio) في الدفاع عن المسيحيّة من أهمّ المصنّفات في هذا المجال. وتمكّن هذا الأسقف من خلال أعماله الفكريّة واللاهوتيّة والرعويّة من إعادة أكثر من عشرة آلاف ضالّ إلى المنهج المستقيم. ولعب أيضاً بعضاً من الدور الاجتماعيّ الذي أسّسه يوحنّا فم الذهب، فكان يدافع عن حقوق أبناء المجتمع تجاه السلطة ورجالها. ومن أشهر مؤلّفاته كتاب «الردّ على اللعنات». وهو كتاب ضائع لم يبقَ منه سوى ما جاء في رسائل كيريللوس الإسكندريّ في معرض الردّ على بعض محتوياته. ويُعزى إليه النجاح في توحيد صفوف الكنيسة الجامعة إثر العاصفة التي حلّت بها في تلك الحقبة من التاريخ[2].

إنّ ما يدعو إلى الأسف أنّ قادة الفكر المسيحيّ في تلك الحقبة من التاريخ

١ - راجع: Bardenhewer O., gesche. Der. Altkirchlichen Lit., III, 304 - 324; Sozomène, Hist. Ecc., VII, 15.

٢ - Azema, y. Correspondance “Théodoret de cyr.”. PP. 14 - 16, 44 - 56; Canivet P. Précisons sur la date de la curatio (Recherches scientifiques religieuses, 1949) PP. 585 - 593; Bardy G. l’acte de l’union, Fliche et Martin, V, PP. 209 - 210

قد انشغلوا في الخصام العقائديّ حول طبيعة المسيح، فتحوّل ذلك المجهود الفكريّ الذي شغل الفكر المسيحيّ لتعميم الرسالة على أنقاض الوثنيّة، إلى الخصومات الداخليّة، ممّا أوقف زخم انتشار الرسالة وأحلّ بالمسيحيّة مسلسلاً من الانتكاسات، عبثاً حاول بعض الأباطرة اتّقاءها. وعوضاً عن اجتهاد الإكليروس لتنمية المسيحيّة في البلاط، كما كان شأنهم في السابق، أصبح همّ البلاط درء تصدّع الكنيسة والعمل على إعادة اللحمة إليها، ولكن دون جدوى، بسبب تعاظم الخلافات والانشقاقات.

إلى جانب نبغاء الفكر والفلسفة واللاهوت برز من آباء الكنيسة في عصورها الأولى مؤرّخون عظماء، أدّوا لها قسطاً رائعاً من تثبيت ركائز بنيانها عبر الزمن. من هؤلاء يوسيبيوس (٢٦٤ ـ حوالى ٣٤٩) أسقف قيصريّة فلسطين الذي يُعتبر المؤرّخ الكنسيّ الأوّل.

وُلد يوسيبيوس في البلدة التي أصبح أسقفها ودرس في إنطاكية. وكان في بداية أمره مدافعاً عن قضيّة آريوس، إلاّ أنّه في مجمع نيقية الذي عَهد إليه قسطنطين بافتتاح جلساته، أدان زعيم الهراطقة.

كان يوسيبيوس من أعظم الرجال المثقّفين في عصره «وقد وضع عدّة مؤلّفات تاريخيّة، منها التاريخ الكنسيّ: Ecclesiastical history الذي يصف فيه بالتفصيل ظهور المسيحيّة وعلاقتها بالأمبراطوريّة». وقد كان يوسيبيوس طيلة حياته «صديقاً حميماً لقسطنطين ومعجباً به ومتحمّساً له[1]».

بعد يوسيبيوس بحوالى مئتي عام وُلد مؤرّخ آخر في قيصريّة هو: بروكوبيوس Procopius الذي توفي حوالى سنة ٥٦٣، بعد أن أرّخ الكنيسة في عصر يوستينيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) الغنيّ بالأحداث. وقد صحب هذا المؤرّخ الكنسي الشهير، في شبابه، القائد الرومانيّ باليساريوس Belisarius في جميع حملاته في

١ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٩٧

الشرق والغرب بوصفه أميناً خاصّاً ومستشاراً قانونيّاً له. وقد أصبح فيما بعد عضواً في مجلس الشيوخ. إلاّ أنّ هذا الذي أرّخ الكنيسة في تلك الحقبة الحرجة من التاريخ، لم يكن ملتزماً في مسيحيّته. ذلك أنّه أرّخ في كثير من الأحيان وهو متحمّس لآلهة اليونان[1].

أمّا المؤرّخ الكنسيّ اليونانيّ سوزومينوس الذي جاءت أعماله في القرن الخامس، فأصله من جوار غزّة ومسقط رأسه: بيت ايل Beth elia. والداه مسيحيّان. وقد ازدهرت في غزّة آنذاك مدرسة للبلاغة كانت متأثرة بالجوّ العلميّ للإسكندريّة، وكان بعض أساتذتها من الأفلاطونيّين الحديثين، «ولكنّ الأكثريّة منهم دعوا أنفسهم بالسفسطائيّين المسيحيّين. وكانت مؤلّفاتهم تشتمل على شروح للتوراة ورسائل ضدّ الهلّينيّين أو غير المسيحيّين».

ولم تكن بيروت أقلّ شأناً من إنطاكية أو غزّة أو قسطنطينيّة أو الإسكندريّة في مجال الفكر في ذلك العصر. ولم تكن المادّة الحقوقيّة المادّة الوحيدة التي شهرت بيروت في عالم الفكر والفلسفة، فكثيرون هم الأساقفة والقدّيسون والشهداء المسيحيون الذين بدأوا تحصيلهم العلميّ في بيروت. من هؤلاء غريغوروس توماترجس Thaumaturgus أي صانع العجائب. ويامفيلوس Pamphilus. وغريغوريوس نازينزي Nazianzus الذي أصبح فيما بعد قدّيساً، إضافة الى سفيروس ويوسيبيوس.

أمّا الإسكندريّة فكانت قد غدت مركزاً مسيحيّاً خطيراً، وقاعدة مدرسة لاهوتيّة، من ملافنتها: إكليموندس الإسكندريّ (نحو ١٥٠ ـ ٢١٤) الكاتب المسيحيّ الذي علّم فيها. لا بل كان من مؤسّسيها. وأوريجينوس Origénés (١٨٥ ـ ٢٥٣) أحد نوابغ الفكر البشريّ الذي وُلد أيضاً في الإسكندريّة وأصبح من أشهر أساتذة مدرستها اللاهوتيّة. وأثناسيوس الإسكندريّ Athanasios (٢٩٥

١ ـ H. B. Dewing, procopius, 7 vols. (London and Cambridge Mass 1914 - 1940).

ـ ٢٧٣) بطريرك الإسكندريّة وأحد آباء الكنيسة، وقد حارب الآريوسيّة بعد المجمع النيقاويّ. ونُفي خمس مرّات بسبب صلابة رأيه، وهو من كتب حياة القدّيس أنطونيوس وعدّة مؤلّفات لاهوتيّة.

***

إنّ ما يميّز الفكر المسيحيّ في العهد البيزنطيّ عمّا كان عليه في العهد الرومانيّ، وكذلك ما يميّز نشاط الكنيسة في الحقبة نفسها عن سابقتها، أنّ الاهتمام كان منصبّاً بخلالها على التناحرات الفكريّة المسيحيّة، وعلى الخلافات العقائديّة داخل الكنيسة نفسها، بينما كان الاهتمام في العصر الرومانيّ منصبّاً من قبل آباء الكنيسة الذين خلفوا الرسل على تعميم المسيحيّة وانتشارها على حساب الوثنيّة.

إلاّ أنّ هذا لم يمنع من سيطرة المسيحيّة تماماً، أو بشكل شبه تامّ في المنطقة الواقعة على الشاطئ الشرقيّ للبحر الأبيض المتوسّط، وإن كانت تلك المسيحيّة منقسمة الى كنيستين أو أكثر أحياناً. ولكنّ الشيوع الذي عرفته المسيحيّة في هذه البقعة من العالم وفي ذلك العصر من التاريخ، لم تكن قد عرفته من قبل، كما أنّها لن تعرفه من بعد.

الكنيسة اليعقوبيّة

كان آخر انشقاق عظيم تعرّضت له الكنيسة قبل ظهور الإسلام، وأعظم انشقاق تعرّضت له الكنيسة الشرقيّة بعد النسطوريّة، قد حصل بسبب البدعة المونوفيزيّة.

أصل الكلمة مركّب من كلمتَين يونانيّتَين Monos و Physis الأولى تعني «واحد» والثانية تعني «طبيعة»، ومعنى الكلمة المركّبة: Monophysis التي جاءت منها Monophysitisme أي المونوفيزيّة: طبيعة واحدة. ولقد كان أصحاب مذهب

الطبيعة الواحدة هم الذين لم يقبلوا بمبدأ الطبيعتين: الإلهيّة والبشريّة، في الشخص الواحد للمسيح الذي وضعه مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١. واعتقد اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بأنّ المظهر البشريّ والإلهيّ في المسيح لا يشكّل سوى طبيعة مركّبة واحدة، واتّخذوا شعاراً لهم: «الطبيعة الواحدة لكلمة الله المتجسدة». ومن هنا أتى اسمهم: المونوفيزيّون[1].

كان الأمبراطور البيزنطيّ يوستينيانوس (٥٢٧ ـ ٥٦٥) قد حاول توطيد وحدة الأمبراطوريّة في السياسة والقانون، وخاصّة في الدين، ومن أجل ذلك ضيّق على الذين لم يخضعوا لمقرّرات المجمع الخلقيدونيّ إلى درجة حرمانهم حقوقهم المدنيّة. إلاّ أنّ المونوفيزيّين قد استُثنوا من تلك التدابير لأنّ يوستينيانوس أمل بأمكانيّة التفاهم معهم حول الدستور النيقاويّ من خلال الاجتهاد في بعض تفسيراته، علماً بأنّ المونوفيزيّين كانوا قد نموا بشكل واسع في الأرجاء الشرقيّة للأمبراطوريّة وخاصّة في مصر. إضافة إلى أنّ ثيودورة Théodora، زوجة يوستينيانوس التي كانت شديدة الذكاء والحزم والطموح، وقد ساعدت زوجها في شؤون الحكم وتدخّلت بالسياسة عامّة والدينيّة منها بشكل خاصّ، كانت مقتنعة بالعقيدة المونوفيزيّة، فتمكّنت من إقناع زوجها الأمبراطور بالتساهل مع قادة الكنيسة المونوفيزيّة الذين راحوا ينظّمون أنفسهم في أديار ورهبانيّات.

وفي سعيه لإيجاد التفاهم بين شطرَي الكنيسة، دعا يوستينيانوس الى مجمع كنسيّ عقد في القسطنطينيّة سنة ٥٣٣ بحضور أساقفة من الفئتين. فنتج من ذلك المجمع إتّفاق الطرفين على شجب أوطيخة. إلاّ أنهم إختلفوا حول «طبيعة» المسيح. فقال ممثّلو الكنيسة الأمّ بالطبيعتَين للمسيح، بينما قال المونوفيزيّون، مصرّين، بالطبيعة الواحدة[2]. وإذ حاول الأمبراطور، بعد فشل هذا المجمع، أن يجد اجتهاداً من أجل توحيد الكنيسة، إلا آنّه ليس فقط لم يوفق الى غايته، بل أدّت

---

١ ـ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١، ص ٤١٢

٢ ـ Hefelé - Leclercq, histoire des conciles, II, PP. 1120 - 1125

اجتهاداته إلى إغضاب الطرفَين. بينما راحت ثيودورة تعمل بكلّ ما أُوتيت من سلطة ومقدرة على مساعدة المونوفيزيّين من أجل السيطرة على المراكز الحسّاسة في الكنيسة، فتمكّنت بذلك من إيصال بطريرك على القسطنطينيّة يقول سرّاً بالطبيعة الواحدة[1].

في هذه الأجواء تمكّنت المونوفيزيّة من كسب القسم الأكبر من سورية الشماليّة قبل نهاية القرن الخامس، ويعود الفضل في نجاحها هذا بدرجة كبيرة إلى الأمبراطورة ثيودورة التي آوت الزعماء المونوفيزيّين عندما دعت الظروف إلى ذلك، وعملت على تمكينهم من نشر معتقدهم ومن الوصول إلى سدّات الرئاسة الكنسيّة عندما أتاح لها الظرف مثل هذه الإمكانيّة. وعندما أتصل «الأمير الغسّانيّ الحارث بن جبلة بثيودورة سنة ٥٤٣ ورجاها أن تعيّن أسقفاً يرعى شعبه، أحالت الأمبراطورة طلبه على ثيودوسيوس الإسكندريّ المونوفيزيّ الذي سام مونوفيزيّاً على أساقفة البُصرى[2] اسمه ثيودوروس، وسام أسقفاً على الرها ومتروپّوليتاً مسكونيّاً اسمه يعقوب البرادعيّ». وبذلك بدأ الدور الفعّال لهذا الأخير الذي اعتُبر المؤسّس الحقيقيّ للكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة التي حملت اسمه، فعُرفت بالكنيسة اليعقوبيّة.

ذُكر أسقف الرها (٥٤١ ـ ٥٧٨) يعقوب هذا على أنّه البردعيّ حيناً وعلى أنّه ابن البرادعيّ حيناً آخر، ولكنّ الثابت أنّه ابن قس اسمه ثيوفيلوس بن معنو من تلّ موزل. انتقل إلى القسطنطينيّة سنة ٥٢٨ بعد أن ترهّب في دير فسيلتا القريب من مسقط رأسه، وأجاد السريانية واليونانية[3].

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧، بالاستناد الى: Bréhier, L., Pol. Relig. de Justinien, IV, 456

٢ ـ البُصرى (إسكي شام) مدينة سوريّة في محافظة حوران. كانت في العهد المسيحيّ كرسيّاً أسقفيّاً ذا شأن. إشتهرت بكنيستها الرائعة القرن السادس. إفتتحها العرب سنة ٦٣٢. دخلها الصليبيّون سنة ١١٤٦ و ١١٨٢ راجع حاشية ٩ ص ١٢٤.

٣ ـ راجع: البطريرك اغناطيوس افرام الاول برصوم، كتاب اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١

لا نعلم حقيقة الدافع الذي جعل هذا الرجل يتحمّس للمونوفيزيّة بالشكل الذي تحمّس فيه. بيدَ أنّ بعض المراجع يفيد عن أنّه «كان ورعاً طاهراً مجاهداً رسوليّاً من نخبة النسّاك الصوّامين القوّامين ذوي الصلاح والدين المتين[1]». والواقع أنّ يعقوب هذا، بعد ترؤُسه أسقفيّة الرها، راح يطوف الأرجاء مشجّعاً على اعتناق المونوفيزيّة، مؤسّساً الكنائس لهذا المعتقد حيث طالت يده. وممّا يُروى عنه «أنّه سام في رحلاته العديدة سبعة وعشرين أسقفاً وبضعة آلاف شمّاس وقسّ، وأنّه زار مصر ورسم فيها اثني عشر أسقفاً. وشملت رحلاته آسية الصغرى وسورية وما بين النهرين وفارس ومصر وقبرص ورودوس والعديد من الجزر. وكان حيث لا يستطيع أن يحوّل المعتقد في مجتمع صغير الى المونوفيزيّة، يلجأ إلى سيامة أسقف مونوفيزيّ، فيصبح، في الأسقفيّة الواحدة، أسقفان. وأقام على هذه الحال خمساً وثلاثين سنة، فاعتُبر بحقّ أحد مؤسّسي الكنيسة السريانيّة التي نَسبت إليه[2]. وهكذا انتشرت اليعقوبيّة في الأوساط العربيّة التي اعتنقت المسيحيّة. وفي وقت قصير أصبح القسم الغربيّ من الكنيسة السوريّة منفصلاً تماماً عن القسم الشرقيّ. وامتدّ مذهب الطبيعة الواحدة من هذه المنطقة الى أرمينية شمالاً، حيث لا يزال الأرمن حتّى اليوم على هذا المعتنق، وإلى مصر جنوباً، حيث الأقباط المونوفيزيّون لا يزالون، وفي وقت من الأوقات أصبحت المونوفيزيّة مسيطرة على القسم الأكبر من شعوب هذه المناطق. ولم تنفع محاولات الأباطرة للحدّ من انتشار هذا المبدأ المناهض للعقيدة الكنسيّة الأمّ في وقف زخم التيّار الجارف الذي اكتسح الشرق المسيحيّ قبل أن يكتسحه الفرس أعداء المسيحيّة.

الفرس قبل الإسلام

بينما كانت الكنيسة منشغلة بطبيعة المسيح حيناً وبمشيئته حيناً آخر، منصرفة إلى التناحر والتخاصم والتصارع، وكان الأمبراطور يحاول رأب صدعها دون جدوى، كان العملاق الفارسيّ يتهيّأ لضرب الأمبراطوريّة والكنيسة معاً.

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ راجع: رستم كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨. بالاستناد الى: Nicephorus Calistus, Hist., Ecc. XVIII. 52

لاحت بداية الخطر الفارسيّ في نهاية الربع الأوّل من القرن السادس عندما حاول الفرس منازعة البيزنطيّين السيادة على الشرق. وإذ تمكّن القائد القدير يوستينيان پليساريوس من صد الهجوم الفارسيّ الأوّل (٥٢٧ ـ ٥٣٢) فإنّ الفرس قد تمكّنوا بعد ثماني سنوات بقيادة كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٩) من دخول حلب عن طريق منبج بثلاثين ألف مقاتل وإحراقها. وبعد حلب لاقت إنطاكية المصير نفسه «فنهُبت وجُرِّدت كاتدرائيّاتها من كنوزها الذهبيّة والفضيّة ومن رخامها الفاخر وهُدمت المدينة بكاملها وأُخذ سكّانها أسرى[١]». وهكذا خربت إنطاكية، القاعدة المسيحيّة الشرقيّة، التي عُقد فيها بين منتصف القرن الثالث ونهاية القرن الرابع عشر عدّة مجامع كنسية. وتابع كسرى زحفه إلى آفامية، القاعدة المسيحيّة الشرقيّة الأخرى، فاستولى الفرس على كلّ ثروتها الكنسيّة، بما في ذلك قطعة الصليب الحقيقيّ التي كانت محفوظة بوقار في تابوت مرصّع بالجواهر. وقد سلِمت آفامية من الخراب نتيجة مسارعة أهلها إلى تقديم كلّ كنوزها إلى المهاجمين. كذلك فعلت فاليكس جارة حلب وسائر مدن الجوار. وبعد سنتين من أعمال الاجتياح وتحديداً في العام ٥٤٢، عُقدت الهدنة الأولى بين البيزنطيين والفرس، وهي الهدنة التي ستتجدَّد مراراً إلى أن تتحوّل إلى معاهدة الخمسين سنة التي قبل يوستينيان بموجبها بدفع الجزية إلى الفرس، وبالتوقّف عن القيام بالدعاية المسيحيّة في المقاطعات الفارسيّة.

وهكذا نشأ السدّ الأوّل في العهد البيزنطيّ أمام امتداد المسيحيّة قبل أن يتكوّن المد الخطير الذي سوف يستوعب الفرس والبيزنطيين معاً في ظاهرة فريدة في التاريخ: الإسلام.

١ ـ Rocopius, II Ch. 9, Col. 14 - 18

الفصل السادس

عشيّة الإسلام

ـ المفترق الهِرقْليّ

هِرَقل أو هرَكليوس Héraclius الأمبراطور البيزنطيّ (٦١٠ ـ ٦٤١) الثامن من اليونانيّ الأصل الذي خلف فوكاس (٦٠٢ ـ ٦١٠) كان عهده المفترق الزمنيّ الخطير المثلّث الاتّجاهات والذي قرّر مسار الدين في الشرق، كما لم يكن من قبل وكما لم يتّضح بعد كيف سيتغيَّر من بعد، وإن كان قد مضى على موت هرقل ثلاثة عشر قرناً وأكثر من نصف. ذلك المفترق كان له ثلاثة اتّجاهات: المسيحيَّة، الفرس، والإسلام. ومن كان معاصراً لتلك الحقبة، وإن كان بوسعه أن يلحظ خطورة الصراع الذي كان قائماً بين العملاقين العالميَّين آنذاك: البيزنطيين والفرس، فلقد كان يستحيل عليه أن يلحظ خطورة تلك القوّة الناشئة النابتة من الصحراء، والتي لم يكن لها من القدرات والمعطيات ما من شأنه أن يلفت حتّى الانتباه إلى ما سوف تحدثه من تغيير لم يكن متوقّعاً في مسار تاريخ الشرق. إلاّ أنَّ تلك القوّة راحت، تحت لواء «لا إله إلاّ الله ومحمّد رسول الله»، تكبر بغرابة ككرة ثلج متدحرجة من الصحراء. وقد يكون في التشبيه ما من شأنه أن يضع الذهن في أجواء تلك الغرابة.

إذا لم تكن بيزنطية العملاقة تتوقّع أن يتجرَّأ الفرس على مهاجمتها في عقر دارها، وهي الأمبراطوريّة السائدة على الشرق والغرب، وريثة أعظم قوّتين عرفهما التاريخ، فإنّ احتمال اضطرارها لمقاتلة فرسان البادية الذين انشقَّت الصحراء ودفقتهم حمماً مجتاحة كلّ حضارة سابقة عرفها الشرق... لم يكن وارداً حتّى في أذهان الأنبياء ولا السحرة ولا المبرِّجين ولا المنجّمين. ولم يكن العملاق الآخر: الفارسيّ، أقلّ استبعاداً لهذا الحدث الصاعق من عدوّه البيزنطيّ. فلقد كان كلّ من الجبَّارَين واضعاً ثقله في مواجهة الآخر دون أن يتلفّت حواليه لعلمه أنّ لا قوّة إلاّ للفرس والبيزنطيين، فلم يُعر أحدهما انتباهه لـ «لا إله إلاّ الله ومحمّد رسول الله».

عرف عهد هرقل حروباً كثيرة وتطوّرات جذريّة في الشرق. لذلك صحّ

وصف ذلك العهد بالمفترق الهرقليّ. ففيه احتلّ الفرس إنطاكية (٦١١) والقدس (٦١٤) ومصر (٦١٩). ونقلوا عود الصليب من مكانه الأصيل إلى غربة فارس. وفي العهد نفسه عاد هرقل فردّ الفرس إلى ما وراء الفرات واحتلّ تبريز واستردّ عود الصليب إلى مسقط قاعدته. كلّ ذلك حصل في سنوات عشرين من الزمن تلتها الزحفة الإسلاميّة التي كسرت جيوش هرقل وجمّدت جيوش فارس. وفي أقلّ من ثماني سنوات خسرت الأمبراطوريّة العريقة سورية وفلسطين وبلاد ما بين النهرين ومصر. تلك الأحداث التي قد يتطلّب تصوير مختصر سينمائيّ عنها عشرات السنوات حصلت في سنوات ثمان (٦٣٤ ـ ٦٤٢).

عندما جلس هرقل على كرسي الأمبراطوريّة البيزنطيّة في العام ٦١٠ كان وضع تلك الأمبراطوريّة في حال من التفكّك والانهيار. فإنّ سلفه فوكاس الملقّب بالفقّاس قد اغتصب المُلك في العام ٦٠٢ إذ كان قائداً في الجيش فقتل الأمبراطور موريقيوس Maurikios (٥٨٢ ـ ٦٠٢) الذي كان في حال حرب مع الفرس والسلاڤيين. وكان في الوقت نفسه يحاول إعادة تنظيم الإدارة والجيش بعد الانهيار الذي أصاب الأمبراطوريّة في عهد سلفه تيبريوس (٥٧٨ ـ ٥٨٢).

كان فوكاس قد بدأ عهده بذبح سلفه موريقيوس وعائلته ذبحاً، ودخل القسطنطينيّة ناثراً الذهب على أهلها مستجدياً بذلك تأييد الشعب الذي كان مستاءً من حكم موريقيوس بسبب تدابيره التنظيميّة للدولة. وبخلال السنوات الثماني التي تبوّأ فيها فوكاس كرسي الأمبراطوريّة تمكّن الفرس من تسجيل انتصارات عديدة على البيزنطيين، منها في منطقة ما بين النهرين بين الرها ونصّيبين، كان ذلك بين العام ٦٠٣ والعام ٦٠٤. وفي السنة التالية هاجم الفرس سورية وأرمينية فاحتلّوا أرضروم Erzurum في شرقيّ تركية وكانت تُعرف بـThéodosiopolis.

وفي السنة التي تلتها احتلّوا أرمينية الصغرى واجتاحوا الأناضول ووصلت طلائع جيوشهم إلى خلقيدونية سنة ٦١٠. وعلى خطّ آخر اجتاحوا المنطقة الواقعة بين

ماردين والرقّة من بلاد ما بين النهرين، فأصبح الفرات بذلك خطّ التماسّ بين العملاقين.

أمّا على صعيد الكنيسة فلم يكن الوضع أفضل ممّا كان عليه سياسيّاً وعسكريّاً. فبينما كانت الحرب مشتعلة بين بيزنطية وفارس كان الإمبراطور الذي اغتصب السلطة عسكرياً يحاول معالجة الشقاق في الكنيسة بالقوّة، فأيّد أصحاب المبدأ المستقيم وضيّق على اليعاقبة المونوفيزيّين الذين فرّ رؤساء كنيستهم إلى أماكن قصيّة. وعندما حاول اليعاقبة وسواهم من المونوفيزيّين الاجتماع في إحدى كنائس إنطاكية فرّقهم العسكر بالقوّة فسقط منهم ضحايا عديدون. وعندما استقبل البطريرك الإنطاكيّ بطريرك الأقباط المونوفيزيّ في العام ٦٠٨ أرسل الأمبراطور قوّة عسكريّة أمر قائدها بفضّ الاجتماع. وإذ حاول المونوفيزيّون مواجهة تلك القوّة، حصدت سيوف الجنود مئات الرؤوس في مجزرة بشعة من مجازر الإرهاب السلطويّ في التاريخ[1].

لم يكن اليهود أوفر حظّاً مع فوكاس من المونوفيزيّين، ذلك أنّه أمر هؤلاء بأن يتعمّدوا بالقوّة. وعندما احتجّ اليهود على هذا الأمر الغريب، وجّه الأمبراطور قوّة حصدت رؤوسهم مثلما فعلت بالمونوفيزيّين[2]. في الوقت نفسه كان اليهود في حال نزاع مع اليعاقبة قبل أن تجمع المصيبة بينهما، ويروي بعض المؤرّخين عن أحداث شنيعة وقعت بين الطرفين في ذلك العهد المظلم من التاريخ[3]. ومن الثابت أنّ يهود انطاكية قد استغلّوا الصراعات الداخليّة التي كانت قائمة بين الفرق المسيحيّة، كما استغلّوا الوضع الخارجيّ للأمبراطوريّة الناشئ عن دخول الفرس إلى بعض المناطق السوريّة، وتمكّنوا من قتل العديد من المسيحيّين وأعدموا بعض كبار

١ ـ راجع ـ Michel le Syrien, II, PP. 375 - 378

٢ ـ راجع ـ Théophanés A., 6101

٣ ـ Brehien L., Rome et Constantinople, Fliche et Martin, V, 74 - 75

رجال الدين[1]. إلاّ أنّ مكايد اليهود قد سقطت في صور عندما حاولوا أن يقدموا فيها على مثل ما أقدموا عليه في إنطاكية[2].

وكان الخلاف في الوقت نفسه محتدماً داخل الكنيسة بين الشرق والغرب بسبب إقدام بعض البطاركة الشرقيّين على اتّخاذ لقب البطريرك المسكونيّ، ممّا أغضب رومة التي حاول أحبارها جعل أولئك البطاركة يعودون عن اللقب المسكونيّ دون جدوى. وعندما انتزع هرقل الحكم كانت تلك الخلافات، كما كانت تلك الأوضاع، على ما جاء ذكره.

ما أن اعتلى هرقل العرش حتّى حاول إيجاد فرصة لإعادة السلم بين بيزنطية وفارس، إلاّ أنّ الفرس لم يفقدوا فرصة ضعف الأمبراطوريّة المفكّكة، فتجاهلوا يد هرقل الممدودة نحوهم، بل عبروا الفرات وتوغّلوا في سورية الشماليّة، فوصلوا إلى إنطاكية في السنة الأولى من حكم هرقل، وإلى حمص ودمشق في السنة الثالثة. وعندما يئس الأمبراطور البيزنطيّ من إمكانيّة التوصّل إلى السلم مع هؤلاء لم يعد أمامه بدّ من المجابهة. بيدَ أنّ حالة الضعف التي كانت تسيطر على الأمبراطوريّة لم تُمكنه من الصمود بوجه الزحف الفارسيّ الذي حقّق مزيداً من التوغّل داخل الشرق، فاحتلّ الفرس طرطوس وقيليقية سنة ٦١٣، واتّجهوا جنوباً نحو أورشليم ودخلوها عنوة بعد حصار لم يدم أكثر من عشرين يوماً، وقتلوا حوالى ستين الفاً من المسيحيّين، وأسروا نصف هذا العدد، واعتقلوا البطريرك، واستولوا على عود الصليب. وبعد ثلاث سنوات واصل الفرس زحفهم جنوباً فاحتلّوا مصر. ولم يعد في البلاد الشرقيّة إكليروس ولا كنيسة. وبقي كرسي إنطاكية شاغراً ثماني وثلاثين سنة[3].

أدّى الاحتلال الفارسيّ إلى احتلال المسيحيّة في الشرق بكلّ ما لهذه الكلمة

١ - Théophanés A., 6101

٢ - Eutychios, Annalés, Patr. Gr., Vol. III Col. 1084.

٣ - راجع: Antiochus le stratège, PP. 9 - 15

من معنى. فلقد دخل المسيحيّون في طاعة فارس. وبنتيجة هذا الاحتلال أصبح الفرس يعقدون المجامع الكنسيّة بأمر من الشاه كما حصل في طيسفون سنة ٦١٤، ويقرّون طبيعة المسيح التي تناسب سياسة الشاه ودولته. وهكذا أصبح القول بالطبيعة الواحدة هو القول المشروع بالنسبة إلى فارس[1].

يبدو أنّ ما أصاب المسيحيّة من ذلّ في عهد هرقل، قد جعل هذا الأخير في حال وجدانيّة خاصّة. فتحوّل الأمبراطور العملاق إلى ناسك، ولو لبعض الوقت، إذ اعتزل الحكم في رياضة روحيّة طويلة. رأى هرقل أنّه أمام واجب دينيّ مقدّس، ذلك أنّ الأمبراطور هو حامي الدين المسيحيّ وكنيسته. وبعد شتاء من الرياضة الروحيّة أطلّ مع ربيع سنة ٦٢٢ على بلاطه وأمر بدعوة كبار رجال الدين في العاصمة القسطنطينيّة. وبخلال هذا الاجتماع عهد بالمدينة وبولده إلى بطريرك العاصمة وإلى السيّدة العذراء، ثمّ انتقل إلى الصلاة، مع قادته، في كنيسة الحكمة الإلهيّة استعداداً للحرب. وحملوا أيقونة السيّد المخلّص وانطلقوا بقيادة الأمبراطور يحقّقون التعبئة الشاملة.

كانت المعركة الأولى في أرمينية قبل انقضاء ذلك الربيع. وفيها سجّل هرقل انتصاره الأوّل. وفي السنة التالية تقدّم من أرمينية متوغّلاً في آذربيجان وانقضّ على تبريز نفسها ليصعق القائد الفارسيّ في قصره بالذات. فتحوّل هذا الأخير من منتصر أكبر إلى فارٍّ من أمام منكسر الأمس، وانبثّ البيزنطيّون المنتقمون في المدينة وردّوا الصاع صاعين حارقين المعبد الفارسيّ الكبير، ناهبين ما سلم وخفّ وغلا، ومدمّرين ما تبقّى. وراحت شعوب القوقاس المسيحيّة تلتحق بالزعيم المسيحيّ أفواجاً ناقمة. وفي السنتَين التاليتين ألحق المسيحيّون مزيداً من الضربات بفارس، وفي الوقت نفسه كان على هرقل أن يحارب على جبهة ثانية: الآفار، الذين كانوا قد هدّدوا القسطنطينيّة نفسها، فردّهم عنها ليستأنف قتاله ضدّ

١ - راجع: Marquart, Osteuropaeische und Ostasiatische, Streifzuge, (Leipzeg 1903)

الفرس في العام ٦٢٧ لمّا تمكّن من عبور الزاب، ليدخل طيسفون عاصمة الفرس والمقرّ الملكيّ، حيث استعاد أسرى الجيش البيزنطيّ، وانسحب من العاصمة خوفاً من قساوة الشتاء.

أدّت انتصارات هرقل إلى نقمة على الملك الفارسيّ المهزوم: أبرويز، الذي تمرّد عليه ابنه شيرويه، فاغتصب العرش في شتاء ٦٢٨ وأرسل إلى هرقل عارضاً الصلح، فكانت المعاهدة الشهيرة في التاريخ، التي قضت بإعادة الحدود القديمة إلى ما كانت عليه بين الجبّارين، وبإطلاق الأسرى، وبإرجاع الصليب المقدّس إلى مهده. وقد «أدخل هرقل الصليب إلى المدينة المقدّسة في موكب مجلّل بمظاهر الأبّهة والفخر والهيبة، خشعت أمامه الرؤوس والقلوب. وقد رُفع الصليب في مكانه وسط تلك الأجواء المعبّرة[١]».

عندما دخل هرقل إلى المدينة المقدّسة معيداً إليها عود الصليب، أمر اليهود بالابتعاد مسافة ثلاثة أميال عنها احتراماً للرمز المقدّس[٢]. وكان هؤلاء قد ناصروا الفرس ضدّ المسيحيّين بشكل سافر، ممّا جعل رهبان المدينة المقدّسة يسألون الأمبراطور الاقتصاص منهم، غير أنّ هرقل استجاب ليهود الجليل الذين أوفدوا إليه من رحّب به مقدّمين له الهدايا طالبين الأمان، فمنحهم تلك البراءة التي حملت خاتمه كما يقول بعض المراجع[٣]. ولكنّ هرقل لن يتمكن من لجم غضبه عندما سيتطوّع اليهود لخدمة المسلمين والتجسّس لحسابهم والسمسرة لهم في حربهم ضدّ البيزنطيين، ممّا سيجعله يصدر سنة ٦٣٤ أمراً أمبراطوريّاً يقضي بوجوب عمادهم أينما كانوا وحيثما حلّوا، مؤكّداً على الضرر والخطر على المسيحيّة والأمبراطوريّة جرّاء بقائهم على دينهم[٤].

١ - من أجل الإطّلاع على ما كتب في موضوع اعادة الصليب، راجع: Michel le Syrien, II, 427; Sé-beos, PP. 90 - 91; Théophanés A., 6020: Vincent et Abel, PP. 191 - 205; Antiochus le Stratège dans: Koulakovsky, P38.

٢ - Théphanés A., 6120

٣ - Eutychios, Annalés, Patr. Gr., Vol., III, Col. 1089 - 1090

٤ - راجع: Bardy G., Trophèes de Damas, Introduction, Patr. Or., XV

كلّ هذا لم يؤدِّ إلى الحدّ من الصراعات العقديّة داخل الكنيسة. فما أن عاد الصليب إلى قاعدته حتّى عاد القائلون بأنّهم من أتباع المصلوب إلى تمزيق ديانته.

كان قد أدّى احتلال الفرس لهذه المنطقة المميّزة، وهي مسرح لم يتوقّف البتّة صراع الأديان على أرضه مدة خمس عشرة سنة، إلى تنشيط المونوفيزيّين اليعاقبة وكلّ من قال بالطبيعة الواحدة على حساب الإيمان القويم. وعندما جلا الفرس بموجب معاهدة الصلح وعادت السلطة البيزنطيّة إلى مكانتها، عاد الصراع بين الكنيستين، وأضيف إلى طرفيه طرف ثالث، هو القائل بالمشيئة الواحدة كما مرّ في الفصل السابق، فكانت تلك الصراعات تحتدم، بينما كانت القبائل الصحراوية القائلة برسالة محمّد تتحفّز للانقضاض.

لم يكن قد مرّ ستّ سنوات على هجرة محمّد وأتباعه من مكّة إلى يثرب عندما تلقّى هرقل في أيار (مايو) ٦٢٨ كتاباً ممهوراً بخاتم: «محمّد رسول الله» جاء فيه:

> «باسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد بن عبد الله[١] إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبّع الهدى. أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك اثم الأريسيّين[٢]».

تتضارب المعلومات بحسب المصادر حول هذه الرسالة. فبينما المراجع الغربيّة تشكّ في صحّتها[٣]، تذهب المراجع الإسلاميّة إلى حدّ القول بأنّ هرقل قد آمن بنبوّة محمّد لأنّه «النبيّ الذي كنّا ننتظره». إلاّ أنّ بطاركة الروم قد رفضوا الاعتراف بنبوّته[٤].

١ - هكذا وردت في: ابن سعد، الطبقات. بينما وردت في مراجع أخرى «من محمد رسول الله».

٢ - ابن سعد، الطبقات، ج ١ ص ١٥ - ١٦؛ قابل مع: ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢١٢ - ٢١٣ حيث يقول: «وان توليت فإن إثم الأكارين عليك»؛ وقابل أيضاً مع اليعقوبي ج ٢، ص ٧٧ حيث يختلف النص.

٣ - Lammens, H., Etudes sur le règne du Califé Moawia, I, P.422; Goldziher L.Vorlesungen Uber Den Islam, P. 25; Grimme H., Mohammed, I, P. 123; Caetani L., Annali, I, PP. 725 - 739

٤ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ٢١٠ - ٢١٣؛ اليعقوبي، ج٢، ص ٧٨؛ المسعودي IV، ١٥٨

يبدو للمدقّق في رسائل محمّد إلى الملوك والأمراء أنّ المغالاة واردة في كلٍّ من المصادر: الغربيّة والإسلاميّة. فمن جهة لا يمكن نكران مراسلة محمّد لهرقل، ومن جهة ثانية لا يمكن التسليم بأنّ هرقل قد آمن بنبوّة محمّد، خاصّةً لجهة ما ورد في المراجع الإسلاميّة من أنّ هرقل قد اعتبر محمّداً «النبيّ الذي نجده في كتابنا[1]» فبالنسبة لصحّة الرسالة، بالإمكان الترجيح، إذا لم نقل التأكيد، على إرسال محمّد لها من ضمن الرسائل التي وجّهها إلى الملوك والأمراء ومنهم: كسرى فارس، ونجاشي الحبشة، ومقوقس مصر، والحارث الغسانيّ، والحارث الحميْريّ، ولا نرى سبباً من شأنه أن يكون قد منع محمّداً من مراسلة هرقل مثلما راسل كسرى وسواه من قادة المنطقة. أمّا بالنسبة للقول بأنّ هرقل قد آمن بمحمّد «الذي تحدّث عنه كتابه» فمن المعروف والثابت أنّ هرقل كان مسيحيّاً ملتزماً بالكنيسة الأمّ، بل كان مؤتمناً على تلك الكنيسة، وأنّ حروبه كانت الحروب الصليبيّة الأولى في التاريخ. فلا يمكن بالتالي أن يكون كتابه غير الأناجيل التي تعترف بها الكنيسة والتي لم تأتِ على ذكر نبيٍّ أو رسول منتظر.

لم يحصل أيّ احتكاك بين هرقل ومحمّد نفسه، ولكنّ خطوط التماسّ سوف تنشأ بين الإسلام والبيزنطيين بقيادة هرقل بعد انتقال محمّد من هذه الفانية.

بدأ الخطر الإسلاميّ يدقّ أبواب بيزنطية في السنة الثانية عشرة للهجرة، بعد موت محمّد بحوالى السنة، عندما فتح الشام خالد بن الوليد فلحق «بشرٌ كثير من أهلها بهرقل وهو في إنطاكية[2]».

وقبل أن ينتهي عمر هرقل، وتنتهي معه السيطرة المسيحيّة على الشرق، كان المسلمون، بخلال ثماني سنوات فحسب، قد سلخوا عن الأمبراطوريّة العملاقة سورية وفلسطين ولبنان وبلاد ما بين النهرين ومصر. وبذلك أدّى المفترق الهرقليّ إلى وضع الشرق على طريق الإسلام.

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج٢ ص ٢١١.

٢ ـ راجع: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٦ ـ ١٢٦.

الفصل السابع

إجتياح الإسلام للمسيحيّة في الشرق

- من الجزيرة إلى سورية
- المسيحيّة في الشرق بداية الفتح الإسلاميّ
- تمايز الكنيسة المارونيّة

عشيّة ظهور الدين الجديد الذي بدأ بقول محمّد: «لا إله إلاّ الله» وتطوّر بعد أن تقبّل سامعو هذه العبارة مضمونها إلى: «ومحمّد رسول الله» فأصبح فيما بعد يُعرف بالإسلام، كان كثير من العرب قد اعتنق إحدى الديانتين السماويّتين: اليهوديَّة والمسيحيَّة. بينما كان بعضهم الآخر لا يزال على وثنيّته. وقد كان من جميع هؤلاء حول مكّة مسقط رأس محمّد، ويثرب، التي ستعرف فيما بعد بالمدينة، ملجأ محمد ونقطة انطلاق دينه وعاصمة الخلافة في عصرها الأوّل.

أمّا الخريطة السياسيّة فكانت مقسّمة بين الدولتين الوحيدتين اللتين كانتا تتمتّعان بقوّة عالميّة: بيزنطية وفارس. في حين لم يكن للعرب شأن يُذكر باستثناء بعض دويلات نشأت لهم، منها دولة الأنباط في الجنوب، ودولة تدمر في الشمال، وقد قضت عليهما رومة، ودولة الغساسنة في الوسط، وهي التي قضت عليها بيزنطية وفارس.

كانت نهاية الدولة النبطيّة على يد الأمبراطور تريانس سنة ١٠٦. وأغلب الظنّ أنّ هؤلاء الأنباط الذين يعود أصلهم إلى قبائل بدويّة عربيّة انتقلت في القرن الرابع من طور البداوة إلى طور التمدّن بتأسيسها دولة جنوب فلسطين، كانت البتراء مدينة الآدوميّين عاصمة لهم لحصانتها، قد امتزجوا بعد الفتح الرومانيّ بسائر السكان. وعشيّة الفتح الإسلاميّ لا بدّ من أن يكون هؤلاء قد اعتنقوا المسيحيّة. أمّا تدمر أو عروس الصحراء أو پلميرا Palmyra التي كانت تقع على طريق القوافل بين آسية وموانئ المتوسّط ومنها إلى رومة عاصمة الأمبراطوريّة، فقد استوطنتها قبائل عربيّة أنشأت دولة بلغت في بدء التاريخ الميلاديّ أوج عزّها. وازدهرت الدولة التدمريّة في عهد ملكتها زنوبية التي أسرها الأمبراطور أورليانس سنة ٢٧٢. ولا شكّ في أن المتحدّرين من تلك القبائل التي كانت تعبد الأوثان قبل

انتشار المسيحيّة، قد حذوا حذو سائر السكّان فيما بعد، وأضحوا مسيحيّين قبل ظهور الإسلام.

أمّا الغساسنة، أو آل جفنة، فهم من السلالة العربيّة اليمنيّة الأصل التي هجرت بلادها عند انفجار سدّ مأرب في القرن الثالث واستوطنت بلاد حوران وشرق الأردنّ وفينيقية اللبنانيّة وفلسطين الثانية والثالثة قبل الإسلام. وفي حوران صادفوا سكّاناً من العرب أتوا قبلهم وهم: الضجاعم، من قبيلة سليم، فتغلّبوا عليهم وحلّوا مكانهم كحكّام على المنطقة في ظلّ السيادة الرومانيّة. وقد عمل الغساسنة في الجيش البيزنطيّ وعُهد إليهم حماية الحدود السوريّة. وقد اعتنقوا المسيحيّة المونوفيزيّة في نهاية القرن الثالث، وكانوا عند ظهور الإسلام من أهمّ القبائل العربيّة المتنصّرة.

تلك كانت أهمّ الدول العربيّة، إذا صحّ التعبير، في التاريخ قبل عهد محمّد: «مؤسّس الإسلام ومنشئ الأمّة العربيّة الإسلاميّة، موحّد شعوب الجزيرة العربيّة وقبائلها، دينياً وسياسياً وعسكرياً، مؤسّس أوّل دولة عربيّة اسلاميّة، تحت لوائه، في الجزيرة العربيّة[١]».

كانت الغارة الأولى التي شنّها أتباع محمّد على الأراضي الواقعة ضمن الأمبراطوريّة البيزنطيّة، تلك التي قادها زيد بن حارث، ربيب محمّد، على رأس حوالى ثلاثة آلاف رجل سنة ٦٢٩ على بلدة مؤتة الواقعة شرقيّ الأردنّ. وقد وجّه المسلمون هذه الغارة ضدّ الغساسنة بحجّة قتلهم أحد رسل محمّد إليهم. وبالرّغم من أنّ هذه الغارة كانت في الواقع السهم الأول الذي أطلقه أتباع محمّد على الجسم البيزنطيّ، فإنّ القيادة البيزنطيّة لم تعر ذلك الحدث اهتماماً يذكر، بل اعتبرته واحدة من غزوات البدو التي اعتادها السكّان من قبل. أمّا نتيجة تلك

١ - جواد بولس، التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عواد للطباعة والنشر (بيروت ١٩٧٣) ص ٦٨

الغزوة فكانت مقتل عدد من المسلمين بينهم قائد الحملة، فقاد بقيّة الجيش القائد الفتيّ خالد بن الوليد الذي سيغدو أحد أبطال الإسلام في حروبه.

بعد مؤتة، وفي حياة محمّد، قاد مؤسّس الإسلام بنفسه حملة على واحة التبوك، الواقعة على طريق الحجّ، شمال الحجاز. ومن هناك «شرع في مفاوضات مع المَواطن المجاورة انتهت بخضوع سكّانها. فقد أمَّن الأقوام على أرواحهم، ومنحهم حقّ الاحتفاظ بممتلكاتهم والبقاء على عقائدهم، شريطة أن يدفعوا جزية سنويّة. وكان أوّل هذه المواطن قاعدة أيلة الواقعة في رأس خليج العقبة، وسكّانها من النصارى. تليها مقنا الواقعة إلى الجنوب من أيلة على ساحل الخليج، وسكّانها من اليهود. ثمّ إذرح الواقعة بين البتراء ومعان من الأردنّ. ثمّ الجرباء على مسيرة ساعة من إذرح شمالاً، وسكّانها نصارى أيضاً. فكانت هذه الأماكن المواطن الوحيدة في سورية التي اتّصل بها الإسلام في غضون حياة محمّد[١]».

بعد موت محمّد (٦٣٢) بسنة واحدة، وكان لا يزال أمام هرقل ثماني سنوات من الحياة على رأس الأمبراطوريّة، وإذ كان الخليفة الأوّل لمحمّد على المسلمين: أبو بكر الصدّيق، أوّل الراشدين، وُجّهت إلى سورية ثلاث سرايا «قاد الأولى عمرو بن العاص[٢]، وتولى الثانية يزيد بن أبي سفيان[٣]، والثالثة شرحبيل[٤]

١ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٤ - ٥؛ راجع: البلاذري، فتوح البلدان، نشر M. J. de Goeje, (Leyden), PP. 59 - 60)

٢ - عمرو بن العاص: توفي سنة ٤٣ هـ. / ٦٦٤ م. قائد عربي شهير انتصر على البيزنط في أجنادين (فلسطين). فتح مصر وهزم الأعداء في عين شمس وبابليون. احتل الإسكندرية ٦٤٢. حكم مصر. بنى مدينة الفسطاس. اشترك في التحكيم الذي عقب صفين بين علي ومعاوية فرجح بدهائه كفة معاوية. توفي بالقاهرة.

٣ - يزيد بن أبي سفيان (أبو خالد): توفي سنة ١٩ هـ / ٦٤٠م. أخو معاوية لأبيه. أسلم يوم الفتح. سمي يزيد الخير لصلاحه. وجّهه أبو عبيدة للقيادة بفتح فلسطين. ولاّه عمر فلسطين. توفي في طاعون عمواس بعد أن فتح قيصرية.

٤ - شرحبيل بن حسنة: توفي سنة ١٨ هـ /٦٣٩ م. صحابي. أحد قواد الجيوش الإسلامية في عهد الفتوحات الأولى.

ابن حسنه، وكان حامل اللواء في سريّة يزيد أخاه معاوية، المؤسّس العتيد للدولة الأمويّة في دمشق.

وقع الصدام الأوّل في وادي العربة، جنوب البحر الميت، وكان النصر فيه ليزيد على سرجيوس سنة ٦٣٤، فاجتاح يزيد وعمرو القسم الجنوبيّ من فلسطين برمّته. وعُزلت القدس تماماً عن البحر[1]».

راحت الجيوش الإسلاميّة تجتاح بين سنتي ٦٣٤ و ٦٣٥ ما كان ظفر هرقل باسترجاعه من الفرس سنة ٦٢٨ دون أن يكون في ذهن هذا الأخير أيّ توقُّع لأن يكون المجتاح هذه المرّة مقبلاً من الصحراء.

إجتاح خالد بن الوليد الجيوش البيزنطيّة في معركة قاسية وقعت في أجنادين، بين الرملة وبيت جبرين في فلسطين، فهدّد بذلك أبواب فلسطين بأسرها. كذلك انهزم الجيش البيزنطيّ في معركة لاحقة وقعت في مرج الصفر جنوب دمشق، ومنها انطلق خالد لحصار دمشق التي استسلمت بعد ستة أشهر، وانسحب الجيش البيزنطيّ نحو الشمال.

كان سقوط دمشق بيد المسلمين حدثاً خارق الأهمِّيّة بالنسبة لمصير المسيحيّة في الشرق. فلقد وضع هذا الفتح نهاية لعهد دام ما يقارب ألف سنة من السيطرة الغربيّة من جهة، وما يقارب الثلاثمائة سنة لسيطرة الدين المسيحيّ، وإن كان العرب المسلمون قد تعهّدوا، إثر هذا الفتح، لمسيحييّ دمشق بإبقاء أرضهم وبيوتهم وكنائسهم وحرّيّة عقائدهم الدينيّة مقابل الالتزام بدفع الجزية، سائرين بذلك على المبادئ نفسها التي فرضها محمّد على ما جاوره من مَواطن، إلاّ أنّ الحال لن يدوم على هذا المنوال، إذ سوف يحلّ اسم محمّد في معابد دمشق وفلسطين وسواهما محلَّ اسم المسيح[2].

١ - بولس، التحولات، ص ٨٦، بالإستناد إلى: حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٦.
٢ - راجع: Elisséef, Dimashk, Encyelopédie de l'Islam, II P. 288;
الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر M.J. de Goeje, Vol. I, (Leyden, 1879, P. 1610).

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ محمداً نفسه كان، بعد أن ثبّت أقدامه في المدينة، قد تخلّى عن ذلك التساهل الذي أظهره في البداية مع المسيحيّين واليهود. وللمقارنة بين معاملته لهؤلاء قبل أن يصبح لديه تلك القوّة القتاليّة الغازية، ومعاملته لهم بعد أن اشتدّ ساعده، فإنّه عندما تعرّض أتباعه في مكّة لاضطهاد قريش لهم، أشار عليهم أن يتفرّقوا في الأرض، وإذ سألوه أين نذهب؟ نصح لهم أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة المسيحيّة «لأنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق». وخرج المسلمون إلى الحبشة المسيحيّة بهجرتَين. أمّا ذلك الملك الذي «لا يُظلم عنده أحد» فهو النجاشي الذي نقل اليه جعفر بن أبي طالب، ابن عمّ محمّد وواحد من أوائل أتباعه، بعض ما جاء في سورة مريم:

«فأشارت إليه قال كيف نكلّم من كان في المهد صبيّا. قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّا. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا[1]».

لجأ إلى الحبشة المسيحيّة إثنا عشر من أتباع محمّد في المرحلة الأولى، وفي الثانية: «سبعون رجلاً سوى أبنائهم ونسائهم... فكان لهم عند النجاشي منزلة، وكان يرسل إلى جعفر فيسأله عمّا يريد...» وعندما حاولت قريش إغراء النجاشي بالهدايا والعطاءات كي يسلّمها المكّيّين المسلمين، ردّ النجاشي الهدايا إلى قريش قائلاً للرسول: «أأدفع إليكم قوماً في جواري على دين الحقّ وأنتم على دين الباطل؟». وعندما نُقل إلى النجاشي أنّ أتباع محمد يعتبرون المسيح عبداً مملوكاً «أوحشه ذلك وأرسل إلى جعفر يتساءل قائلاً: ما يقول صاحبكم في المسيح؟، ردّ جعفر: يقول أنّه روح الله وكلمته، ألقاها إلى العذراء البتول. فأخذ النجاشي عوداً بين إصبعيه وقال: ما يزيد المسيح على ما قلت ولا مقدار هذا[2]...

١ - ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٣٤٣ - ٣٤٤
٢ - اليعقوبي، طبعة دار صادر، ج ٢، ص ٢٩

وأقام المسلمون بأرض الحبشة حتّى وُلد لهم الأولاد. «وجميع أولاد جعفر بن أبي طالب وُلدوا بأرض الحبشة ولم يزالوا بها في أمن وسلامة[1]». إلاّ أنّ هذا الواقع لم يكن له أيّ تأثير على قرار محمّد، بعد تثبيت أقدامه في المدينة وميل ميزان القوى لمصلحته، في اعتبار النجاشي والحبشة وسائر المسيحيّين أناساً يجب أن يُسلموا أو أن يدفعوا الجزية. فكان النجاشي واحداً من الحكّام الذين أرسل إليهم محمّد تعميمه المتضمّن: «أسلم تسلم». ولم يمضِ وقت طويل حتّى جاءت الآية التي فرضت على أهل الكتاب، أي اليهود والمسيحيّين: «لا يدينون دين الحقّ حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[2]».

إنّ السياسة التي سلكها محمّد تجاه المسيحيّين في سيرته، هي نفسها التي سيسلكها خلفاؤه في قيادة الإسلام فيما بعد. أمّا هذه السياسة فكانت تقضي بأن يكون نوع من التسامح والتعايش عندما يكون ميزان القوى لمصلحة المسيحيّين، وأن يعامَل المسيحيون كذمّيّين: يدفعون الجزية ولا يتساوون مع المسلمين بل يكونون درجة ثانية، عندما يكون ميزان القوى لمصلحة المسلمين.

وبما أنّ الدين الإسلاميّ راح يستوعب الناس بكثافة، إنطلاقاً من المدينة وسط خيارات ثلاثة لا رابع لها: إمّا اعتناق الإسلام، أو دفع الجزية، أو الرحيل، فقد تمكّن محمّد في حياته من بسط سيادة الإسلام على المدينة ومكّة وما جاورهما، طارداً اليهود والمسيحيّين الذين لم يعتنقوا الإسلام من تلك البقاع. ويلاحَظ هنا أنّ الخيار الثالث، خيار دفع الجزية، لم يعد وارداً عندما قضت الإستراتيجيّة بالسيطرة الإسلاميّة التامّة حيث أمكن[3].

***

١ - المرجع السابق، ص ٣٠
٢ - ابن هشام: السيرة، ج ٤، ص ٢٠٣ - ٢٠٤
٣ - راجع الجزء الرابع من هذه الموسوعة حيث تفاصيل الأحداث.

يبدو أنّ الأهالي الأصليّين للمدن السوريّة، وهم من الشعوب الساميَّة، قد وجدوا في القادمين المسلمين ما يمكن اعتباره نوعاً من القربى قياساً إلى أجنبيَّة البيزنطيين. كانت المونوفيزيّة يومها الأكثر شيوعاً بين السكّان الأصليّين، وقد كان للُغة والثقافة دورهما في اعتناق هؤلاء السكّان للمونوفيزيّة. ذلك أنّ دعاتها كانوا من السريان والعرب، بينما الكنيسة الأمّ، يتكلّم أساقفتها وأكليروسها اليونانيّة. ممّا جعل أولئك السكّان يعتنقون المونوفيزيّة، ليس من منطلقات فلسفيّة لاهوتيّة وإيمانيّة، ولكن من منطلق العداء للأجنبيّ. حتّى إنّ بعض الباحثين خلص إلى أنّ الدمشقيّين لم يروا في الإسلام غير شيعة مسيحيَّة منشقَّة، أملوا في أن ينالوا معها مزيداً من الحرّيَّة[1].

بعد استسلام دمشق سنة ٦٣٥ قام الخليفة الثاني، من الراشدين، عمر بن الخطّاب (خليفة ١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م.) بتعيين القائد يزيد بن أبي سفيان حاكماً عسكريّاً عليها. وقضت شروط الصلح التي نفّذها يزيد بأن تبقى أراضي المسيحيّين وبيوتهم وكنائسهم وحرّيَّة عقائدهم الدينيَّة مصانة مقابل التزامهم بدفع ضريبة والتعهّد بدفع الجزية، ويبدو أنّ قيمة تلك الضريبة والجزية كانت أقل ممّا كان يدفعه الأهالي للبيزنطيين.

وفي خلال سنتَي ٦٣٧ - ٦٣٨ استسلم دون معارك كلّ من بعلبك وحمص وحماه وحلب وإنطاكية والمدن الفينيقيّة على الساحل اللبنانيّ. وأُلحقت جميع هذه المدن بالحاكم العسكريّ في دمشق: يزيد بن أبي سفيان.

وإذ قاومت القدس وقيساريَّة في الجنوب، اللتان اصطبغتا بالصبغة الهلّينية، صمدت القدس حتى سنة ٦٣٨ عندما اشترط سكّانها أن يكون تسليم المدينة للخليفة عمر بن الخطّاب بالذات. وقد منح الخليفة السكّان المسيحيّين الأمان لأشخاصهم وأملاكهم وكنائسهم وحرّيّتهم الدينيّة، لقاء التعهدّ بدفع ضريبة عاديّة.

١ - Elisséef, Dimashk, "Eneyclopédie de l'Islam", II, P. 288

أمّا قيساريّة فقد كانت على اتّصال بالإمدادات البحريّة. ممّا جعلها تقاوم حتّى سنة ٦٤٠ إذ رضخت إثر حصار حادٍّ ضربه عليها معاوية.

بخلال سنوات سبع: (٦٣٣ ـ ٦٤٠) تمّ للمسلمين إخضاع سورية بكاملها من الجنوب إلى الشمال. ولم يوقف الزحف الإسلاميّ سوى سلسلة الجبال الشاهقة التي تشكّل حدّاً طبيعيّاً للمنطقة السوريّة: جبال طوروس[1].

بوفاة يزيد بن أبي سفيان سنة ٩٣٣ وتعيين أخيه معاوية خلفاً له في حاكميّة دمشق، اتّخذت هذه المدينة مركزاً سياسيّاً رئيسيّاً في سورية ولبنان وفلسطين، فإنّ حاكمها الجديد هو الذي سيصبح أمير المؤمنين (٦٦١ ـ ٦٨٠) والذي سيجعل من دمشق عاصمة للخلافة الأمويّة التي ستستمرّ من سنة ٦٦١ إلى سنة ٧٥٠.

قسّم المسلمون سورية ولبنان وفلسطين إلى عدّة حكومات عسكريّة سُمّيت «جنداً»، وجعلوا مراكز هذه الحكومات بعيدة عن البحر لاتّقاء هجمات الأساطيل البيزنطيّة. فكانت تلك المراكز: دمشق وحمص وعكّة والأردنّ وقنسرين. أمّا مدن فينيقية الساحليّة فأُلحقت مباشرة بالحكومة العسكريّة المركزيّة في دمشق.

قضت سياسة الخليفة عمر بن الخطّاب بأن يكون المسلمون العرب، في البلاد المحتلّة، بمثابة طبقة أرستقراطيّة دينيّة عسكريّة، فيحافظون على نقاوة دمهم ويمتنعون عن مخالطة المواطنين، فلا يقتنون المزارع ولا يعملون في الأرض. أمّا أبناء الشعوب المغلوبة من أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى والصابئة[2]، فقد جُعلوا في وضع خاصّ، عُرفوا فيه بأهل الذمّة، ترتّب عليهم بموجبه أن يؤدُّوا الخراج، وهو ضريبة الأرض، والجزية، وهي ضريبة الدخل. إلاّ أنهم كانوا معفيّين من التجنيد. بمعنى آخر، لم يكن يحقّ لهم أن يمتشقوا الحسام في ذلك الوضع الخاصّ الذي كانوا عليه.

١ ـ راجع: حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٢ ـ ١٣؛ بولس، التحولات، ص ٨٨ ـ ٨٩

٢ ـ الصابئة: أتباع طائفة كانت تؤلّه الكواكب. كان مقرهم في حرّان ما بين النهرين. خرج منهم علماء وفلاسفة ومنجمون، وزعموا أنهم المعنيون باسم الصابئة الوارد في القرآن.

المسيحيّة في الشرق بداية الفتح الإسلاميّ

بينما كان الزحف الإسلاميّ في أوّل غيثه ينذر بالخطر المهدِّد لمصير المسيحيّة في الشرق، كانت الخلافات والانقسامات على أشدّها داخل الكنيسة ورعاياها في هذه المنطقة الخصبة لبذار البدع والاجتهادات. وكانت الانقسامات موزَّعة بشكل رئيسيّ بين الكنيسة الأمّ من جهة، والقائلين بالطبيعة الواحدة أي المونوفيزيّين من جهة ثانية، والقائلين بالمشيئة الواحدة من جهة ثالثة. أمّا المذهب الأخير فكان وراءه هرقل بالذات الذي حاول من خلاله التوفيق بين الكنيسة الأمّ والقائلين بالطبيعة الواحدة، حتّى إنّه أصدر سنة ٦٣٨ منشوراً أوجب من خلاله القول بالمشيئة الواحدة، ممّا أعطى نتيجةً مناقضة لغاية هرقل إذ زاد في تشعّبات الانشقاقات ونتائجها، وهذا ما سيجعل قسطنطين الثالث هرقل، الذي تولّى لأقلّ من سنة (٦٤١)، يلغي منشور هرقل، وما سيجعل رومة في عهد البابا ثيودوروس الأوّل (٦٤٢ ـ ٦٤٩) تحارب بدعة المشيئة الواحدة بشدّة[1]. وإذ لم تنفع كلّ تلك الإجراءات في الحدّ من استشراء هذه البدعة، إضطُر البابا مارتينوس الأوّل (٦٤٩ ـ ٦٥٣) إلى أن يدعو عدداً كبيراً من الأساقفة للنظر في أمرها، فكان مجمع اللاتران سنة ٦٤٦ الذي حضره مئة وخمسة أساقفة معظمهم من إيطالية، وكان بين الحاضرين أساقفة أفارقة وأسقف دورة في فلسطين: إسطفانوس، وبعض الرهبان والقسّيسين من الغرب والشرق. وقد أجمع أعضاء هذا المجمع على شجب تعاليم بدعة المشيئة الواحدة وعلى اعتبارها خروجاً وهرطقة، وقطعوا الأساقفة والبطاركة القائلين بها في الشرق وكرّروا الاعتراف بالإيمان النيقاويّ[2].

وبما أنّ بطريركي إنطاكية وأورشليم كانا قد قالا بالمشيئة الواحدة، فقد أقام

١ ـ راجع Hefelé - Leclercq, III, PP. 430 - 434

٢ ـ المرجع السابق PP. 434 - 451

البابا مارتينوس إثر هذا المجمع أسقف فيلادلفية (عمّان) وكيلاً بطريركيّاً على أبرشيّات كنيستَي إنطاكية وأورشليم، وأمره بخلع كلّ أسقف يصرّ على القول بالمشيئة الواحدة[1]. وعزّز البابا إجراءه برسائل رعائيّة وجّهها إلى المؤمنين في أبرشيّات إنطاكية وأورشليم.

كانت ردّة فعل الأمبراطور قسطنطين الثالث على قرار البابا عنيفة، فأمر بإلقاء القبض عليه وبمحاكمته أمام المجلس الإكليريكي الأعلى في القسطنطينية، متَّهماً ايّاه بالتآمر على سلامة الدولة. وقد أُحضر هذا البابا القدّيس إلى القسطنطينيّة حيث تلقّى تعذيباً شديداً نُفي بعده إلى القفقاس في ربيع سنة ٦٥٥ وتوفّي فيها. ثم نُقل جثمان البابا القدّيس إلى رومة. ويُعتبر مارتينوس قدّيساً شهيداً باراً لدى الكنيسة الجامعة، الأورثوذكسيّة والكاثوليكيّة حتّى اليوم[2].

إستمرّ الصراع بين أباطرة القسطنطينيّة من جهة، وباباوات رومة من جهة ثانية، في حين كانت الجيوش الإسلاميّة تحتلّ مدن الشرق المسيحيّة، وتحكمها واحدة تلو الأخرى. وعندما انتُخب البابا ڤيتاليانوس سنة ٦٥٧ لسدّة الباباويّة راسل قسطنطين الثالث معلماً أيّاه شكليّاً بالحدث، كذلك بعث برسالة سلاميّة إلى بطريرك القسطنطينيّة، فاعترف الأمبراطور بقانونيّة الانتخاب البابويّ وقدّم الهدايا الأمبراطوريّة إلى الحبر الأعظم. فكانت مهادنة عادت بموجبها العلاقات إلى طبيعتها بين رومة والقسطنطينيّة[3]. إلاّ أنّ هذه العودة إلى الاتّحاد جاءت بعد أن كان الشرق قد خسر معظم حكمه المسيحيّ.

تطوّرت معاملة المسلمين للمسيحيّين إلى ما هو أكثر تشدّداً في عهد ثاني الخلفاء الراشدين: عمر بن الخطّاب، الذي نظر نظرة فاتح مؤسّس لدولة إسلاميّة

١ - Mansi, X, Col. 806 - 822

٢ - Hefelé - Leclercq, Les martyrs, IV, PP. 234 - 246

٣ - Duchesne, Liber pontificalis, I, 343; Mansi, IX, Col. 199

تحمي الإسلام والمسلمين أوّلاً، كما كانت دولة الروم دولة مسيحيّة تحمي المسيحيّة والمسيحيّين أوّلاً. ففي ما عُرف بـ «عهدة عمر» إلى أهل الذمّة، كان على المسيحيّين ألاّ يحدثوا «في مدائنهم ولا في ما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلّية ولا صومعة راهب، وألاّ يجدّدوا ما خرب منها، ولا ما كان مختطّاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار. وأن يوسّعوا أبوابها للمارّة وابن السبيل، وأن يُنزلوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاث ليال يطعمونه، وألاّ يؤووا في كنائسهم ولا في منازلهم جاسوساً، وألاّ يكتموا غشّاً للمسلمين. وألاّ يُعلّموا أولادهم القرآن. وألاّ يظهروا شرعهم، وألاّ يدعوا اليه أحداً، وألاّ يمنعوا أحداً من ذوي قرابتهم الدخول في الآسلام إن أراد. وأن يوقّروا المسلمين ويقوموا لهم من المجالس إذا أرادوا الجلوس. وألاّ يتشبّهوا بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، وألاّ يتكلّموا بكلامهم ولا يتكنّوا بكناهم. وألاّ يركبوا بالسروج. وألاّ يتقلّدوا السيوف، ولا يتّخذوا شيئاً من السلاح. ولا يحملوه معهم. وألاّ ينقشوا على خواتمهم بالعربيّة. وألاّ يبيعوا الخمور. وأن يجزّوا مقادم رؤوسهم. وأن يلزموا زيّهم حيثما كانوا. وأن يشدّوا الزنانير على أوساطهم. وألاّ يظهروا صلبانهم ولا كتبهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم. وألاّ يضربوا نواقيسهم في كنائسهم إلاّ ضرباً خفيفاً. وألاّ يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين. وألاّ يخرجوا شعانينهم ولا باعوثهم. وألاّ يرفعوا أصواتهم مع موتاهم. وألاّ يظهروا النيران في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم. وألاّ يجاوروهم بموتاهم. وألاّ يتّخذوا من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين. وألاّ يتطلّعوا إلى منازلهم. وألاّ يضربوا أحداً من المسلمين[1]».

هكذا تحوّل المسيحيّون في هذه المنطقة من الشرق بعد الفتح الإسلاميّ إلى مواطنين من درجة ثانية، بينما كان أهل الكنيسة وقادتها في ما تبقّى لهم: في

١ - الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٢٨٣

القسطنطينيّة وجوارها، يتجادلون ويختلفون في المشيئة والطبيعة للمسيح. على أيّ حال فإنّ السكّان الأصليّين من ساميّي هذه المنطقة لم يكونوا في العهد البيزنطيّ أفضل حالاً بكثير مما أصبحوا عليه في العهد الإسلاميّ. فلقد كانوا في الحالتين مغلوبين على أمرهم. ففي الحالة الأولى كانت الأرستقراطيّة طبقة هلّنستيّة قلما تمكّن ساميّ من ارتقاء درجاتها. وفي الحالة الثانية أصبحت الأرستقراطيّة عربيّة إسلاميّة ممنوع على المسيحيّ الاندماج فيها. وإنّ أصدق ما يعبّر عن الحالة الأولى، التحاق السكّان الغربيّين من أهالي إنطاكية وسائر المدن التي تغلّب فيها المسلمون على البيزنطيين بهرقل المنهزم إلى حيث حل، بينما لم يبق في تلك المدن سوى سكّانها الأصليّين من العرق الساميّ[1].

لم يقتصر خلاف الشيَع المسيحيّة في ذلك الظرف الحرج من تاريخ المسيحيّة في الشرق على المشاحنات الكلاميّة، بل تعدّاه إلى مناصرة بعضهم للمسلمين ضدّ بعضهم الآخر، لا بل قيام بعضهم، مستقوياً بالمسلمين، بمحاولة إبادة بعضهم الآخر. من هذا القبيل ما قام به اليعاقبة، أصحاب الطبيعة الواحدة، من قتل وتدمير للموارنة الذين كان يشدّ هرقل إزرهم قبل انكساره.

تمايز الكنيسة المارونية

تتميّز الكنيسة المارونيّة عن سواها من الكنائس ذات الأصول المحلّيّة: الساميّة المشرقيّة، بأنّها كانت دائماً من المتمسّكين بمقرّرات المجامع المسكونيّة، عندما كانت الكنائس المحلّيّة تختلف في الرأي مع مقرّرات المجامع الكنسيّة، إبتداء من المجمع الخلقيدونيّ ووصولاً إلى المجمع المسكونيّ السادس الذي انعقد سنة ٦٨٠ في القسطنطينية لبتّ موضوع الطبيعة الواحدة: المونوفيزيّة. وقد دفعت

١ ـ راجع: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٣ ـ ١٦٤

الكنيسة المارونيّة غالياً ثمن هذا التمايز والالتزام. وكان أفظع اضطهاد تعرض له رهبان مار مارون سنة ٥١٧ يوم حاول المونوفيزيّون، إبادة الإكليروس المارونيّ تماماً.

حصلت هذه الفتنة عندما اتّفق رؤساء الأديار وقادة الإكليروس على الاجتماع في أحد الأديار الواقعة في الجبال السوريّة القريبة من العاصي. وبينما كان وفد من رهبان الموارنة سائراً إلى مكان الاجتماع، كمنت له جماعة تابعة لكنيسة حماة المونوفيزيّة، انقضّ أفرادها على رهبان الوفد بغتة وقتلوا منهم من تمكنوا من قتلهم وجرحوا وأسروا من تبقّى. ثم جهّز المونوفيزيّون فرقاً من الرعاع وأطلقوهم ليدمّروا كنائس الموارنة وأديارهم ومزارعهم وقراهم. وإذ كان الحاكم الرومانيّ في ذلك الوقت من الخارجين على المقرّرات الخلقيدونيّة، تمكّن المونوفيزيّون من تنفيذ رغبتهم، فصبّوا اضطهادهم على كلّ ما هو للموارنة، وخاصّة دير القدّيس مارون على ضفاف العاصي، حيث استباحوا كلّ ما فيه ودكّوا أسواره وقتلوا من فيه. وقد جرت بخلال تلك الهجمة أعمال وحشيّة ضدّ هؤلاء الرهبان الذين لجأ بعضهم إلى الكنائس، حيث فاجأهم المهاجمون وقطعوا أطرافهم وأهرقوا دماءهم دون رحمة. وقد قتل نتيجة تلك الأعمال ثلاثماية وخمسون راهباً، وأعتقل من سلم منهم، وأرسل مكبّلاً بالسلاسل إلى بطريرك إنطاكية ساويروس (٥١٢ ـ ٥١٨) المونوفيزيّ. ولا تزال الكنيسة الرومانيّة، والمارونيّة طبعاً، إلى اليوم، تحتفل بذكرى جهاد هؤلاء الشهداء في اليوم الأخير من شهر تمّوز (يوليو).

ويبدو أنّه عقب تلك الاضطهادات نفي من سلم من الرهبان الموارنة إلى أماكن قصيّة. وعندما حاول هؤلاء الرهبان اللجوء إلى الأمبراطور أناستازيوس (٤٩١ ـ ٥١٨) في القسطنطينيّة، رفض هذا الأخير قبول الشكوى، بل طرد حامليها لأنّه كان من القائلين قول المونوفيزيّين، بطبيعة المسيح ومشيئته. فحوّل الآباء الموارنة شكواهم إلى رومة التي كان على سدّتها البابا هرمزدا (٥١٤ ـ

٥٢٣). ومن شأن مضمون هذه الرسالة أن يوضح تفاصيل ما جرى أو ما تعرّضت له الكنيسة المارونيّة من اضطهاد بسبب تمسّكها بالمبادئ الكنسيّة المستقيمة، كما من شأنها أن تؤكّد على قدم التزام الكنيسة المارونيّة بعلاقتها برومة. وفي ما يلي نصّ تلك الرسالة البالغة الأهمِّيَّة في المضمون والدلالة:

«إلى جناب قدس البار هرمزدا بطريرك المسكونة بأسرها ومالك كرسي بطرس هامة الرسل. وبعد، فيتضرع متخشعاً لقداستك أحقر الرؤساء وسائر الرهبان الذين في بلاد سورية الثانية. حقاً ان نعمة مخلصنا يسوع المسيح هي التي الزمتنا أن نعتصم باذيالك، وان نفر من لجج الأمطار الطامية والرياح العاصفة إلى ميناء الأمان الهادئ والراحة المطمئنة، موقنين اننا، ولو أصبحنا مغمورين بأمواج الأهوال والمخاوف، نخرج ببركاتك سالمين من كل ضر. ولذلك فاننا نتلقى جميع ما يحل بنا من الشدائد بالصبر والفرح، علماً منا بأن مشاق هذا الدهر الحاضر لن توازي المجد الذي نتوقعه. ولما كان مقرراً أن المسيح إلهنا قد أقامك لتكون رأس الرعاة ومعلم الأنفس وطبيبها، وجب علينا أن نصف لك المشقات التي أصابتنا ونعرّفك بالذئاب الخاطفة الذين ينهشون قطيع المسيح بلا رحمة. حتى اذا أطلعت على مكرهم، تخرجهم بعصا السلطان من بين الخراف الناطقة، وتعزي الأنفس المحزونة بكلمة العلم، وتشفي ادواءها بمراهم الدعاء. وعلى حسب ما نظن أنه بلغك خبر اللذين فغرا أفواههما علينا كالأسود ليفترسانا، نعني بهما ساويروس وبطرس اللذين مرقا من حزب المسيحيين، وفوّقا سهام الطعن على المجمع الخلقيدوني، ورشقاه بالحرم جهراً مع أبينا الكبير في القديسين لاون البار المعظم، واحتقرا القوانين الموقرة المسنونة من الآباء الأطهار في المسكونة جمعاء. وقد استعانا بأرباب السيف والسلطان على التنكيل بالرهبان والرؤساء، وأخيراً انتهى عنفهما الينا فأنزلا أصناف العذاب المبرح، آملين أن ننكر هذا المجمع المقدس. ولما قصدنا المسير إلى دير القديس سمعان لأجل قضاء بعض مصالح البيعة، نصب لنا هذان الشقيان كميناً في الطريق، قتلوا منا ثلاثماية وخمسين نفساً غير الذين هشموهم واثخنوهم بالجراح. وبلغ من قساوتهم أنهم لم يعفوا عن الذين استجاروا بالكنائس، بل دخلوا عليهم وذبحوهم أمام الهياكل المقدسة. ثم وجّها قوماً اشراراً فاقدي الرحمة، فألهبوا النار في الأديار والبيع، وأحرقوا جميع الأدوات التي وقف المؤمنون، ورسائلنا التي مع الأخوين يوحنا وسرجيوس كافلة باطلاعك على كل الأمور مفصلاً. وقد كنا وجهناها أولاً إلى قسطنطينية ورجونا من الملك ان ينتصف لنا من خصومنا الذين مثّلوا بنا كل هذا التمثيل، فلم يجب الملك سؤالنا، بل طرد رسولينا بغيظ شديد. ومن ثم أيقنّا أن كل هذا التعدي على الكنائس لم يحصل إلاّ برضاه وخاطره. ولهذا نسأل قداستك أن تنتبه الينا بحرارة وغيرة، وتشفق على هذا

الجسد المسيحي، لأنك أنت رأس الجميع ولك سلطان على أن تأخذ بثأر الإيمان المُهان والقوانين المدوسة، وان تنتصر للآباء المشتومين، وللمجمع الذي قُذف بالحرم ظلماً وعدواناً. اذ أنك أنت المتقلد الحكم من الله والمتسلم سلطان الحل والربط. والأصحاء ليسوا بمحتاجين إلى طبيب بل الذين ركبتهم العلة ومنوا بالأدواء. فقم إذاً يا أيها الطاهر وسارع إلى إغاثتنا وأحذ حذو الرب الذي انحدر من السماء إلى الأرض في طلب الخروف. ضارع بطرس هامة الرسل الذي انتصبت على كرسيه، وبولس الإناء المنتخب، اللذين أنارا المسكونة بأنوار تعاليمهما. لا جرم أن الجراح الثخينة تستدعي مراهم قوية، وان الرعاة المستأجرين متى نظروا الذئب مقبلاً تركوه يفترس الأغنام. وأما أنت فبما أنك الراعي الصالح والوكيل المؤتمن على خلاص الخراف الناطقة، فبادر إلى استنفاد القطيع الذي نحا نحوك ليلتمس راعيه، وأخرجه من أيدي الوحوش الضارية. ولا غرو أن قداستك لا تتغافل عن اسعافنا لأن الوحوش المفترسة قد مكّنت فينا أنيابها. وليكن محققاً لديك أننا بتوسلنا هذا نحرم جميع المنفرزين والخارجين عن كرسيك الرسولي المقدس وهم، نسطور أسقف القسطنطينية، واوطيخة، وديوسفوروس، وبطرس الإسكندري الألثغ، وبطرس الإنطاكي القصار، ورفيقهم اقاقيوس أسقف قسطنطينيّة، ومن ينتصر لهم ويحتج عنهم». وجاءت التواقيع في ذيل الرسالة لمائتين وعشرة قُسوس وشماسة ورؤساء[1].

ردّ الحبر الأعظم على الرسالة المارونيّة مبدياً شديد حزنه على ما حصل وتعزيته للإكليروس المارونيّ بأنّ «ما مضى من الزائلات يعوَّض عنه بالباقيات». وحضّ رجاله على «التمسّك بعرى المجمع الخلقيدونيّ وباقي المجامع المقدّسة وعلى الثبات في طاعة الكرسي الرسوليّ، وحثّهم على مجانبة أهل البدع والاعراض وعن مخالطتهم بأي وجه كان...».

كما أنّ البابا لم يكتفِ بهذا الجواب، بل بعث إلى الأمبراطور، وإلى بطريرك القسطنطينيّة برسولين حملا إليهما صحيفة مجمعيّة تتضمّن بنود الإيمان القويم، وأمراً بعرض هذه الصحيفة على جميع الرعاة ليسيروا بهديها بعد أن يوقّعوا عليها إقراراً بتسلُّمها وبالقبول بضمونها.

---

١ ـ البطريرك اسطفانوس الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين (بيروت ١٨٩٠) ص ٤١ ـ ٤٣

كانت ردّة فعل الأمبراطور البيزنطيّ على إجراء البابا عدائية بعنف، فما كان منه إلاّ أن نفى الرسولّين إلى سحيق الأصقاع.

لم يمضِ سنة على هذه الأحداث القاسية من بدايتها، حتّى ضربت صاعقة قاتلة الأمبراطور أناستازيوس. وبخلافة يوستينوس الأوّل له (أمبراطور ٥١٨ - ٥٢٧) إنقلب السحر على الساحر إذ حارب هذا الأمبراطور المونوفيزيين ووضع حدّاً للخلاف مع رومة، وأصبح وضع الموارنة على عكس ما كان عليه في عهد أناستازيوس.

سار يوستينيانوس الأوّل (٥٢٧ - ٥٦٥) على خطى يوستينوس الأوّل. ولكن زوجته ثيودورا كانت تميل في الحقل الدينيّ إلى المونوفيزيّة، فتمكّنت من التأثير في زوجها الذي لم يلبث أن سار على خطاها.

واستمرّ وضع الكنيسة المارونيّة على شيء من الاستقرار السلبيّ إلى أن آلت الأمبراطوريّة إلى هرقل (٦١٠ - ٦٤١).

كان هرقل بعد تحرير الأمبراطوريّة من الاحتلال الفارسيّ، قد جال على الأقاليم زائراً كنائسها مجتمعاً إلى أساقفتها ورؤساء أديارها في محاولة لتوحيد الكنيسة والرعيّة. وتذكر المراجع أنّ استيلاء الفرس على المنطقة وبقاءهم فيها خمس عشرة سنة، قد أدّى إلى اضعاف أتباع الكنيسة الجامعة لعلاقتهم بالقسطنطينيّة، وقد تعرّضوا للكثير من الاضطهاد، وإلى تنشيط المونوفيزيّين وبخاصّة اليعاقبة منهم. لذلك وجد هرقل أنّ جميع البطاركة في المنطقة كانوا من القائلين بالطبيعة الواحدة.

أمام هذا الواقع حاول هرقل، كما سبق وذكرنا، الجمع بين الكنيستين عن طريق القول بالمشيئة الواحدة والطبيعتين في المسيح. إلاّ أنّ هذه المحاولة باءت بالفشل إذ لم تلاقِ الحماسة من الطرفين.

ولدى وصول هرقل إلى حمص رحّب رهبان بيت مارون بقدومه. فما كان من الأمبراطور إلاّ أن أقطعهم الأراضي الواسعة[1]. هذا الحدث جعل بعض الباحثين يعتبر أنّ الرهبان الموارنة قد قبلوا دعوة هرقل، وحجّتهم في ذلك أنْ: «كيف لا يؤيّدونه وهو الملك وهم الملكيّون، ولو شاؤوا لجابهوا المبتدعين اليعاقبة بالشدّة لا باللين، ولكن بما أنّ الملك أخذ باللين فهل على الملكيين إلاّ السير على الخطّة عينها؟[2]».

واضح أنّ هذا الاستنتاج غير موثّق ولا يمكن بالتالي أن يكون موثوقاً، ويبقى في نطاق الاستنتاج وحسب، خاصة وأنّ أصحابه قد استندوا إلى قول لميخائيل السريانيّ[3] جاء فيه أنّ «الرهبان الموارنة في منبج وحمص وفي البلدان القبليّة قد أظهروا كيدهم... واستولوا على أكثر الكنائس والأديار[4]». وبالتالي فإنّ الذين استندوا إلى هذا القول لميخائيل السريانيّ اليعقوبيّ الذي أرّخ الحدث بعد وقوعه بنصف قرن، والذي لم يذكر فيه أنّ الموارنة قد قبلوا دعوة هرقل بل ذكر أنّهم «أظهروا كيدهم» وحسب، لا يمكن أن يكون استنادهم كافياً للقول بأنّ الرهبان الموارنة الذين كانوا قد ضحّوا في سبيل مقرّرات المجمع الخلقيدونيّ بثلاثمئة وخمسين راهباً شهيداً، قد خرجوا عن هذا الالتزام وقبلوا تسوية هرقل. والواقع أنّ رهبان بيت مارون كانوا قد تمكّنوا من الاستيلاء على بعض الكنائس والأديار التي كانت لليعاقبة قبل زيارة هرقل لهم، إذ ورد في المراجع الموثوقة أنّ هرقل الذي أقطع هؤلاء الرهبان الأراضي الواسعة: «أبقى في أيديهم ما كانوا قد أخذوه من الكنائس والأديار التي كانت لليعاقبة[5]».

١ - Eutichius, Annales, Patr. Gr., Vol. III, Col. 1039

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ١، ص ٤٣٦؛ Monseigneur Doumit, les maronites, P. 5

٣ - ميخائيل السرياني المعروف بميخائيل الكبير (١١٢٦ - ١١٩٩) بطريرك اليعاقبة. له بالسريانية «كتاب الحوليات» في تاريخ الكنيسة والشرق.

٤ - Michel le Syrien, II, P.412

٥ - Barhebraeus, Chronicon Eccl., I, PP. 270 - 274

على أيّ حال، تتعدّد الآراء حول قول أو عدم قول موارنة القرن السابع بالمشيئة الواحدة، ولكنّ الثابت أنّ هؤلاء الموارنة لم يكونوا في أيّ وقت من الأوقات على خلاف مع الكرسي الرسوليّ الرومانيّ. وأنّهم كانوا من أنصار هرقل محرّر البلاد من الاحتلال الفارسيّ. وهكذا، فعندما أطلّ المسلمون على هذه المنطقة اعتبروا هؤلاء الرهبان من أعوان هرقل، فشدّدوا الضغط عليهم، بينما أكّد اليعاقبة للمسلمين أنّهم ليسوا من أنصار الملك، فأطلق المسلمون يدهم، فراحوا يضطهدون رهبان بيت مارون وأتباعهم محاولين استرجاع ما خسروا من أديار وكنائس[1].

في هذه الحقبة من التاريخ أطلق لقب «الملكّيين[2]» على أولئك الذين ناصروا هرقل ضد المسلمين، وهم من السكّان الأصليّين ذوي العرق السريانيّ - الآراميّ، وقد جاءهم هذا اللقب: الملكانيّ أو الملكيّ، من خصومهم في العقيدة وزملائهم في الأصول العرقيّه تعييراً، إذ اعتبروهم مناصرين للأجنبيّ ضدّ أترابهم الساميّين، غير آخذين بعين الاعتبار صوابيّة العقيدة والإيمان، علماً بأنّ المسيحيّة منذ بولس الرسول قد أصبحت عالميّة غير مفرّقة بين عرق وآخر.

لم يكن الموارنة الوحيدين الذين أُطلق عليهم لقب ملكيّين، لكنّ هذا اللقب شمل كلّ من كان في سياسته مناصراً لهرقل في حربه ضدّ الاجتياح الإسلاميّ، إلاّ أنّ الموارنة كادوا يكونون الوحيدين من السكّان الأصليّين الذين اتّخذوا هذا الموقف، بينما سائر النصارى السريان اعتبروا أنّ «العرب الذين أولاهم الله السلطة على العالم في هذا العهد هم، كما تعلمون، يقيمون فيما بيننا، ولا يتّخذون من النصرانيّة موقف عداء، بل هم على عكس ذلك: يمتدحون ديننا ويُجّلون الكهنة والقدّيسين، ويجودون بالتقديمات للكنائس والمناسك[3]».

---

١ - المرجع السابق.

٢ - ملكي، وبعضهم استعمل لفظة ملكاني وهي لفظة سريانية الأصل: «ملكا» ومعناها في العربية الملك.

٣ - Iso'yahb, III, "Liber epistularum", in scriptores syri. Ser. II, Vol. IXIV. Ed. Rubens Duval (Paris, 1904 - 5) text P. 251, II, 13 - 19, CF. P. 252, II, 8 - 12, T2. P. 182

وهكذا فعندما انهزم هرقل بجيوشه إلى القسطنطينيّة، أي إلى بلاد الروم، تبعه أكثر الملكيّين الذين هم من أصول رومانيّة وإغريقيّة، بينما لم يكن بوسع أهل البلاد الأصليّين النزوح بهذه السهولة، فوجد الملكيّون منهم أنفسهم في وضع صعب للغاية. بينما تمتّع غير الملكيّين، وهم القائلون بالمونوفيزيّة، تمتّعوا بامتيازات نسبيّة على سائر المسيحيّين. وبذلك يبدأ فصل جديد من التحوّل الدينيّ في الشرق، إن بالنسبة للمعتقد المسيحيّ، أم بالنسبة لمصير المسيحيّة ككل.

هذه الأوضاع هي التي سوف تقرّر فيما بعد لجوء الكنيسة المارونيّة بإكليروسها إلى مناطق أكثر أمناً واستقراراً من ضفاف العاصي: إلى جبال لبنان.

وقبل نهاية ولاية ثاني الخلفاء الراشدين: عمر بن الخطّاب في العام ٦٤٤، كانت الجيوش الإسلاميّة قد أطبقت على الإمبراطوريّتين الفارسيّة والبيزنطية في الشرق. وفي سنة ٦٤٠ تمّ الاستيلاء على مصر التي كانت القبطيّة القائلة بالمونوفيزيّة منتشرة في ربوعها انتشاراً سائداً، فدخل الأقباط منذ ذلك التاريخ في الذمّيّة، وغادر مصر أكثر الأروام، ولقد كان لهذا الفتح فعل تحوّل أساسيّ في المسار الدينيّ لمصر وإفريقية عامّة، إذ سوف يتحوّل العديد من أهلها من المسيحيّة المونوفيزيّة إلى الإسلام.

الفصل الثامن

المسيحيّة والخلافة الأمويّة

- الأمويّون والبيزنطيّون
- كنائس الشرق في العهد الأمويّ
- الموارنة في لبنان
- المسيحيّون في ظلّ الخلافة الأمويّة
- الدين والفكر واللاهوت

كانت الحقبة الممتدّة بين بداية الخلافة الراشديّة التي بدأت بولاية أبي بكر الصدّيق سنة ٦٣٢ وانتهت بنهاية ثالث الخلفاء الراشدين: عثمان بن عفّان سنة ٦٥٦، حقبة السيطرة الإسلاميّة على كامل المنطقة الواقعة شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط امتداداً إلى المنطقة الإفريقيّة المتّصلة بها وإلى فارس. في هذه الحقبة تأكّد أنّ الشرق قد دخل باب تحوّل تاريخيّ لن يكون من السهل إنهاؤه، أو وضع حدٍّ له، أو ردّ الوضع إلى ما كان عليه قبل حصوله بأيّة وسيلة من الوسائل. لقد اكتسح الحكم الإسلاميّ الحكم المسيحيّ من جهة والحكم الوثنيّ من جهة أخرى اكتساحاً بالضربة الأولى. ومنذ ذلك التاريخ سوف يتحوّل مفهوم الحروب في هذا الشرق من المفهوم العرقيّ إلى المفهوم الدينيّ، وأحياناً كثيرة إلى المفهوم الطائفيّ، لا بل إلى مفهوم مذهبيّ.

وإذا كان العهد الراشديّ (٦٣٢ ـ ٦٥٦) قد مدّ السيطرة الإسلاميّة إلى هذه البقاع من العالم، فإنّ العهد الأمويّ (٦٦١ ـ ٧٤٤) سوف يثبّت الدين الجديد فيها بعد أن يستوعب حضارات تلك المنطقة، وأن يُكيّف واقعها من جهة مع واقعه، وأن يُكيّف من جهة ثانية واقعه مع واقعها. بمعنى آخر، «كان من الطبيعيّ أن ينقل بعض النصارى لدى اعتناقهم للإسلام، شيئاً من أفكارهم وشعائرهم، وأن يقتبس بعض الفرق والبدع شيئاً من ذلك ويحتفظ به[1]». ثمّ إنّ إحلال العربيّة في دواوين الدولة محلّ اللغات التي كانت سائدة قبل الفتح الإسلاميّ، كان بحكم الضرورة بطيئاً. بخلال ذلك كان من الطبيعيّ أن يقتبس المسلمون العرب الكثير من العلوم والعادات والتقاليد عن المجتمعات والأنظمة التي سبقتهم في الاستيطان والحكم. حتّى إنّ معاوية، الخليفة الأمويّ الأوّل قد لُقّب بالملك، على غرار ملوك البيزنطيين، ذلك لأنّه طوّر طريقة الحكم في الإسلام من نهج المشيخة الذي اتّبعه الخلفاء

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ١٤٥

الراشدون، وهو نهج قبليّ في شكله وجوهره، إلى نهج الملكيّة الذي كان مُتّبعاً من قبَل ملوك البيزنطيين وأباطرتهم. لذلك لا يمكن بأيّ شكل من الأشكال اعتبار أنّ الإسلام قد محق الحضارات التي كانت سائدة قبل قدوم عرب الصحراء إلى هذه البقاع محقاً تامّاً شاملاً ونهائيّاً، كما لا يمكن القول بأنّ هذه الحضارات قد تعدّدت بشكل مستقلّ تماماً بين الواحدة والأخرى، ولكنّ شيئاً من التمازج قد حصل بينها، فيما بقي التمايز ملحوظاً في الوقت نفسه.

وإذا كان العهد الراشديّ قد فتح هذه المنطقة فتحاً دينيّاً محدّد الأبعاد، فإنّ العهد الأمويّ قد حكمها حكماً استيلائيّاً ثابت الأقدام.

ففي العهد الراشديّ كان مركز الخلافة في الحجاز: المدينة. وكان الخليفة يُبايَع هناك، بينما نُودي بمعاوية خليفة في إحدى عواصم شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط: إيلياء. وإيلياء هي نفسها أورشليم، وهي نفسها القدس. كان ذلك سنة ٦٦١ بعد أن حسم معاوية أمر الخلافة لنفسه، إثر الحرب الأهليّة الإسلاميّة على موضوع هذه الخلافة بينه وبين عليّ بن أبي طالب. ولقد جعل معاوية من دمشق عاصمة للدولة الإسلاميّة الشاسعة الأطراف، وبذلك انتقل مركز الثقل للأمبراطوريّة الإسلاميّة من الحجاز إلى شرقيّ البحر الأبيض المتوسط.

وفي هذه الدولة العربيّة الإسلاميّة التي اتّخذت من مدينة دمشق عاصمة لها، «قام سكّان هذه المدينة، الآراميون بلغتهم والمسيحيّون بدينهم، بدور نافذ في إدارة مصالح الدولة خلال عهد الخلفاء الأمويّين الأوائل. وكانت دواوين الدولة غاصّة بالكتبة المسيحيّين، وكانت لغتها اليونانيّة. وبقي المسيحيّون يسيطرون في البلاط الأمويّ حتّى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) الذي أحلّ اللغة العربيّة لغة رسميّة في دوائر الدولة بعد أكثر من ستّين سنة على بدء السيادة العربيّة الإسلاميّة[1]».

١ - راجع: بولس، التحولات، ص ١٠٧

وهكذا، وبالرغم من اتّخاذ الخلفاء الأمويّين لدمشق عاصمة لحكمهم ولدولتهم، فقد بقيت سورية وجوارها حتّى زوال الدولة الأمويّة مسيحيّة بأكثريّة سكّانها. فبالاضافة إلى أنّ الأمويّين كانوا مضطرّين إلى اتّباع سياسة التساهل من أجل الاستيعاب، كانوا لا يرغبون في أن يعتنق الإسلام غير العرب الأصليّين، أي عرب الجزيرة والمتحدّرين منهم. وقد قُدّر عدد السكّان في سورية سنة ٧٢٢ بأربعة ملايين نسمة، لم يكن عدد المسلمين منهم يزيد على المائتي ألف وحسب، وكانت اللغة المستعملة هي السريانيّة[1].

وفي هذه الحقبة الانتقاليّة من التحوّل التاريخيّ الاجتماعيّ الدينيّ شهدت المسيحيّة في المنطقة الشرقيّة شكلاً من التراجع البطيء قبل أن تتدهور في حضورها ذلك التدهور السريع في العهد العبّاسيّ الذي سوف يعقب العهد الأمويّ.

أما على صعيد العرش البيزنطيّ فكان قد اتّخذ القسطنطينيّة مركزاً له بعد انتقال هرقل إليها منهزماً أمام العرب المسلمين. وبعد هرقل ساد الصراع على الملك، فلم يملك هرقل الثاني، ابن الأوّل، من زوجته الثانية ابنة أخته، سوى شهر واحد، عقبهُ هرقل هرقلوناس الذي لم يكن حظّه أفضل من سابقه، إلى أن تبوّأ الملك كستانس الثاني هرقليوس الملقّب ببوغوناتس (٦٤١ ـ ٦٦٨) بعد أن تغلّب على إخوته جميعاً، وهو الذي خلف جدّه هرقل في محاولته عبثاً حلّ المشاكل الدينيّة في الشرق، وقد حارب في الشرق والغرب لتوطيد دعائم الأمبراطوريّة المتزعزعة. إلاّ أنّ معاوية قد غلبه في معركة بحريّة جرت على شواطئ آسية الصغرى.

وبموت كستانس الثاني عاد الصراع على المُلك، ممّا أدّى إلى تسليمه الى قسطنطين الرابع سنة ٦٦٨ إذ كان لا يزال يافعاً، فتمرّد الجند في صقلّية وأرمينية، إلى أن بلغ التنازع حدّ استنجاد بعض القادة البيزنطيين بالعرب ضدّ بعضهم الآخر،

١ - J. P. Callot, Syrie, "Encylopedia Universalis", Vol. 15, P. 672

ممّا حدا معاوية على استغلال الفرصة السانحة، فبدأ محاولاته للاستيلاء على قسطنطينية بالذات بين سنة ٦٧٣ وسنة ٦٧٨. ولكنّ محاولات معاوية العسكريّة البحريّة قد باءت بالفشل، فانتهت تلك المرحلة من الصراع إلى إقرار صلح بين الطرفين يدفع بموجبه معاوية ثلاثة آلاف قطعة ذهبيّة وخمسين جواداً عربيّاً وخمسين عبداً للقسطنطينيّة كلّ سنة، وكانت مدة هذا الصلح ثلاثين سنة[١].

خلف قسطنطين الرابع المتوفّي في أيلول سنة ٦٨٥ ولده يوستينيانوس الثاني المعروف بالأشرم أو الأخرم[٢]، وكان عمره حوالى ستّة عشر عاماً، وكان مصاباً بمرض العظمة شرساً سفّاكاً للدماء، وكان في الوقت نفسه مستقيم الرأي في معتقده مخلصاً لقرارات المجامع المسكونيّة[٣].

أدّت أخلاقيّة يوستينيانوس الثاني وطغيانه وتجبّره إلى حروب داخليّة استنزفت أموال الخزينة، ممّا اضطرّ وزراءه إلى جباية الأموال اغتصاباً، فثارت ثائرة الشعب التي زادها اضطراماً إقدام الأمبراطور على إعطاء أوامره بهدم إحدى كنائس القسطنطينيّة، ليقيم في مكانها بناءً له، إلى أن جدع أنفه القائد لاونديوس ونفاه ونادى الجند بطيباريوس أمبراطوراً. ولم يمنع كون طيباريوس ابناً ليوستينيانوس هذا الأخير من فراره من منفاه ونزوله في بلغارية والاتّفاق مع ملكها على الزحف على القسطنطينيّة واستعادة العرش عنوة من ولده سنة ٧٠٥. ولم ينته حكم يوستينيانوس الثاني إلاّ بثورة قادها فيليپيكوس باردنس سنة ٧١١ نتج منها مقتل الأمبراطور وابنه طيباربوس وهما آخر الهرقليّين، وتبوّأ العرش

١ - راجع: Nicephore, PP. 32 - 33, 42; Théophanes, Chron, Art. 6169

٢ - لقّب يوستينيانوس الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥) بالأشرم أو الأخرم Rhinometos، أي المجدوع الأنف، لأن قائده لاونديوس ثار عليه وقطع أنفه بالسيف قبل أن ينفيه إلى الخرسون.

٣ - Bréhier L., La paix religieuse, V, PP. 191 - 192;

وراجع: Diehl C., L’emperreur au nez coupé, Choses et gens de Byzance, PP. 174; 177

فيليپيكوس الذي حكم حتّى سنة ٧١٣، وخلفه أنستازيوس الثاني سنة ٧١٣ الذي خلعه الجيش وسجنه في أحد الأديار قبل أن يُقتل سنة ٧٢٠. وحكم بعده ثيودوثيوس الثالث (٧١٥ ـ ٧١٦) لسنة واحدة خلعه بعدها لاوون الأيزوري ليدخل الرهبنة في أفسس.

حكم لاوون الثالث الأيزوري لأطول مدّة بين سائر الأباطرة الذين خلفوا هرقل، وقد امتدّ حكمه ثلاثاً وعشرين سنة، تمكّن بخلالها من ردّ المسلمين عن القسطنطينيّة. وكانت تلك محاولتهم الأخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء الأمويّين. ومن مآثره أنّه عدّل في قوانين يوستينيانوس وجعلها، بعد التعديلات، أكثر تطابقاً مع المفاهيم المسيحيّة. وقد بدأت في عهده حرب الأيقونات الأولى سنة ٧٢٦ لتستمرّ حتّى سنة ٧٨٠.

إختلف المؤرّخون في أسباب هذه الحرب. بيدَ أنّ جميع التفسيرات لا تبرّئ لاوون من التسبّب بها. وسيكون لنا عودة إلى هذا الموضوع. كما نُسب إليه محاربة البولسيّين والتضييق عليهم، والتشدّد في حراسة الحدود الجنوبيّة التي كانت معرّضة للخطر الإسلاميّ.

خلف لاوون الثالث الذي توفّي سنة ٧٤٠ قسطنطين الخامس الملقّب بالزبليّ[١]، الذي سرعان ما انتزع الملك منه صهره زوج أخته حنة: أرنفزدوس. ولكنّ قسطنطين حاصر العاصمة واستولى عليها عنوة وقلع عينَي صهره وأعين ابنيه ونفى الثلاثة معاً[٢]، ليستقرّ له الحكم خمساً وثلاثين سنة تنتهي في العام ٧٧٥، أي بعد نهاية حكم آخر أمويّ في المقابل: مروان الثاني، الخليفة الأمويّ الرابع عشر الذي انتهت ولايته مع الثورة العبّاسيّة سنة ٧٥٠.

١ ـ تعددت الآراء حول سبب تلقيب هذا الامبراطور بالزبلي: Kopronymos: فمنهم من اعتبر السبب أنه أفرز في جرن العماد حين المعمودية: Théophanes, Chron., Art. 6211. ومنهم من روى أنه لقب بالزبلي لأنه كان يحب الخيل: Lombard A., Etudes, Constantin, V, PP. 10 - 21

٢ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج٢ ـ ص ٨٩

كنائس الشرق في العهد الأمويّ

لم تكن أحوال الكنيسة في هذه الحقبة من التاريخ مستقرّة في الشرق ولا بشكل من الأشكال. فبينما أصبحت أكثر الكنائس الواقعة ضمن المنطقة التي سيطر عليها المسلمون تقول بالمونوفيزيّة، كانت الكنائس المرتبطة بالقسطنطينيّة وبروما تشهد حالة مدّ وجزر في العلاقات، إلى أن دعا يوستينيانوس الثاني سنة ٦٩٢ إلى مجمع محلّيٍّ ليعالج مشاكل الكنيسة، كان ذلك إثر المجمعَين المسكونيَّين الخامس والسادس اللذين حصرا أبحاثهما في أمور العقيدة، وقد أراد يوستينيانوس من المجمع المحلّيّ أن يكمل أعمال المجمعَين السابقين من خلال تنظيم الإدارة الكنسيَّة، لذلك عرف هذا المجمع في الآداب اليونانيّة بالمجمع البانثكتي Penthektos، وفي الآداب اللاتينية Kuinesextum، والكلمتان تعنيان: الخامس والسادس. وقد حضر هذا المجمع حوالى مائتين وأربعين أسقفاً، بينهم بطاركة القسطنطينيّة والإسكندريّة وإنطاكية وأورشليم، إضافة إلى أسقفَي غورتيني ورابينة اللذين مثّلا بابا رومة.

وكادت نتائج هذا المجمع تُحدث شرخاً بين الكنيستَين الشرقيّة والغربيّة لولا تدخّل الأقدار لعدم حصول ذلك.

فإنّ مقرّرات ذلك المجمع التي أيّدت جميع القوانين الصادرة عن المجامع السابقة قد شملت، فيما شملته، تحريم الصوم أيّام السبت، والإذن للكهنة بالزواج، إضافة إلى تعيين السنّ التي يجب أن يبلغها الإكليريكيّ قبل سيامته، وتحريم الدَّين بالربا على رجال الدين، وتحريم الرشوة للوصول إلى المناصب الكنسيّة، وغيرها من المقرّرات المختصّة بأمور الرهبانيّات والأديار والجمعيّات السرّيَّة، وعتق الرقيق والتصاوير البذيئة والسحر والكهانة وأمر اليهود. وإذ أرسل الأمبراطور مقرّرات المجمع إلى رومة ليوقّعها البابا سرجيوس الإنطاكيّ (٦٨٧ -

٧٠١) أبى قداسته التوقيع بسبب ما جاء فيها من تحريم الصوم أيّام السبت والإذن للكهنة بالزواج. ولمّا أراد يوستينيانوس أن يُكره الحبر الأعظم على التوقيع، تمرّد جيشه في إيطالية ووقف إلى جانب البابا. في هذه الأثناء تمّ جدع أنف يوستينيانوس ونفيه. وقبل أن يستعيد يوستينيانوس العرش كان قد أصبح على السدّة البابويّة، البابا قسطنطين الأوّل (٧٠٨ - ٧١٥).

ما أن وطّد يوستينيانوس أقدامه في الحكم حتّى سارع إلى دعوة البابا قسطنطين لزيارة القسطنطينيّة في مبادرة منه لتثبيت دعائم حكمه، وقد لبّى البابا هذه الدعوة سنة ٧١١ واستُقبل فيها بحفاوة وإكرام، وأقام فيها قدّاساً حافلاً ناول بخلاله القربان المقدّس إلى الأمبراطور. وبذلك عادت المياه إلى مجاريها بين رومة والقسطنطينيّة[١].

في هذه الأثناء كان بطاركة كنيسة إنطاكية قد انتقلوا إلى القسطنطينيّة، بسبب السيطرة الإسلاميّة على إنطاكية. ونظراً لغياب البطاركة الأصيلين وفراغ السدّة البطريركيّة كلّيّاً لمّا لم تعيّن القسطنطينية خلفاً لثالث البطاركة الانطاكيّين الذين استقرّوا فيها بعد وفاته سنة ٦٨٥، قرّر قسم من الرهبان الملكيّين الإنطاكيّين انتخاب بطريرك من بينهم ليقود الرعيَّة في ذلك الظرف العصيب. أمّا هذا البطريرك فهو: يوحنّا مارون، البطريرك المارونيّ الأوّل على كرسي إنطاكية وسائر المشرق.

الموارنة في لبنان

إختلف الباحثون في أصل البطريرك يوحنّا مارون الذي لُقّب بالسروميّ نسبة إلى سروم، القرية السورية الواقعة في السويديّة القريبة من إنطاكية. فمنهم من قال بأنّه من أصل غربيّ، ومنهم من اعتبر أنّه سرياني الأصل. سبب هذا التباين في الرأي سوء قراءة كلمة وردت في الميمر الذي ألّفه عبد يشوع قبل سنة

١ - راجع: Bréhier L., La paix religieuse, V, PP. 199 - 200

١٥٥٥، والذي عدّد فيه العلماء والكتّاب. وقد ترجم هذا الميمر إبراهيم الحاقلانيّ سنة ١٦٥٣، والحاقلانيّ (١٦٠٥ ـ ١٦٦٤) وهو من مشاهير علماء الموارنة اللبنانيّين، في ترجمته لتلك الكلمة عن السريانية قرأ «ابن الفرنج» بدل «ابن الفخارين»، وهكذا ترجم عن الميمر: «يوحنا إبن الفرنج» عوضاً عن «يوحنا ابن الفخّارين» كما يقول العلاّمة السمعانيّ الكبير[1]. من هنا كان الخلاف في أصل يوحنّا مارون[2].

حصّل يوحنّا علومه الرياضيّة والإلهيّة في مدرسة إنطاكية في بداية نشأته، ثمّ انتقل إلى دير القدّيس مارون حيث أضاف إلى علومه علوماً لاهوتيّة. ومنه انتقل إلى القسطنطينيّة حيث تعلّم اليونانيّة وسائر العلوم التي كانت متاحة في الدين والكتاب المقدّس. وما لبث أن عاد إلى دير مار مارون على ضفاف العاصي حيث سيم كاهناً، وراح يتدرّج في المراتب بعد أن صنّف كتباً عديدة في التربية واللاهوت والتاريخ وتفسير الكتاب المقدّس وفي الردّ على البدعة النسطوريّة وفي التأكيد على الطبيعتين والمشيئتين في المسيح حتّى اشتهر في بلاد الشرق قاطبة. واشتهر اسمه: يوحنّا مارون، نسبة إلى الدير الذي ترهّب فيه، وطغى هذا اللقب على لقب السروميّ الذي حمله من قبل، يوم كان يُعرف بيوحنّا السروميّ، وعُرف أحياناً بيوحنّا المسمّى مارون، وأحياناً بمارون وحسب. لذلك خلط بعض المؤرّخين بين يوحنّا مارون البطريرك الأوّل للطائفة المارونيّة ومار مارون مؤسّس الكنيسة المارونيّة. كما خلط آخرون بين يوحنّا مارون هذا الذي كان يُعرف قبل ترهّبه في دير مار مارون بيوحنّا السروميّ، ويوحنّا سروميّ آخر أحلّه يوستينوس الأوّل (نحو ٤٥٠ ـ ٥٢٧) محل أوطيخه على كرسي القسطنطينيّة سنة ٤٥١ لقول الأوّل

١ ـ يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) ولد في طرابلس وتوفي في رومة. من علماء الموارنة في الشؤون الشرقية. تعلّم في رومة. من امناء المكتبة الفاتيكانية والموفد البابوي في المجمع اللبناني ١٧٣٦. له «المكتبة الشرقية الكليمانتينا الفاتيكانية» باللاتينية، وصف فيه المخطوطات السريانية والعربية والفارسية والتركية والعبرية والسامرية والأرمنية والحبشية واليونانية والمصرية والأندلسية والمالابارية التي تحويها هذه المكتبة، وجغرافية الشرق وتاريخه.

٢ ـ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، ص ٥٣ ـ ٥٤

بالطبيعة الواحدة في المسيح[1]، بينما الثابت أنّ يوحنّا مارون قد عاش بعد أكثر من مئتي عام على ذلك التاريخ، وثابت أنّه كان البطريرك الأوّل على الموارنة بين ٦٨٦ و٧٠٧.

قبل ذلك التاريخ كان قد نزح عدد كبير من رهبان الموارنة إلى جبال لبنان العاصية بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له إثر الفتح الإسلاميّ، لأنّهم من الذين اعتُبروا ملكيّين، وقد استفاد اليعاقبة المونوفيزيّون من الحدث ليؤلّبوا الفاتحين على هؤلاء الرهبان انتقاماً للأحداث الدامية السابقة التي كان سببها الخلاف العقائديّ بين الطرفين. هذا النزوح الرهبانيّ مكّن هؤلاء الرهبان من تلمذة أكثر سكّان الجبل اللبنانيّ على معتقدهم وكنيستهم.

وفي حوالى سنة ٦٦٦ أرسل الأمبراطور كنستاس شراذم من الجراجمة مع فرق من فرسانٍ وجيوش نظاميّة إلى جبال لبنان ليقوموا بأعمال حربيّة ضدّ المسلمين الذين كانوا قد استولوا على معظم البلاد السوريّة إضافة إلى مدن الساحل اللبنانيّ، فاندمج هؤلاء مع الموارنة الذين كانوا قد سبقوهم إلى سكنى الجبل، وكانوا قد عُرفوا بالمردة بسبب مقاومتهم للمسلمين من جهة، وللمونوفيزيّين من جهة ثانية. ولفْظ المردة ساميّ يعني: الانتفاض والمقاومة. أمّا الجراجمة فيُنسبون إلى الجرجومة وهي المدينة الكبرى الواقعة في جبال اللكام (أمانوس[2]) وكانوا بحكم موطنهم على الحدود العربيّة البيزنطيّة بمثابة «جدار نحاسي[3]» يصون آسية الصغرى من الفاتحين. وكانوا مسيحيّين ثائرين محاربين. وعندما استولى المسلمون العرب على إنطاكية، كان هؤلاء الجراجمة قد تعهّدوا للروم بأعمال الاستكشاف وحراسة الطرق التي تمرّ في جوارهم[4].

١ ـ السمعاني، المجلد الأول، ص ٤٩٦؛ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، ص ٥٢.

٢ ـ ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٥؛ البلاذري، ص ١٥٩

٣ ـ Théophanes,P.364

٤ ـ البلاذري، ص ١٥٩

باندماج الجراجمة مع الموارنة المقاومين، أصبح الموارنة يُشكّلون قوّة أزعجت الأمبراطوريّة الإسلاميّة، لدرجةٍ رأى معها معاوية أنّه من الحكمة دفع جزية للروم مقابل امتناعهم عن مساعدة المردة في لبنان. حتّى إنّ المردة قد تلقّوا من الخليفة جزية مباشرة. وعليه انسحبت جموع الجراجمة من لبنان. ولكن في سنة ٦٨٩، وكان عهد خلافة عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥) عاد الجراجمة إلى لبنان وتحصّنوا في مرتفعاته الشماليّة، مما اضطّر عبد الملك إلى أن يدفع ضريبة للأمبراطور يوستينيان الثاني وأن يدفع للجراجمة مبلغ ألف دينار كلّ أسبوع[1]. ومنذ ذلك الحين أصبح مركز الثقل للطائفة المارونيّة في الجبال اللبنانيّة. ومع هذه الطائفة «بدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم[2]».

وهكذا فإنّ الموارنة كانوا قد ثبّتوا أقدامهم في جبال لبنان قبل يوحنّا مارون الذي سيم أسقفاً على البترون سنة ٦٧٦، وكان مقرّه أوّلاً في سمار جبيل. ومن هناك انتقل إلى كفرحّي الواقعة في السفح الشماليّ الغربيّ من الجبل اللبنانيّ على مسافة عشرة أميال شرقيّ البترون. وبعد ذلك التاريخ بسنوات عشر، يوم شغر الكرسي الإنطاكيّ من بطاركته الأصيلين، كما سبق وذكرنا، انتخب الرهبان الملكيّون يوحنّا مارون بطريركاً على إنطاكية.

ما أن تسلّم البطريرك المارونيّ الأوّل سدّة البطريركيّة الانطاكيّة حتّى عقد يوستينيانوس الثاني المجمع البنكتي الذي أشرنا إليه سابقاً، وذلك سنة ٦٩٢، وقد حضر هذا المجمع البطريرك المسمّى على إنطاكية والذي كان مهجّراً إلى القسطنطينيّة، جاورجيوس الثاني. وعندما رفض البابا سرجيوس الإنطاكيّ (٦٨٧ ـ ٧٠١) التوقيع على مقرّرات ذلك المجمع، وقد حاول الأمبراطور إكراهه على ذلك،

١ ـ راجع: كتاب انساب الاشراف، نشر S.D.F. Goytein، القدس ١٩٣٦، ج ٥، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠؛ الأب لامانس، تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من آثار، ج٢، ص ٤١ ـ ٤٨؛ البلاذري، ص ١٦٠؛ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠؛ حتّي تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ٥٢.

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٣٠٠

ولكنّ جيشه في إيطالية وقف إلى جانب البابا، رفض البطريرك يوحنّا مارون في الوقت نفسه تلك المقرّرات، فحاول يوستينيانوس إرسال من يعتقل البطريرك يوحنّا مارون في إنطاكية التي كانت يومذاك تحت الحكم الإسلاميّ، ممّا اضطُرّ البطريرك إلى الهرب قاصداً دير القدّيس مارون على ضفاف العاصي، وهو الدير الذي كان قد ترهّب فيه أصلاً. ومن هناك بعث برسالة باللغة السريانيّة مع رهبان الدير إلى الرعايا المارونيّة في جبل لبنان جاء في مقدمتها:

«إن حكم مارون أجدر به أن ينقل كرسيه ولا يغيّر أمانة الآباء المهذّبين الذين التأموا في مجمع نيقية والمجامع التي ثبتته، فرحل عن إنطاكية إلى دير في ولاية مدينة حماه على شاطئ النهر العاصي، وكان في ذلك الدير ثمانمائة راهب أطهار مختارين، وهناك ألّف هذه الرسالة وكتبها وأرسلها إلى جبل لبنان المقدّس[1]».

ويذكر بعض المدوّنات أنّ يوستينيانوس قد أرسل حوالى سنة ٦٩٤ جيوشاً إلى دير مار مارون على ضفاف العاصي قتلت رهبانه البالغ عددهم حوالى خمسمائة راهب ودمّرت الدير تماماً[2]. ومن هناك تحوّلت الجيوش إلى قنسرين والبلدات المجاورة، فقتل رجالُها الأهالي بالسيف ونهبوا الكنائس والمساكن، ولم يعفوا عن أحد من أتباع البطريرك يوحنّا مارون ومن القائلين بالطبيعتين والمشيئتين، حتّى وصل الجيش إلى مدينة طرابلس شماليّ لبنان، وكان البطريرك قد لجأ إلى المنطقة الشماليّة من لبنان. في هذا الوقت بالذات أقدم القائد

١ ـ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، ص ٨٠؛ لا نعلم في أي تاريخ وضعت هذه المقدمة للرسالة باللغة السريانية.

٢ ـ تذكر مراجع أخرى ان الملكيين الموالين للأمويّين أخذوا يسعون عند الخلفاء حتى عاونوهم على انتخاب بطريرك لهم. وفي سنة ٧٤٢ سمح لهم الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان (٧٢٤ ـ ٧٤٣) بانتخاب راهب يدعى اسطفان. ولكنه لم يعش إلاّ سنتين. فسمح لهم الخليفة مروان بن محمد مروان، في سنة ٧٤٦، بانتخاب بطريرك اسمه توافيلس بن قنبره. ولمّا كان الموارنة قد استقلّوا استقلالاً تاماً وانتخبوا بطريركهم من دون إذن الخليفة ولم يشتركوا في الانتخابين المشار اليهما، اتفق ابن قنبره مع الخليفة على اخضاع الموارنة عنوة، ووضع مروان تحت تصرفه جيشاً ذهب به إلى دير مار مارون لكبح جماح (الموارنة) ـ راجع: يوسف داغر، بطاركة الموارنة، المطبعة الكاثوليكية (بيروت ١٩٥٧) ص ١٦، بالاستناد إلى: ابن العبري، المقالة العاشرة، فصل ٢٢، بالاستناد إلى التلمحري.

لاونديوس في القسطنطينيّة على القبض على يوستينيانوس وجدع أنفه ونفاه إلى الخرسون، وقد وصلت أخبار هذا الانقلاب إلى قادة الجيش المرابض في طرابلس، ممّا أوقع المهاجمين في البلبلة. والخبر نفسه شجّع الموارنة على مهاجمة البيزنطيّين، فتدفّقوا من الجبال «على الأروام اندفاق الماء المنهمر والغيث المنحدر فقاتلوهم حتّى قتلوا أكثرهم وأنهزم الباقون شرّ هزيمة[١]».

كانت تلك المعركة بمثابة مفصل أساسيّ في تاريخ الطائفة المارونيّة في لبنان. ذلك أنّ يوحنّا مارون بقي بطريركاً، ولكن ليس على إنطاكية، بل على الطائفة المارونيّة. فكان أوّل بطاركتها، وبه بدأت سلسلة من البطاركة دون انقطاع.

منذ ذلك التاريخ أصبحت المارونيّة طائفة. ومنذ ذلك التاريخ أصبح مركزها الرئيسيّ في لبنان ومقرّ بطريركها فيه. وكذلك مركز ثقلها. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد بطريرك إنطاكية بطريركاً لها.

فصل يوحنّا مارون نهائيّاً الموارنة عن القسطنطينيّة، وراح يعيّن المطارنة والأساقفة لهم. وبذلك استطاع هذا البطريرك أن يُبرز أولى الخصائص القوميّة التي يتمتّع بها الموارنة، وقد جعل منهم بقيادته الحكيمة شعباً ذا سيادة. «ومنذ ذلك الحين أخذت تظهر في الطائفة المارونية تلك الخصائص التي جعلت منهم أمّة جبليّة مستقلّة منعزلة عن سائر الطوائف التي كانت تقطن هذه المنطقة من الأرض[٢]». وقد استطاع يوحنّا مارون بدهائه «أن يردّ خليفة المسلمين باليد الواحدة وأمبراطور الروم بالأخرى[٣]». وقد «عمّرت هذه الأمّة الصغيرة المحتشمة أكثر ممّا عمّرت أمبراطوريّة القسطنطينيّة التي اضطهدتها[٤]».

١ - الدويهي: تاريخ الطائفة المارونية. ص ٨٠ - ٨٢ بالاستناد إلى مؤرخي اليعاقبة. وقد أشار الخوري يوسف العاقوري الذي صار بطريركاً فيما بعد، إلى هذه الواقعة في زجلياته المكتوبة سنة ١٩٢٠
٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٣٠٤
٣ - المرجع السابق.
٤ - Edward Gibbon, The history of the decline and Fall of the Roman Empire, Ed. J. B. Bury, Vol. V, (London, 1898) PP. 156- 7

توفّي يوحنّا مارون في التاسع من شهر شباط على ما هو محقّق[١] في حوالى سنة ٧٢٠[٢]. وخلفه على الكرسيّ البطريركيّ ابن اخته قورش، الذي كان قد ترهّب مثله في دير مار مارون العاصي وفيه تثقّف في العلوم العالية من فلسفيّة ولاهوتيّة وطبيعيّة.

وتعاقب على هذا الكرسي المقدّس البطاركة: جبرائيل، ثمّ يوحنّا مارون الثاني، ثمّ يوحنّا الدملصيّ.

وقد جاء في المقالة السمعانيّة أنّه في عهد البطريرك جبرائيل عاد الملكيّون بعد وفاة يوستينيانوس الثاني (٦٦٩ - ٧١١) بسنوات، إلى الاعتقاد بالطبيعتين والمشيئتين في السيّد المسيح، وانتخبوا لهم بطريركاً جعل إقامته في دمشق، وأنّ يوحنّا مارون الثاني كان من رهبان دير مار مارون العاصي، ولما أقيم بطريركاً قصد السكن في إنطاكية، لكنّه لم يستطع الإقامة فيها لمناوأة العرب له، فجاء وسكن في لبنان، في دير سيّدة يانوح في جبّة المنيطرة قرب العاقورة. ولّما شعر بدنوّ أجله أخلى الكرسي ليوحنّا الدملصيّ، وهو السابع والستون بعد مار بطرس، والخامس بعد يوحنّا مارون الأوّل. ومن المحقّق أنّه في عهده التأم مجمع نيقية الثاني ضدّ بدعة محاربي الأيقونات، وقد كان ذلك سنة ٧٨٧ أي بعد انتهاء عهد الخلافة الأمويّة وبداية عهد الخلافة العبّاسيّة بسبع وثمانين سنة.

أمّا اليوم، وقد زالت عهود الخلافات جمعاء، فما زال الموارنة ينتخبون بطريركهم في لبنان، وقد عمّر كرسي هذه البطريركية أكثر مما عمّرت الخلافة بكثير.

١ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، ص ٩٢
٢ - راجع: يوسف داغر، ص ٢٠، بالاستناد إلى «كتاب الهدى» وهو عبارة عن مجموعة قوانين كنسية كانت دستوراً للطائفة المارونية وغيرها. ترجمه إلى العربية في سنة ١٠٥٨ عن اصله السرياني القديم جداً المطران داوود الماروني الحلبي في أواخر القرن التاسع. أما مؤلفه فمجهول. نسخته الأصلية محفوظة في المكتبة الفاتيكانية تحت العدد ١٣٣. وقد ظهرت نسخ من هذا المؤلف القيم لعبت بها الأيدي وهي بالتالي غير موثوقة. وتعيّد الكنيسة الكاثوليكية ليوحنا مارون في التاسع من شباط. وإنّ ذكرى هذا القديس، الذي دفن جسده الطاهر في دير مار مارون كفرحي، تُعتبر من أهم الأعياد عند الطائفة المارونية.

المسيحيّون في ظلّ الخلافة الأمويّة

الأمويّون، أو بنو أمية، هم سلالة الخلفاء المسلمين الذين تولّوا الحكم بين ٦٦٠ و ٧٥٠، وكانت عاصمتهم دمشق. أوّلهم معاوية الأوّل (٦٦١ ـ ٦٨٠) وآخرهم مروان الثاني (٧٤٤ ـ ٧٥٠) الذي قضى العبّاسيّون، بقضائهم عليه، على الحكم الأمويّ في الشرق، فانتقل الأمويّون إلى الأندلس وحكموها بين ٧٥٦ و١٠٣١ بعد أن جعلوا قرطبة عاصمة لهم.

إعتمدت الخلافة الأمويّة في تقسيمها الإداريّ النظام البيزنطيّ في المناطق التي انتزعتها من البيزنطيّين، والنظام الفارسيّ في المناطق الشرقية. «وكان أهمّ هذه المناطق تسع هي:

١ ـ سورية وفلسطين.

٢ ـ الكوفة وسائر العراق.

٣ ـ البصرة، مضمومة إليها: فارس وسجستان وخوراسان والبحرين وعُمَان، وربّما نُجُد واليمامة أيضاً.

٤ ـ أرمينية.

٥ ـ الحجاز.

٦ ـ كرمان، ملحقة بمنطقة الحدود الهنديّة.

٧ ـ مصر.

٨ ـ إفريقية.

٩ ـ اليمن وسائر القسم الجنوبيّ من الجزيرة.

وقد وُزِّعت هذه المناطق التسع إلى خمس ولايات هي: ولاية العراق، وقد اشتملت على الجانب الأعظم من فارس وشرقيّ الجزيرة العربيّة، وقاعدتها مدينة

الكوفة. وولاية الحجاز، وقد ضمّت اليمن والإقليم الأوسط من الجزيرة العربيّة. وولاية الجزيرة، وهي القسم الشماليّ من أرض ما بين النهرين، وقد أُلحقت بها أرمينية وأذربيجان وأقسام شرقيّ آسية الصغرى. وولاية مصر، مع منطقتي الصعيد والدلتا. وأخيراً إفريقية (الشماليّة) وغربيّ مصر ثمّ الأندلس وجزر المتوسّط وقاعدتها مدينة القيروان[1].

«كان لكلٍّ من تلك الولايات حكومة إقليميّة تتولّى ثلاث مهمات هي: الإدارة السياسيّة، وجباية الضرائب، والإرشاد الدينيّ. فالوالي أو الأمير كان يتولّى تعيين (العمّال) على المناطق، ويتحمّل مسؤوليّة أعمالهم. وكان يضطلع باعباء الشؤون السياسيّة والإدارة العسكريّة في ولايته. أمّا المُشرف على جباية الموارد فكان يدعى صاحب الخراج، وكانت صلته بالخليفة رأساً، وكان مورد الدولة الرئيسيّ الجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة. وكانت النفقات الإقليميّة تسدّد من الموارد المحلِّيَّة، ولا يرسل إلى خزانة الخليفة إلاّ الوفر الباقي على صورة رصيد. أمّا القضاة فكانوا يعيّنون في الأقاليم من قبل الولاة، وأكثر هؤلاء القضاة في العهد الأمويّ كانوا يُختارون مبدئيّاً من بين العلماء المتفقّهين بالقرآن والحديث. وكانوا يتولّون القضاء في أمور الرعايا المسلمين ليس إلاّ، أمّا غير المسلمين فقد أُتيح لهم استقلال داخليّ، كانوا يخضعون بموجبه لرؤسائهم لا سيّما الروحيّين في ما يتّصل بالأحوال الشخصيّة، نظير مسائل الزواج والطلاق والارث. وكان هؤلاء الموظّفون القضائيّون يديرون أوقاف الأيتام والمعتوهين، إلى جانب النظر في قضايا الناس[2]».

على الصعيد الاجتماعيّ كان سكّان الأمبراطوريّة على العموم، موزَّعين على أربع طبقات:

---

١ ـ القيروان مدينة تونسية أنشأها عقبة بن نافع سنة ٦٧٠. ستصبح عاصمة الاغالبة في القرن التاسع، والفاطميين إلى جانب المهدية حتى احتلال القاهرة سنة ٩٧٣. اشتهرت بمسجدها. وكانت داراً للصناعة ومحطاً للقوافل وسوقاً للتجارة. عدد سكانها اليوم حوالى ٥٠ ألف نسمة، وهي مركز زراعي وسياحي.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٨٧ ـ ٨٨

١ ـ طبقة الحاكمين وجماعة الأشراف من العرب الفاتحين.

٢ ـ طبقة الموالي.

٣ ـ أهل الذمّة.

٤ ـ طبقة الرقيق.

أمّا طبقة الحاكمين وجماعة الأشراف فكانت من الفاتحين العرب الذين بقوا طوال العهد الأمويّ يؤلّفون طبقة اجتماعيّة في الوراثة. وكان هؤلاء يتجمّعون على الغالب في المدن. ومنهم كان الحكّام والولاة وأصحاب المراكز القياديّة في الجيش. ومع نهاية العهد الأمويّ، أي في أقلّ من مئة سنة بقليل، إتّسمت المدن الرئيسيّة بطابع المدن الإسلاميّة. بينما حافظت الأماكن الأخرى، وخاصّة الجبليّة منها كجبال لبنان، على مظاهرها الإقليميّة، وبقيت أكثريّة السكّان الساحقة على دينها المسيحيّ.

ويُقدّر الباحثون أنّ عدد المسلمين في منطقة شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط «لا يُحتمل أن يكون قد زاد على مئتي ألف نفس من أصل مجموع السكّان الذين كانوا يُقدّرون بثلاثة ملايين ونصف[١]، بينما كان عدد السكّان في المنطقة نفسها قد بلغ حوالى الستة ملايين نسمة في العهد اليونانيّ[٢]، أي في القرن الميلاديّ الأوّل، وسبعة ملايين في القرن الميلاديّ الثاني[٣]».

أمّا طبقة الموالي، فكانت من المسلمين الأعاجم الذين أُجبروا، بشكل أو بآخر، على اعتناق الإسلام، وبذلك أصبحوا يتمتّعون بكامل حقوق الرعويّة الإسلاميّة. وإذ كان على هؤلاء أن ينضمّوا إلى بعض القبائل العربيّة عن طريق

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٩٦

٢ ـ راجع: Julius Beloch, Die bevolkerung Der griechishromishenwelt (Leipzig 1886), P. 242

٣ ـ Lammens Henry, La Syrie, précis historique, Vol. I (Beirut 1921) P. 11; Beloch. P.245

موالاتهم لها، لُقّبوا بالموالي: أي بالموالين لتلك القبائل، فاعتُبروا طبقة اجتماعيّة دُنيا في المجتمع الإسلاميّ. وهذا ما جعلهم يحقدون على ذلك الواقع فينضمّون إلى أولى الحركات الثوريّة في الإسلام، ملتحقين بالشيعة في العراق وبالخوارج في بلاد فارس.

أمّا الطبقة الثالثة، طبقة أهل الذمّة، فكان قوامها النصارى واليهود والصابئة[١]. ذلك أنّ الإسلام اعتبر هذه الأديان منزَلة، فأعطى الأمان لمعتنقيها وصانهم بالعهود والمواثيق. ولكن كان عليهم أداء ضريبة الخراج والجزية، وأن يبتعدوا في سكناهم عن الجزيرة العربيّة، حيث، باستثناء جماعة قليلة من يهود اليمن، لم يُسمح بوجود غير المسلمين عملاً بحديث منسوب إلى النبيّ. ولم يكن مسموحاً لأهل الذمّة بأن يقتنوا أو يحملوا سلاحاً. وهكذا لم يكن المسيحيّون سوى في منزلة اجتماعيّة وسياسيّة ثانويّة. وقد بقي مرجعهم في الأمور المدنيّة والقضائيّة رؤساؤهم الروحيّون، إلاّ في القضايا التي تمسّ المسلمين. غير أنّ الإسلام الذي عامل غير العرب من أهل الذمّة بهذه المصطلحات، كان متشدّداً ضدّ المسيحيّين العرب[٢] الذين غالباً ما طُبّق عليهم: الإسلام أو السيف، بينما كان للآخرين ثلاثة خيارات: الإسلام أو السيف أو الجزية.

وبالرغم من أنّ الإسلام يُحرّم الخمرة والميسر، فقد استمرّ المسيحيّون، كما اليهود، في مزاولة الأعمال التي اعتادوا كسب عيشهم من خلالها، وبقيت في العهد الأمويّ حانات الخمرة وبيوت المقامرة مزدهرة، وكانت الخمور تصدّر من لبنان إلى أقاصي الجنوب.

١ ـ هناك إشكال حول جماعة الصابئة: فهم أصلاً أتباع نحلة تؤله الكواكب. كان مقرهم في حرّان ما بين النهرين وقد ورد شرح عنهم في حاشية سابقة. ولكن الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن ومُنِحوا امتياز أهل الذمّة على اعتبار أنهم موحدون (راجع سورة البقرة ٥٩، المائدة: ٧٣، الحج: ١٧) فهم المنديون المعروفون بنصارى القديس يوحنا، ولا يزال منهم قوم يسكنون إلى الآن الأغوار المحاذية لمصبّ الفرات.

٢ ـ راجع: البلاذري، ص ١٤٤ ـ ١٤٥

كانت طبقة الرقيق الطبقة الأدنى في العهد الإسلاميّ الأمويّ. واستمرّت تجارة الرقيق نشيطة في العالم الإسلاميّ. وكانت أسواق الرقيق تستورد الزنوج من إفريقية الشماليّة والوسطى، والرقيق الأصفر من فرغانة وتركستان الصينيّة، والرقيق الأبيض من الشرق الأدنى وأوروبة. وإضافة إلى الشراء كان اقتناء العبيد يحصل عن طريق الاختطاف أو الغزو أو الأسر في الحروب. والشرع الإسلاميّ يعتبر أولاد الأمَة من العبد، أو من أي رجل غير سيّدها، أو من سيّدها إنْ هو لم يرد إلحاقها بنسبه، عبيداً. وبذلك كان للرقيق في المجتمع الإسلاميّ طبقة لها نظام خاص بها.

الدين والفكر واللاهوت

لم يتمكّن الاحتلال العربيّ الإسلاميّ لشرقيّ البحر الأبيض المتوسّط من إطفاء جذوة الفكر الدينيّ المسيحيّ في هذه المنطقة، التي استمرّت طوال العهد الأمويّ (٦٦١ ـ ٧٥٠) تنجب عظماء للمسيحيّة. من بين هؤلاء البابا يوحنّا الخامس (٦٨٥ ـ ٦٨٦) والبابا سرجيوس الأوّل (٦٨٧ ـ ٧٠١)، والبابا سيسينيوس (٧٠٨)، والبابا قسطنطينوس الأوّل (٧٠٨ ـ ٧١٥)، والبابا غريغوريوس الثالث (٧٣١ ـ ٧٤١[١]). وقد ارتفع اثنان من هؤلاء إلى مصافّ القدّيسين وهما: سرجيوس، وغريغوريوس. إضافة إلى البطريرك يوحنّا مارون، الذي أصبح هو الآخر قدّيساً.

أمّا أشهر أعلام الفكر المسيحيّ الذين أنجبهم الشرق بخلال العهد الأمويّ، فكان يوحنّا الدمشقيّ الملقّب بدفّاق الذهب (حوالى ٦٧٥ ـ ٧٤٩). وهو من آباء الكنيسة ومعلّميها الذين ارتفعوا إلى مصاف القدّيسين. وقد اشتهر بمقاومته لبدعة

١ ـ راجع: Horace k. Mann, Vol. I, Pt. 2 (st Louis, 1914) PP. 64 - 7, 77 - 104, 124 - 6, 127-40, 203 - 24

محطّمي الصور أو الأيقونوكلاست، وألّف في اللاّهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر والألحان الدينيّة، ومهّد بمؤلّفاته نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوروبة. تُرجم بعض مؤلّفاته إلى العربيّة من كتابه «منهل المعرفة». ذلك أنّ «دفّاق الذهب». كان يؤلّف باللغة اليونانيّة، مع أنّه من أهل البلاد، «وقد تكلّم في حياته اليوميّة الأراميّة دون شكّ، وكان إلى ذلك يحسن العربيّة. وقد كانت المناقشات التي نشبت بينه وبين علماء المسلمين، حول حرّيّة الإرادة وعقيدة القضاء والقدر، البادرة التي استهلّت عهد الحركة العقلانيّة في الإسلام. وكان يعلّم أنّ الله خلق العالم وتركه يجري بقوّة استمراره. وكان يوحنّا في صباه يحضر مجالس الشراب مع الأخطل ويزيد بن معاوية. وقد شغل، فيما بعد، منصباً رفيعاً في الدولة الأمويّة كان لوالده من قبْله[١]، على أنّه لم يلبث أن اعتزل هذا العمل في أوائل خلافة هشام حوالى سنة ٧٢٤، ولجأ إلى دير القدّيس سابا في الجنوب الشرقيّ من مدينة القدس، يعيش فيه حياة الزاهدين المنقطعين إلى العبادة[٢]».

إهتمّ الدمشقيّ بآراء مشاهير المؤلّفين الكنسيّين الذين سبقوه، فلخّصها في كتاب جعل له عنواناً: ينبوع الحكمة. وقد اعتبر الباحثون أنّ هذا الكتاب الذي نُسقت فيه آراء آباء الكنيسة، هو أوّل خلاصة لاهوتيّة وصلت إليهم، «وقد اعتمده بطرس اللومبارديّ وتوما الأكوينيّ، وغدا المرجع المعتمد لمشاهير علماء الدين ممّن جاء بعدهما... ومن أطرف ما كتب محاورتان ساقهما بين مسيحيّ ومسلم، شدّد فيهما على ألوهيّة المسيح وحرّيّة الإرادة الإنسانيّة... ولعلّ مادّته مستوحاة من المناظرات التي كانت تجري أمام الخليفة، ويشترك فيها هو بالذات، ممّا يشهد على أنّه كان يعرف القرآن والحديث معرفة المسلمين لهما[٣]».

١ ـ والد يوحنا، هو سرجيوس ابن المنصور، الذي شغل منصباً هاماً في عهد معاوية وابنه يزيد. راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٦٦ ـ ٦٨

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ١١٥–١١٦

٣ ـ المرجع السابق، ص ١١٦

يُعتبر يوحنّا الدمشقيّ، دفّاق الذهب، من أبرز مفاخر الكنيسة الشرقيّة في ظلّ الخلافة، وهو آخر آباء تلك الكنيسة. ومن أبرز ما اشتهر به، اضافة إلى مؤلّفاته اللاهوتيّة وخطبه الدينيّة ومدافعاته عن الكنيسة ومجادلاته العقائديّة وتنظيمه للفنّ البيزنطيّ وللموسيقى البيزنطيّة، موقفه في الدفاع عن استخدام الصور والأيقونات كوسيلة للعبادة، مع التشديد على «أنّ المعبود ليس هو مادّة الصورة، بل ما تمثّله[1]». وقبل وفاته بوقت قصير، وبينما كانت «حرب الأيقونات» على أشدّها، قام بجولة واسعة في سورية داعياً إلى مقاومة مُبطلِي الأيقونات، الذين كان يتزعّمهم الأمبراطور نفسه. وبلغت الجرأة بهذا القدّيس الشجاع أن قصد القسطنطينيّة مناهضاً لرأي الأمبراطور ليو الأيصوريّ الذي أحلّ غضبه عليه. وقد ترك لنا هذا القدّيس المآثر الخالدة في الحكمة والجرأة والقداسة والنضال[2].

مسألة الأيقونات التي كان للقدّيس يوحنّا الدمشقيّ ذلك الموقف الشجاع فيها، شكّلت موضوعاً لخلاف آخر نشأ في الكنيسة منذ أمد بعيد، إلاّ أنّه تطوّر بشكل خطير في العام ٧٢٦ إذ أشعل نزاعاً حادّاً استمرّ في حالة مدّ وجزر حوالى مئة وعشرين عاماً. وجوهر هذه المسألة اعتراض بعض الفرق المسيحيّة على إقامة الصور وتكريمها في الدين المسيحيّ.

أصل كلمة «أيقونة» يونانيّ: «EIKÔN» ومعناها: صورة. وقد دخل اللفظ في العهد البيزنطيّ إلى سائر اللغات التي لها علاقة بالمسيحيّة مصطلحاً للدلالة على صور القدّيسين.

---

١ - Nicene, Post - Nicene Fathers, Ser. 2, Vol. IX, P. 88

٢ - للتوسع في معرفة سيرة يوحنا الدمشقي دفّاق الذهب: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ٦٣ وما يليها؛ الأب يوسف نصر الله، سيرة يوحنا الدمشقي المنشورة بمناسبة الذكرى المئويّة الثانية عشرة لوفاة القديس، ص ٣٨ ـ ٣٩؛ الراهب ميخائيل، سيرة يوحنا الدمشقي، طبعة الخوري قسطنطين الباشا، الأب خريسوستموس، الدمشقي اللاهوتي، ص ٩٤.

يرى مؤرّخو الكنيسة أنّ بداية استعمال الصور في تكريم القدّيسين كانت على أيدي المسيحيّين الأوائل الذين هم من غير اليهود، وقد كرّم هؤلاء السيّد المسيح والقديسَين بطرس وبولس برسم الصور لهم وتعليقها في الكنائس. إلاّ أنّ المسيحيّين الذين هم من أصل يهوديّ قد اعترضوا على هذا العمل، معتبرين أنّ منشأه وثني[1]. وبعد طيّ هذه المسألة لمدّة طويلة، عادت لتتفاعل في إسبانية حيث حرّم مجمع محلّيّ إقامة الصور في الكنائس[2]. وفي قبرص، قام أحد كبار آباء الكنيسة الشرقيّة، وهو أسقف سلامينا أبيفانيوس (حوالى ٣١٥ ـ ٤٠٣) بمعارضة استعمال صور القدّيسين بشدّة[3]. ولم تتوقّف هذه الظاهرة طوال القرن السادس، على ما يبدو، من خلال المدوّنات التي تفيدنا عن أحداث متفرّقة في هذا المجال، مفادها أنّ بعض الأساقفة، إن في الشرق أم الغرب، كان يعارض «التعبّد لما هو من صنع البشر». بيدَ أنّ تلك الأحداث ظلّت محدودة حتّى مجيء الإسلام، وهو الدين الذي تنكّر للفنّ التصويريّ، وقد ذهب معظم الفقهاء إلى أنّ رسم الكائنات الحيّة من خصائص الله وحده. حتّى إنّ محمّداً قال بأنّ «أشدّ الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصوّرون[4]».

ويبدو أنّ ظاهرة الاعتراض على استعمال الأيقونات كانت قد تفشّت في منتصف العهد الأمويّ، وقد كان للمعتقد الاسلاميّ أثر في تفشّيها دون شكّ. وقد يكون هذا التفشّي سبباً رئيسياً في جعل الأمبراطور البيزنطيّ لاوون الأيصوريّ (أمبراطور ٧١٦ ـ ٧٤٠) الذي كان يحسن العربيّة، يشجّع رافضي الأيقونات على تحطيمها[5]، مشعلاً بذلك ما يشبه الحرب في الكنيسة.

---

١ - Eusèbe, VII. 18

٢ - هو مجمع Elvira . راجع: MANSI, Constitum Liberitanum, XXXVI

٣ - Baynes N. H. Idolatry and the Erarly church, Byz.Studies, PP. 127 - 128

٤ - البخاري، الجامع الصحيح، نشر (بولاق ١٢٩٦) ج ٧، ص ٦١

٥ - Diehl C., Leo III and the Isaurian Dynasty, Cam. Med. Hist., IV, 1 - 26

في الوقت نفسه، كان الخليفة الأمويّ يزيد الثاني (٧٢٠ ـ ٧٢٤) يتابع سياسة سلفه الأسبق عبد الملك بن مروان (٦٤٦ ـ ٧٠٥) فيأمر بتحطيم الأيقونات والصور والصلبان في المعابد والبيوت وحيث وُجدت[١].

إنطلقت شرارة حرب الأيقونات بين المسيحيّين من Nocolia و Synnada التابعتَين للقسطنطينيّة. فبينما قال أسقف الأولى بوجوب التخلّص من الأيقونات والصور، وهو الأمر الذي كان يجري في البلدان الواقعة تحت السيطرة الإسلاميّة بأمر من الخليفة، قام متروبوليت Synnada معترضاً. وتطوّر الأمر إلى أن وقف فريق مع الأسقف ومبدأ تحطيم الأيقونات، وكان من جملة هذا الفريق الأمبراطور نفسه، ووقف فريق آخر مع المتروبوليت[٢]. وانتقل الخلاف إلى العامّة عندما أمر الأمبراطور سنة ٧٢٧ بإنزال أيقونة السيّد المسيح من مكانها فوق أحد مداخل قصر خالكة، فاضطرب سكّان العاصمة، وهجم بعضهم محاولاً منع انزال الأيقونه. وإذ صدّهم الجند، تعارك الفريقان، ممّا أسفر عن سقوط عدد من الضحايا وإلقاء القبض على من طالتهم يد السلطة من المتظاهرين، وقد جُلد وشوّه بعضهم، وتمّ نفي بعضهم الآخر[٣].

كذلك تصدّى لقرار الأمبراطور أساتذة جامعة القسطنطينيّة التي دفعت ثمن غضبه غالياً إذ أمر، بحسب بعضهم، بإقفالها، أو بإحراقها كما يذكر بعض المؤرّخين[٤]. وطال الانشقاق الجيش البيزنطيّ نفسه، الذي سقط منه عدد من القادة، اذ أمر الأمبراطور بذبحهم بسبب قيادتهم فرقاً حاولت الانقضاض عليه لوقفه عن تدمير الأيقونات. وعبثاً حاول لاوون بالتهديد والوعيد الحصول على

١ ـ راجع: المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣؛ أبو الفرج الملطي، مجموعة المشرق (١٩٤٩) ص ٤٨٤؛ Theophanes, chron. a. 6125; Mansi, XII, col. 197′

٢ ـ Ostrogorsky G., Les Debuts de la Querelle des images, P. 238

٣ ـ Theophanes, chron. a. 6218 - 6221

٤ ـ المرجع السابق

تأييد أيّ من بابا رومة غريغوريوس الثاني، أو بطريرك القسطنطينيّة جرمانوس، اللذين أنذرا المؤمنين بعدم الانصياع للأمبراطور، حتّى غدا الصراع واضحاً بين السلطتين الروحيّة والزمنيّة، إذ كان الأمبراطور يعتبر نفسه رئيساً للشعب، وللكنيسة، ولكنّ موقف الكنيسة الجامع، قد خيّبه، ممّا جعله يصعّد حربه، داعياً المجلس الأعلى للدولة المؤلّف من مجلس الشيوخ وكبار رجال الدولة والكنيسة، إلى اجتماع رسميّ في قصر دفنة في بداية العام ٧٣٠، محاولاً انتزاع موافقة الأعضاء على بيان أعدّه، يرسم تحريم الأيقونات. وإذ رفض البطريرك جرمانوس توقيع البيان، سارع الأمبراطور إلى تعيين أنسطاسيوس ألسنكلوس ليحلّ محلّه، وكان من الطبيعيّ أن ينفّذ هذا الأخير رغبة الأمبراطور، من خلال دعوة المجمع القسطنطينيّ إلى الانعقاد وتحريم الأيقونات. وهذا ما جعل رومة تحتجّ، ممّا تسبّب في ظهور شرخ بين الكنيستين[١].

سقط نتيجة تشدّد الأمبراطور والبطريرك عدد كبير من ضحايا اضطهادهما لرافضي تحريم الأيقونات بين شهداء ومشوّهين ومعذّبين ومنفيّين. حتّى إنّ سكّان القسطنطينيّة نفسها قد لجأوا إلى الفرار منها جماعات تلو الجماعات، مُفضّلين التهجير على التنكّر لمقدّسات في عرفهم.

في النهاية، كان لموقف الأمبراطور من الأيقونات مردود عكسيّ من الخلافة الأمويّة. ففي الوقت الذي كان الأمبراطور يقف موقف المسلمين من الصور، وكان من المفروض أن تدعمه الخلافة في إجراءاته، شاءت الأقدار أن يتسنّم الخلافة في هذه الحقبة هشام بن عبد الملك (٦٩٠ ـ ٧٤٣) الذي ارتاح لمعارضة كنائس إنطاكية وأورشليم والإسكندريّة للأمبراطور البيزنطيّ، فرخّص لها بإقامة البطاركة من جديد[٢].

١ ـ Duchesne, Liber Pantificalis, I, 408 - 409

٢ ـ راجع: Theophanes, chron. a. 6234

إلاّ أنّ وضع الكنيسة في نهاية العهد الأمويّ، لم يكن على الشكل الذي أراده هشام. فإنّ الخليفة الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) غضب على قادة الكنيسة الذين «تخاصموا وتغالبوا في المناظرة بينهم وبين علماء المسلمين» فأمر بقطع لسان البطريرك الإنطاكيّ إسطفانوس الذي انتُخب في عهد هشام، وبقطع لسان متروپوليت دمشق بطرس، ولم ينجُ من الآباء الكبار سوى المونوفيزيّين، وأصحاب الرأي المستقيم البعيدين عن يد الخليفة، ومنهم الذين كانوا يتَّخذون من الجبال اللبنانيّة معقلاً لهم.

وهكذا، فعندما جاءت الثورة العبّاسيّة على الأمويّين، لم يكن وضع الكنيسة في المنطقة مرتاحاً. وكان على إنطاكية بطريرك إسمه ثيوفيلكتوس بن قنبرة الصائغ الرهاويّ، وهو «كاهن أورثوذوكسيّ أوعز مروان الثاني بانتخابه[1]». وانتهى العهد الأمويّ بثورة دمويّة، بينما كانت حرب الأيقونات لا تزال تتفاعل في الشطر الآخر من الشرق في عهد قسطنطين الزبليّ (٧٤٠ ـ ٧٧٥) الذي خلف لاوون.

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج٢، ص ٩١

الفصل التاسع

المسيحيّة في الشرق والعهد العبّاسيّ

- المسيحيّون عشيّة الانقلاب
- العبّاسيّون والكنيسة
- من السريانيّة إلى العربيّة
- تمرّد في مصر
- . . . وفي القسطنطينيَّة صراعات وانشقاقات
- الإسلام والمسيحيّة يتجابهان

عشية الإنقلاب

قبل أن ينفجر بركان الثورة الإسلاميّة ضدّ الخلافة الأمويّة بدءاً من خراسان في بداية صيف ٧٤٧، كانت المسيحيّة في الشرق قد تقسّمت إلى طوائف. فإضافة إلى الكنيسة التي انطبعت بتأثير اللاهوت اليونانيّ المنبثق من إنطاكية والقسطنطينيّة ووافقت على مقرّرات مجمع خلقدونية الكنسيّ سنة ٤٥١، وهي الكنيسة البيزنطيّة التي عُرف أتباعها فيما بعد بالملكانيّين، كانت الكنيسة السريانيّة قد أصبحت تؤلّف بضع طوائف، تحدّرت من فرعَين أساسيَّين هما: الكنيسة الشرقيّة السريانيّة، أو كنيسة الشرق، والكنيسة السريانيّة الغربيّة.

كانت الكنيسة السريانيّة الشرقيّة التي جمعت بين لاهوت المسيح وناسوته، واستنكرت تأليه السيّدة العذراء، والتي نُسبت في وقت متأخّر عن تاريخ نشوئها الى الراهب الصقلّي نسطوريوس (حوالى ٣٨٠- ٤٥١) فعُرفت بالنسطوريّة، «العامل الأقوى في الحضارة السوريّة التي طبعت الشرق الأدنى بطابعها، من مصر حتّى بلاد فارس. فإنّ جماعة من أبناء هذه الطائفة كان قد أقبل أعضاؤها بدءاً من القرن الرابع على درس كتب الفلسفة اليونانيّة، وعملوا على نقلها إلى لسانهم السريانيّ، وعلى بثّها في سورية والعراق. ثمّ أخذت هذه الكنيسة في الانتشار شرقاً من الرها حتّى تسرّبت إلى فارس. وفي أواخر القرن الخامس عمد أسقف العاصمة الساسانيّة - مدائن كسرى - إلى تنصيب نفسه بطريركا على الكنيسة الشرقيّة.... وقد كان لهذه الكنيسة سجلّ من النشاط التبشيريّ منقطع النظير، حتّى في ظلّ الإسلام، والمدافن الأثريّة وسواها من الآثار تشهد على وجود كنائس سريانيّة في مرو[١]، وهراة[٢]، وسمرقند[٣]، وفي أماكن أخرى في آسية الوسطى، يعود

---

١ - مرو: مدينة في تركمانيستان التي كانت تؤلف إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي. ومرو تُعرف اليوم ب«ماري» وقد فتحها العرب سنة ٦٥١.

٢ - هراة: مدينة في شمال غربي افغانستان. بناؤها منسوب الى الاسكندر.

٣ - سمرقند: مدينة في أوزبكستان التي كانت تؤلف إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي. خرّبها جنكيزخان سنة ١٢٢٩ثم استولى عليها تيمورلنك وجعلها عاصمته وفيها قبره.

تاريخها إلى أواسط القرن السادس.....حوالى هذا التاريخ، تسلّلت جنوباً إلى الهند إرساليّات تابعة لهذه الحركة التي عُرفت بـ «الحركة البروتستانتيّة الشرقيّة» حيث كانت النصرانيّة قد توثقت قبل ذلك بقرنين، فنشأت على ساحل الهند الغربيّ كنائس سريانيّة، لا سيّما في ملبار وسيلان. ولقد عُرف أتباع الطقس السريانيّ في الهند بـ «نصارى القدّيس توما» تبعاً لأخبار لا يعوّل عليها، جعلت من توما (الرسول) المعلّم الأوّل للمسيحيّة في الهند[1].

وفي نهاية العهد الأمويّ كانت هذه الكنيسة ناشطة في التبشير حتّى وصلت إرساليّاتها الى الصين سنة ٦٣٥.

أمّا الفرع الغربيّ من الكنيسة السريّانيّة، فهو الذي قال بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهي الطبيعة الإلهيّة دون الطبيعة البشريّة، ورفع العذراء إلى مراتب القدّيسين. وهم الذين لقبّهم خصومهم اليونان باليعاقبة نسبة الى يعقوب البرادعي أسقف الرها في أواسط القرن السادس. وكان هذا المذهب قد انتشر من سورية إلى أرمينية شمالاً، ومصر جنوباً، بينما راح أتباعه في سورية وبلاد ما بين النهرين بالتناقص منذ أن أصبح الإسلام القوّة المسيطرة في هذه البلاد.

اتَّخذت الكنيسة القبطيّة اسمها من لفظة القبط، التي تعني أصلاً، باللغة المصريّة الأصليّة (واسم هذه اللغة أيضاً قبطيّة) أرض مصر، قبالة الكلمة اليونانيّة aiguptos. ثمّ أصبحت لفظة القبط، بعد الإسلام، تعني المصريين المسيحيّين دون سواهم.

كانت الإسكندريّة قد تزعّمت الفكر المسيحيّ قبل الانشقاقات لمدّة من الزمن قبل أن تشاطرها إنطاكية هذه الزعامة. وكانت كنيسة الإسكندريّة قد قالت بكمال الطبيعة البشريّة في المسيح كما بكمال الطبيعة الإلهيّة. إلاّ أنّ بعض معلّميها نظر إلى الطبيعة الإلهيّة بتركيز مميّز، إلى أن تطرّف اوطيخة الإسكندريّ

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢ ص ١٣٥-١٣٦

باتّحاد الطبيعتين، إلى حدّ قال عنده باختلاطهما في طبيعة واحدة لا يميّز بين اللاهوت والناسوت. فالتقى بذلك مع القائلين بالطبيعة الواحدة من خلال قوله بالمشيئة الواحدة، إلاّ أن كنيسة الاسكندريّة، كما سائر كنائس مصر، قد وافقت على مقرّرات المجمع الخلقيدونيّ سنة ٤٥١، ولكن بعد ثلاث سنوات، خرجت كنيسة الإسكندريّة عن تلك المقرّرات، إثر نزاع على الأسقفيّة فيها، إنتهى بفتنة رهيبة داخل الكنيسة، وبوصول تيموتاوس الهرّ AILOUROS، الذي اعتبر نفسه مرسلاً من السماء، الى سدّة الأسقفيّة، وبعد ثبوته في الكرسي، صفّى أخصامه من مؤيّديّ المقرّرات الخلقيدونيّة، وجمع مجمعاً محلّيّاً، وحرّم المجمع الخلقيدونيّ، وقطع الأساقفة الموافقين عليه في رومة والقسطنطينيّة وإنطاكية[1]. ودخلت كنيسة الإسكندريّة في حقبة انشقاق وصراع طويلة الأمد. وإذ تعرّض المونوفيزيّون في نهاية العهد البيزنطيّ للتضييق، راح كبارهم يلجأون الى مصر، حيث انقسمت المونوفيزيّة بين قائلين بأنّ جسد المسيح قابل للفساد، وبين قائلين بأنّه غير قابل للفساد. وعندما جاء الفتح الإسلاميّ، كان مسيحيّو مصر على هذا التشتّت[2].

وتمكن المونوفيزيّون من السيطرة على كرسي الإسكندريّة تماماً لدى احتلال الفرس للمنطقة، وقد مال هؤلاء الى القائلين بالمونوفيزيّة التي كانت تخاصم الأمبراطور. إلاّ أنّ عودة هرقل، قسمت هؤلاء المونوفيزيّين من جديد، إلى حدّ استنصر معه فريقٌ العرب عند الفتح الإسلاميّ ضدّ الفريق الآخر[3]. وكان قد ظهر القول ببدعة «الفعل الواحد» في بعض الأوساط القبطيّة في مصر، وسط معارضة بطريرك الإسكندريّة أفلوغيوس الذي كان متمسّكاً بالكنيسة الجامعة[4]. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتّى سيطر المونوفيزيّون في مصر على قيصريّة الإسكندريّة حيث جلس بطريركهم على كرسيها، قبل أن يجعل هرقل بطريركا وواليًا على مصر

١ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج٢ ص ٣٤٧ -٣٤٨

٢ - Draguet, Julien, d'halicarnasse, rev. hist.Eec: (1937) pp. 92 -95 ; Stein , E.II, 233-235.

٣ - راجع: Mansi , XI, col. 561-564.

٤ - رستم، بالاستناد الى: Bardenhewer uber trinital and incarnation, Theol. quart.,18

إسمه كيروس، قال قول الأمبراطور بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة[١]، مما أدى إلى هروب المونوفيزيّين إلى ملاجئ نائية، ومناصرتهم للعرب المسلمين لدى دخولهم الى مصر، إذ رأوا فيهم المنقذين من السيطرة الروميّة[٢]. وهكذا فعندما شنّ العرب غزوتهم على الإسكندريّة سنة ٦٤٥، عاونهم المونوفيزيّون ضدّ البيزنطيّين الذين انهزموا، فخرجوا من الإسكندريّة وأخذوا أموال أهل القرى....«فلمّا ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوا الروم فقالوا لعمرو بن العاص: إنّ الروم أخذوا دوابّنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنّا على الطاعة. فردّ عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد إقامة البيّنة. وهدم عمرو سور الإسكندريّة[٣]».

ويبدو أنّ معاونة المونوفيزيّين للعرب لم تقتصر على مناوأتهم للبيزنطيّين، بل تعدّتها إلى معاونتهم ضدّ خصومهم من المسيحيّين. فإنّ بعض الباحثين[٤] بدقائق التاريخ المصريّ يؤكد على أنّ «البطريرك كيرس الذي نُصّب على كرسي البطريركيّة الإسكندريّة قبل الفتح الإسلاميّ بعشر سنوات، اضطهد القبط شديد الاضطهاد، حتّى لم يكبر عليهم أن يعاونوا العرب عليه حينما اضطروا إلى ذلك».

بيدَ أن انتصار العرب على البيزنطيّين لم يكن عمليّاً سوى حلول سيّد مكان آخر، إذ سرعان ما ارتفعت الجزية التي أثقلت كواهل المسيحيّين، الذين راح عدد كبير منهم يعتنق الإسلام، رغم أنّ القبط كانوا، بمؤازرة الأمويّين قد سيطروا على جميع كنائس مصر التي كانت للملكيّين، وأقاموا منهم أساقفة عليها، كما أرسلوا الأساقفة الى بلاد النوبة التي تحوّل مسيحيّوها أمام هذا الواقع إلى المونوفيزيّة القبطيّة[٥]، وتخلوا، هم وأهل الحبشة، عن الكنيسة البيزنطية تماماً[٦].

١ - Sévére d'Ashmounein, vie de Beojamin, I, PP. 489 - 492
٢ - Mansi, XI, col. 561 - 564
٣ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (دار صادر - بيروت ١٩٧٩) ج٣، ص ٨١
٤ - Alfred Butler, the Arab conquest of Egypt;
راجع: المقتطف، المجلد ٢٨، الجزء ٣ (آذار - مارس ١٩٠٣) ص ٢٣١ ومايليها.
٥ - المقريزي، الخطط، طبعة بولاق، ص ٤٩٣
٦ - راجع: شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة بطرسبرغ، ص ٢٦٩؛ ابن حوقل، صورة الأرمن، طبعة ليدن (١٩٣٨) القسم الأول، ص ١٠.

هذه التحوّلات، لم تقضِ تماماً على وجود الكنيسة المسيحيّة الملكانيّة في مصر، إذ في عهد هشام بن عبد الملك (٦٩٠ - ٧٤٣)، وإثر وقوف الملكانيّين ضد الأمبراطور الرومانيّ في مسألة الأيقونات، كافأهم هشام بإعادة بعض كنائسهم إليهم بعد أن كان المونوفيزيّون قد استولوا عليها، ومنها كنيسة القيساريّة[١].

ويبدو أنّ الملكانيّين كانوا قد تمكّنوا من المحافظة على كنيسة مار ميخائيل التي في قصر الشمع «وكانوا يصلّون فيها، وكانوا إذا مات أسقفهم بعثوا إلى مطران صور فكان يصلح لهم أسقفاً[٢]».

بعد اعتناق عدد كبير من القبط للإسلام، وانحسار سيطرتهم على الكنائس في مصر نهاية العهد الأمويّ، شهدت الكنيسة القبطيّة في نهاية ذلك العهد تقهقراً نسبيّاً ملحوظاً، سوف يكون له تأثيره الواضح عليها في بداية العهد العبّاسيّ.

العباسيون والكنيسة

إذا كان الفتح العربيّ الإسلامي الأوّل لهذه المنطقة من العالم، فتحَ القوّة المسلّحة، فإنّ العهد العبّاسيّ، سوف يحقّق للإسلام، فتح الإسلام من حيث هو دين وعقيدة[٣].

كان لانتصار العبّاسيّين على الأمويّين نتيجة مصيريّة، أدّت إلى تحوّلين أساسيّين: الاوّل، انتقال عاصمة الخلافة من دمشق سورية إلى بغداد العراق، والثاني تحوّل الخلافة الإسلاميّة العربيّة إلى أمبراطوريّة من المسلمين المستجدّين، لم يكن العرب فيها سوى عنصر من عناصر عدّة، أبرزها الفارسيّ. ومع هذه الأمبراطوريّة، راح مجد الأرستقراطيّة العربيّة يتراجع ليستمرّ الإسلام في سيره المظفّر بزيّ جديد.

١ - قابل: المقريزي، الخطط، ص ٤٩٣
٢ - نظم الجوهر، (طبعة بيروت) ج٢، ص ٤٥ - ٤٦
٣ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج٢، ص ١٧٠

بعد أن ثبَّت العبّاسيّون أنفسهم على كرسي الخلافة، قام الخليفة العبّاسيّ الثاني: المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) الذي عقب الخليفة العبّاسيّ الأوّل، أخاه السفّاح، (٧٥٠-٧٥٤)، قام باختيار موقع قرية مسيحيّة في العراق، ذات اسم فارسيّ: بغداد، أي عطيّة الله، ليبني عليها عاصمته الجديدة، على الضفّة الغربيّة السفلى من نهر دجلة، وليطلق عليها رسميّاً اسم دار السلام، بعد أن أقام حولها سوراً خارجيّاً من الطوب، ذا جدار مزدوج، وسوراً آخر داخليّاً بلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين متراً، وجعل بين السورين خندقاً عميقاً. وقد غدت هذه المدينة التي قامت مكان قرية مسيحيّة، رمزاً منقطع النظير لمجد الإسلام. وإنّ هذا التحوّل لم يقتصر على تلك القرية المسيحيّة في هذه المنطقة من العالم وفي تلك الحقبة من التاريخ، ولكنّه كاد يكون شاملاً.

فرض العبّاسيّون، في بداية عهدهم، التدابير الصارمة على المسيحيّين. وإذا كان هؤلاء قد تحمّلوا تلك التدابير، فلم يكن ذلك إلاّ بحكم أنّهم مغلوب على أمرهم. ولقد حاول بعضهم التمرّد حيث أمكن، مثلما حصل في لبنان في العام ٧٥٩، عندما شبّت أولى الثورات المسيحيّة ضدّ الحكم الإسلاميّ في قرية صغيرة من أعالي لبنان، إسمها المنيطرة، القريبة من أفقا، الواقعة بين جبيل ساحلاً وبعلبك شرقاً.

«فقد ثار نصارى هذه القرية ضدّ تعسّف عامل العبّاسيّين وجوره في فرض الضرائب عليهم، واستولوا على عدّة قرى في البقاع وتقدّموا نحو بعلبك التي كانت مقرّاً لعامل العبّاسيّين. وكان زعيم هذه الثورة شابّاً جبلياً عملاقاً شديداً يُلقّب بالملك. وقد نصب له جنود العبّاسيّين كميناً وهو في طريقة إلى بعلبك فانقضّت عليهم الفرسان ومزّقت شملهم. وكانت ردّة الفعل عند العبّاسيّين عنيفة، فإنّ العامل العبّاسيّ، صاع بن عليّ، وهو أخو عبد الله القائد العامّ للجيوش العبّاسيّة، هاجم القرى الثائرة في منطقة المنيطرة وشتّت سكّانها في طول البلاد وعرضها،

ولكنّه لم يتعرّض لدينهم بسوء. وقد كان لهذا العمل العنيف أثر سيّئ في نفس الإمام الأوزاعيّ[١]، الفقيه المحدث المشهور[٢]».

إنّ المدقّق في أخبار الخلفاء العبّاسيّين والعهد العبّاسيّ عموماً، يستخلص من تناقض المدوّنات عن معاملة العبّاسيّين للمسيحيّين، أنّ العبّاسيّين في بداية ملكهم، قد حاولوا استمالة الفعاليّات المسيحيّة إليهم، في غمرة الغليان الذي عمّ المنطقة بكاملها، من فلسطين إلى الفرات، حيث عمّ الاضطراب بسبب انتقال السلطة من الأمويّين ودمشق، الى العبّاسيّين والعراق. وإنّ تقريب بعض الشخصيّات المسيحيّة من بلاط الخلفاء، لم يكن ليعوّض أدنى تعويض عن التشدّد الذي مارسه العبّاسيّون ضدّ المسيحيّة. ولا يمكن إغفال الفرق في هذا الشأن بين خليفة وآخر، كما يلاحَظ من بعض الوقائع، خاصّة وأنّ بعض هؤلاء الخلفاء كان ليّناً منفتحاً متسامحاً، وبعضهم الآخر كان قاسياً متشدّداً.

ففي أوائل العهد العبّاسيّ «قام المهديّ (٧٧٥-٧٨٥) بتقويض الكنائس التي ابتناها النصارى في عهد العرب، وأخرب كنيسة الخلقيدونيّين في حلب[٣]». وقد منع هذا الخليفة النصارى من اقتناء العبيد. وعندما زار حلب سنة ٧٧٩، خرج للقائه التنوخيّون العرب ممتطين خيولاً مطهّمة مزيّنة بأبهى الحلل، وإذ قيل له بأنّ هؤلاء نصارى «إحتدم المهديّ سخطاً وأضطرّهم أن يسلموا. فأسلم زهاء خمسة آلاف رجل. ولم تسلم النساء. واستشهد منهم رجل جليل اسمه ليث[٤]».

ولم يكن هارون الرشيد أقلّ تشدّداً من المهديّ ضدّ المسيحيّين. هذا الخليفة

١ ـ عبد الرحمن الأوزاعي (٧٠٧ ـ ٧٧٤) من أئمة الفقهاء في الاسلام. ولد في بعلبك ترك مذهبا معروفا به. توفي في بيروت ودفن في قبلة المسجد المعروف باسمه جنوبي المدينة. له كتاب «السنن» و«المسائل».

٢ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٣٢٧.

٣ ـ تاريخ أبي الفرج الملطي (المشرق ١٩٤٩) ص ٤٩٢

٤ ـ المرجع السابق، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٧

العبّاسيّ الخامس (٧٨٦-٨٠٩) الذي جاء إلى العرش بعد اغتيال أخيه الهادي، وحارب البيزنطيّين وهو لا يزال حاكما على المقاطعات الغربيّة حتّى بلغ أبواب القسطنطينيّة، وعاد وحمل مرّات عليهم بعد خلافته، قد أعاد مفعول بعض الإجراءات التي وضعها عمر بن عبد العزيز ضدّ النصارى واليهود. «وفي سنة ٨٠٧ أمر بهدم جميع الكنائس التي كانت قد بُنيت قبل الفتح الاسلاميّ، مقلّدا بذلك المهديّ، وسنَّ كذلك قانوناً أوجب به على جميع الذمّيّين أن يلبسوا اللباس المعيّن[1]».

وكما فعل هارون الرشيد ، قام الخليفة العبّاسيّ العاشر: المتوكّل (٨٢١-٨٦١) بإعادة شرعة التمييز البشريّ، عن طريق إحياء تنفيذ الإجراءات العمريّة التي أتبعها بتدابير جديدة، كانت أشد ما فُرض بحقّ الأقلّيّات على الإطلاق. فقد أجبر النصارى واليهود على أن يجعلوا على بيوتهم تماثيل خشبيّة للشياطين، وأن لا يرفعوا سطوح قبورهم عن مستوى سطح الأرض، وأن يرتدوا معاطف عسليّة اللون لتدلّ على هويّتهم الدينيّة، وأن يجعلوا على كلّ من الكمّين رقعتين عسليّتين تخاط إحداهما من أمام والثانية من وراء. وأن لا يركبوا إلاّ البغال والحمير على سرج من خشب له على قربوسيه كرتان خشبيّتان كأنّهما رمّانتان. فصار الذمّيّ يسمّى بسبب هذه الملابس الخاصّة بالأرقط. ثمّ إنّ القضاة المعاصرين عمدوا إلى اعتبار شهادة اليهوديّ والنصرانيّ على المسلم غير مقبولة، بناء على الآية القرآنية التي تتّهم اليهود والنصارى بتحريف الكتاب المقدّس[2] (سورة البقرة، ٧٠؛ سورة المائدة: ١٦-١٨). وكانت نتيجة هذه التشريعات وقوع تعدّيات عديدة على المسيحيّين، منها الفتنة التي وقعت في حمص، بين النصارى

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ١٤١

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢ ص ١٦٨ - ١٦٩، بالاستناد الى: الطبري، ج٣، ص ١٣٨٩ - ١٣٩٣؛ الجاحظ، البيان، ج ١، ص ٧٩، س ٢٨.

والمسلمين، سنة ٨٥٥، وقُمعت بضرب أعناق قادتها الذين جُلدوا حتّى الموت، وصُلبوا على أبواب المدينة. ثمّ هدمت جميع الكنائس إلاّ تلك التي ضُمَّت الى المسجد الكبير، وأُبعد جميع النصارى عن المدينة الهائجة، وقد كان سواد سكّانها، على ما يبدو، من النصارى[1].

تلك التدابير التمييزيّة كانت تقسو وتلين، إلاّ أنّ تدبير دفع ضريبة الجزية الذي كان يشكّل أكبر حيف لحق بالذمّيّين، كان ثابتاً.

هذه الضريبة «كانت مبدئيّاً، الثمن الذي يُدفع عن حقّ الإقامة وحرّيّة العبادة، وفي مقابل الأمان على الحياة وعلى المقتنيات. لذلك كان هذا العقد عرضة للإلغاء في حال الامتناع عن دفع الجزية، أو القيام بفتنة، أو اللجوء الى التجسُّس لحساب دولة غريبة، أو إيواء عدوّ من أعداء الدولة[2]».

ومن الأمثلة الدالّة على ترجمة هذا الاعتبار، أنّ المهديّ، كان قد «أنفذ جيوشاً إلى الروم، فأخرج إليه لاون، ملك الروم، بَطريقَين من الجنود، فكسروا عسكره وسبوهم، فأغاظه ذلك، فهدم البيَع في سائر النواحي[3]». وهكذا انتقام يمكن أن يأتي بحجّة تجسُّس النصارى لحساب الروم. والأمثلة على هذا كثيرة.

ومع مرور الزمن، أضيفت إلى شروط الذمّة أسباب كثيرة لإلغاء العقد، منها: «الفجور بمسلمة حرّة، وصرف المسلم عن دينه. والتجديف على الله أو على رسوله أو كتابه. أمّا المسلم فلم يكن له أن يعتنق النصرانيّة أو اليهوديّة دون أن يعرّض نفسه للموت. وقد أجازوا إقصاء الذمّيّ غير المرغوب فيه إلى خارج البلاد الإسلاميّة. وكان أكثر المذاهب الفقهيّة يمتنع عن إنزال العقوبة القصوى بالمسلم إن

١ - المرجع السابق، ص ١٦٩، بالاستناد الى: الطبري، ج٣ ص ١٤٢٢ - ١٤٢٤؛ ابن الأثير، ج ٧، ص ٥٩ - ٦٠؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٥٩٩.

٢ - المرجع السابق، ص ١٦٩

٣ - ماري بن سليمان، المجدل، أخبار بطاركة كرسي المشرق، ص ٧٤

هو قتل ذمّياً. ولم يُمنع غير المسلم من أن يرفع أمره إلى محكمة إسلاميّة، إن هو أراد ذلك. أمّا إذا كان أحد المتقاضيين مسلماً فلا بدّ من رفع الشكاية الى قاض مسلم. ثم إنّ القضيّة إذا كانت بين ذمّيين من مذهبين مختلفين: أحدهما نصرانيّ والآخر يهوديّ، فإنّ الشرع الإسلاميّ لا يتعرّض لها إلاّ في حال تعذّر الاتّفاق بين الفريقين على اختيار المحكمة. ومن ذلك أنّ الزوج إذا اعتنق الإسلام، وكانت زوجته كتابيّة، فإنّ عقد الزواج يبقى قانونياً؛ أمّا إذا اعتنقت هي الإسلام، فينبغي عندها على الزوج أن يتبعها في ذلك، في غضون ثلاثة أشهر، تنقطع بينهما في أثنائها كلّ صلة زوجيّة، وإلاّ طلّقت منه. أمّا في ما يتعلق بالإرث، فقد منعوا على الذمّيّ أن يرث من المسلم شيئاً[1] ».

كان من الطبيعيّ أن يؤدّي هذا التشدّد إلى لجوء الكثيرين من وجهاء المسيحيّين إلى المهاجرة نحو آسية الصغرى وجزيرة قبرص وجبال لبنان، بينما أوى عدد كبير من الأسر المسيحيّة في سورية إلى حظيرة الإسلام تفادياً للتدابير المذلّة والضرائب الفادحة، وحرصاً على الكرامة الاجتماعيّة والنفوذ السياسيّ. من هؤلاء، على سبيل المثال، التنوخيّون الذين عملوا بإشارة المهديّ العبّاسيّ واعتنقوا الإسلام، ودخلوا لبنان في مطلع القرن التاسع، وقد أقطعهم العبّاسيّون مناطق واسعة من الجبل، وأقاموهم حاجزاً دون الموارنة في شماليّ لبنان، وسدّاً في وجه الروم المُقبلين من البحر. ومنذ ذلك التاريخ، بدأت السيطرة الإسلاميّة العدديّة تحقّق خطوات واسعة في سورية، التي كان سواد سكّانها قبلاً من المسيحيّين.

من السريانية الى العربية

في هذه الحقبة، بدأت اللغة العربيّة تحلّ محلّ اللغة السريانيّة في البلاد السوريّة، ومحلّ اللغة القبطيّة في مصر. ولم تُعرف أيّة مؤلّفات للمسيحيّين

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٦٩ - ١٧٠

السوريّين باللغة العربيّة قبل نهاية القرن السابع، وأقدم مؤلّف معروف من هذا النوع، هو مخطوطة محفوظة في المتحف البريطانيّ ألّفها ثيودوروس أبو قرّة المتوفّي سنة ٨٢٠[1].

ولقد كان ثيودوروس هذا أسقفاً ملكانياً في حرّان. وإذا كان الملكانيّون قد بكّروا، نسبيّاً، في اعتماد العربيّة، فإنّ أكثر الكنائس السريانيّة الكبرى، ومنها المارونيّة واليعقوبيّة والنسطوريّة، قد حافظت على اللغة السريانيّة إلى ما بعد العبّاسيّين. وفي العراق بقي الكلدان على لغتهم[2].

ويُجمع المدقّقون في مسار التطوّر التاريخيّ للشرق العربيّ، على أنّ تلك الشعوب المسيحيّة، التي كانت تنطق بالسريانيّة، كان لها فضل عميم على اليقظة العربيّة ونهضة العرب الفكريّة، خاصّة في حقبة الخلافة العبّاسيّة، التي غدت مفخرة العصر الإسلاميّ القديم لناحية الفكر والحضارة. فبين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن التاسع، شهد العالم العربيّ حركة ثقافيّة قلّما عرفها شعب بخلال قرن. وكان من أبرز عناصر تلك الحركة، ترجمة أهمّ المؤلّفات التي كُتبت باليونانيّة والفارسيّة والسريانيّة إلى العربيّة، ممّا أوجد للعربيّ القادم من الصحراء والمتعطّش الى معرفة، زاداً دسماً من موادّ الفنّ والفلسفة والعلوم. ولقد كان السريان، وهم من المسيحيّين، الوسطاء، بين الفكر اليونانيّ والعرب، وقد توسّلوا الترجمة للقيام بهذه الوساطة خير قيام. ذلك أنّهم كانوا قد عايشوا اليونان ألف سنة ونيّف، وامتزجت معارفهم بمعارف أولئك، وكذلك المدارس. فإنّ مدرسة إنطاكية كانت تستعمل اللغتين اليونانيّة والسريانيّة، وكان السريان من أهل البلاد يجيدون اليونانيّة إذا كانوا من أهل المدن، أي أنّهم كانوا مزدوجي اللغة. وكان علماؤهم قد

١ - راجع: Theodorus abu Kurra, De cultu imaginum, ed. and trans. I. Arendzen (Boun, 1897)

٢ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٧١

نقلوا الى السريانيّة أبرز مؤلّفات اليونان قبل الفتح العربيّ، وها هم في زمن العبّاسيّين يجهدون في ترجمة تلك المؤلّفات إلى العربيّة، بعدما كانوا قد نقلوها إلى الفارسيّة يوم كانت مدرسة الإسكندريّة ناشطة وكان الفرس يحتلّون مصر وجزءاً من الهلال الخصيب.

وهكذا وجد العرب بين أيديهم مؤلّفات أرسطو وسقراط وأفلاطون وجالينوس وأقليدس وبطليموس وفرخوريوس. فأصبح، في متناول فكرهم، لفلسفة واللاهوت والطبّ والفلك. حتّى إنّ بعض المسيحيّين السريان قد تسنّم في لعهد العبّاسيّ مناصب هامّة نظراً لما كان يتمتّع به هؤلاء من علم ومعرفة، وقد شتهر من بين هولاء بختيشوع المتوفّي في بداية القرن التاسع، والذي كان رئيس لأطبّاء في مصحّ بغداد في عهد هارون الرشيد. وكان المنصور قد استدعى جرجيس، والد بختيشوع من جنديشابور، حيث كان عميداً لمعهد الطبّ الذي أنشأه كسرى أنو شروان. وعندما مثل جرجيس أمام الخليفة وقام بالمهمّة الطبّيّة التي طلبها منه، أُعجب به المنصور وعرض عليه الدخول في الإسلام، إلاّ أنّ جرجيس بقي متمسّكاً بدين آبائه وأجداده[1].

أبرز الذين اشتهروا في أعمال الترجمة إلى العربيّة من المسيحيّين السريان في ذلك العهد، يوحنّا بن ماسويه، الذي يذكره العرب باسم يحيى، وقد ترجم عدّة كتب بناء على طلب هارون الرشيد الذي كان قد غنمها بخلال غاراته على آسية الصغرى. وكان معظم تلك المؤلّفات في الطبّ، وكان يوحنّا طبيب البلاط العبّاسيّ من أيّام الرشيد حتّى أيّام المتوكّل[2]. وهنالك يوحنّا آخر برع في مجال الترجمة من اليونانيّة إلى العربيّة، هو يوحنّا بن البطريق المعروف بيوحنّا الترجمان، وهو عالم

١ - القفطي، تاريخ الحكماء، (ليبتزك ١٩٠٣) ص ١٥٨ ؛ ابن العبري، نشر برنز وكيرتش (ليبتزك ١٧٨٩) ص ٢١٣.

٢ - راجع: القفطي، ص ٣٨٠ ؛ ابن العبري، ص ٢٢٧

مسيحيّ ملكيّ ولد نحو ٨١٥، إنصرف الى ترجمة المؤلّفات اليونانيَّة إلى العربيّة، وأهمّ ما نقله إلى العربيّة: «كتاب السياسة في تدبير الرئاسة»، و «المقولات العشر» لأرسطو. وكتاب «الأربعة» لبطليموس. وكتاب «طيماوس» لأفلاطون.
ومن عظماء أبناء الكنيسة الشرقيَّة الذين برزت أعمالهم الفكريّة في ذلك العصر. حنين بن إسحق، الطبيب، والشمّاس النسطوريّ، من قبيلة عباد العربيّة، الذي ولد في الحيرة العراقيّة، ودرس الطبّ في بغداد، وتضلّع من العربيّة. وقد عيّنه الخليفة المأمون على «بيت الحكمة»، وهي المؤسّسة التي أنشأها ذلك الخليفة وأقام فيها مكتبة ومتحفاً ومعهداً للترجمة، وما لبث حنين أن انصرف إلى الترجمة، فنقل إلى السريانيّة والعربيّة بعض كتب أفلاطون وأرسطو وديوسقوريدس وجالينس، كما ألّف كتابي «عشر مقالات في العين» و«المدخل في الطبّ». ويبدو أنّ اسحق بن حنين، كان يساعد أباه في أعمال الترجمة، وكذلك حبيش، ابن شقيقة حنين. فكان حنين يترجم من اليونانيّة الى السريانيّة ويقوم إسحق وحبيش بالترجمة من السريانيّة إلى العربيّة[1]. وقد اشتهر حنين، إضافة إلى علمه ومعرفته وخدماته الجلّى التي أدّاها للعلم والمعرفة، بنبله ورفعة أخلاقه، حتّى انّه فضّل السجن على تلبية طلب المتوكّل الذي أراده أن يركّب سمّاً ليقتل به أحد أعدائه. أمّا ولده إسحق الذي توفي في بغداد سنة ٩١١، فقد نقل الى العربيّة، إضافة إلى معاونته لأبيه، «أصول الهندسة» لإقليدس، و«المجسطي» لبطليمس، و«الكرة والأسطوانة» لأرخميدس، و«سوفسطس» لأفلاطون، و«المقولات» لأرسطو. وعُرف إسحق بأنّه طبيب وفيلسوف. وكان هو الآخر نسطوريّاً.

أمّا الكنيسة السريانيّة الغربيّة، فقد أعطت العربيّة في الحقبة نفسها رهطاً من العلماء والمترجمين، أبرزهم قسطا بن لوقا البعلبكّيّ، وتاوفيل الرهاويّ المارونيّ، ويحيى بن عدي.

١ - راجع: ابن خلكّان، وفيات الاعيان، (القاهرة ١٢٩٩هـ) ج ١ ص ١١٦ ؛ إبن أبي أصيبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء (القاهرة ١٨٨٢) ج ١، ص ١٨٧ و ٢٠٣ ؛ الفهرست، ص ٢٩٧

كان قسطا بن لوقا البعلبكيّ (٨٢٠ ـ ٩١٢) طبيباً وفيلسوفاً مسيحيّاً ملكيّاً. نقل إلى العربيّة مؤلّفات اليونان واشتغل في صنع الآلات الفلكيّة. وقد خلّدته مؤلّفات عديدة منها: «المرايا المحرقة» و «الفلاحة اليونانيّة» و«رسالة في الفرْق بين الروح والنفس». وقد تُرجمت مؤلّفاته الى اللاتينيّة في القرون الوسطى. وكان قسطا «يرحل إلى بلاد الروم في طلب الكتب، ويعكف على الاشتغال بها في بغداد. وقد أدركته الوفاة في أرمينية بعد أن خلّف ٦٩ مؤلّفاً موضوعاً و ١٧ كتاباً مترجماً. وأقيم له في مكان وفاته مدفن تذكاريّ[1]».

أمّا يحيى بن عدي، فهو المعروف بأبي زكريّا المنطقيّ (٨٩٣-٩٧٤) وهو فيلسوف مسيحيّ من تكريت، بين الموصل وبغداد. تتلمذ على أيدي أبي بشر متّى والفارابيّ. نقل إلى العربيّة هو الآخر العديد من كتب اليونان، منها كتاب «النفس» لأرسطو، وله مصنَّفات أدبيّة وفلسفيّة ولاهوتيّة عديدة.

ويبقى اسم أبي بشر متّى بن يونس المنطقيّ المتوفي سنة ٩٤٠، ساطعاً فوق أعلام الفلسفة السريانيّة والعربيّة، فإنّ هذا الفيلسوف والطبيب النسطوريّ المولود في بغداد والمتوفّي فيها سنة ٩٤٠، قد علّم مفخرة العرب: الفارابيّ، الفلسفة. ولقد قيل في أبي بشر: «إليه انتهت رئاسة أهل المنطق في أيّامه». وهو أوّل من نقل عن اليونانيّة «بويتيكا»، أو كتاب الشعر، لأرسطو، وعن السريانيّة كتاب «البرهان» لإسحق بن حنين. وهو من شرح كتاب «إيساغوجي» لبورفيريوس.

وهكذا نجد أنّ نتاج الفكر المسيحيّ السريانيّ قد تحوّل في العصر العبّاسيّ إلى نتاج عربيّ، ممّا فتح للإسلام باباً واسعاً إلى العالم الرحب الذي كانت تحجبه الصحراء عن مدارك العرب.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ١٧٧ بالاستناد الى: الفهرست، ص ٢٩٥؛ القفطي ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣؛

G. Gabrieli in: Rendiconti della Reale Accademia dei Lincei, ser, 5, vol. XXI, (Rome, 1912) PP. 361 - 382.

بشمور، هي أرض تحيط بها المستنقعات، تقع في مصر بين الإسكندريّة ورشيد، قرب بحيرة أدكو، كان يقطنها مسيحيّون، نُسبوا إليها، فعُرفوا بالبشموريّين. أمّا أصل هذا الشعب فيقال إنّه من سلالة أربعين يونانيّاً بقوا في مصر بعد الفتح الإسلاميّ، فانعزلوا في تلك المنطقة الحصينة بالمستنقعات، حيث راحوا يزاولون زراعة الغابات وإنتاج ورق البردى[1].

هؤلاء البشموريّون، أطلق عليهم بعض الرواة المسيحيّين، ومن بينهم ابن بطريق، اسم «البياماي». ولا نعلم سبب هذه التسمية وأصلها. وكانوا يشكّلون مجموعة إتنيّة داخل الطائفة القبطية في مصر.

يبدو أنّ العرب قد اعتبروا هؤلاء البشموريّين المتحدّرين من أصل يونانيّ، وكأنّهم أعداء، فعاملهم العبّاسيون معاملة في غاية القسوة، فقد «ربطوهم بسلاسل إلى المطاحن، وضربوهم بشدّة ليطحنوا الغلال كما تفعل الدواب سواء بسواء. وقد اضطرّ البشموريّون أن يبيعوا أولادهم ليدفعوا الجزية ويتخلّصوا من آلام العذاب[2]».

وهكذا، فعندما لاحت بوادر تمرّد مسيحيّ قبطيّ في مصر على الحكم الإسلاميّ، عهد العبّاسيّين، كان البشموريّون على استعداد للقتال في أشدّ معانيه.

كان الأقباط قد قاموا بحركة تمرّد في نهاية العهد الأمويّ، عندما حاولوا الامتناع عن دفع الجزية، وقد ترجموا هذا الرفض بأعمال مقاومة ضدّ موظّفي الدولة التي أحبطت هذا التمرّد سنة ٧٣٩.

في بداية العهد العبّاسيّ، هدأ الأقباط، إذ خفّض العبّاسيّون مستوى

---

١ ـ ابن بطريق، كتاب التاريخ، تحقيق ونشر الأب شيخو، ص ٥٧

٢ ـ ساويرس بن المقفع، تاريخ بطاركة الإسكندريّة، نشر Scybold (بيروت) ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧

الجزية. ولكنّ هذا التساهل لم يدم طويلاً، إذ لم يمضِ عقدان على العهد الجديد، حتّى عادت الضرائب القاسية لتثقل كواهل مسيحيّي مصر، فكان التمرُّد الثاني سنة ٧٧٣، الذي أخمده العبّاسيّون بسرعة. وخضع الاقباط للحكم الإسلاميّ بعد ذلك ما يقارب الستّين سنة ، حتّى نشبت كبرى ثوراتهم سنة ٨٣١ في عهد خلافة المأمون. «وقد سالت فيها الدماء وترتّبت عليها نتائج رهيبة. وانضمّ عدد كبير من المسلمين إلى النصارى في ثورتهم.... فأخرجوا العمّال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمّال السلطان فيما كانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب[1]. وفيما اعتبر بعض المحقّقين أنّ البشموريّين قد انضمّوا الى هذه الثورة بفعاليّة، قال سواهم بل إنّهم كانوا أوّل من قام بإعلان الثورة ضدّ جباة الضرائب، وإنّهم كانوا أكثر توحّشاً وتعنّتاً من سائر سكّان مصر.

الثابت أنّ البشموريّين قد «قاموا بالثورة ضدّ (والي مصر العبّاسيّ) عبد الملك[2]، وكان يقودهم مينا بن بكيرة، وقد انضمّوا الى أهل شبرا سنباط، واستولوا على هذه الناحية، ورفضوا أن يدفعوا الجزية للحاكم وللقائم العامّ على شؤون الضرائب. وقد سار إليهم عبد الملك على رأس جيش، ولكنّه لاذ بالفرار بعد مذبحة كبيرة. ثم عاد فأرسل إليهم جيشاً وأسطولاً ولكنّهما باءا بالفشل الذريع[3]».

ليس بوسع المراقب إلاّ أن يتوقّف عند أهمّيّة هذه الثورة التي استدعت حضور الخليفة العبّاسيّ شخصيّاً إلى مصر في محاولة لإخمادها. وممّا يدلّ على مدى خطورة تلك الثورة، أنّ المأمون (خليفة ٨١٣– ٨٣٣) لدى حضوره إلى مصر، عرض

---

١ ـ المقريزي، المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، ج ١، ص ٧٩ ـ ٨٩

٢ ـ عبد الملك بن يزيد الخرساني، (أبو عون) ـ توفي سنة ٧٧٧. قائد عباسي من الولاة. هزم عثمان بن سيفان في شهرزور سنة ٧٤٩. اشترك في معركة الزّاب سنة ٧٥٠ وتعقب مروان الثاني حتى قتل. ولّي مصر مرتين ثم خرسان سنة ٧٧٦

٣ ـ تاريخ ميخائيل السوري، ترجمة «شابو» عن اللغة السريانية، (باريس ١٩٠٥) ج ٣، ص ٨٣

على الثوّار عفواً عامّاً إذا ما هم هدأوا. وقد لجأ إلى بطريرك الأقباط في «تلّ مهرة» وهو «ديونيسيوس» ليقوم بمهمّة «سفير» بين الخليفة والبشموريّين ولكنّ الخليفة اشترط أن ينتقل هؤلاء من بشمور ومستنقعاتها ليسكنوا في أماكن أخرى. إلاّ أنّ البشموريّين، رفضوا الاستسلام، رغم ضآلة إمكاناتهم القتاليّة ضدّ أقوى أمبراطوريّة كانت تسيطر على الشرق في ذلك التاريخ. وهذا ما دفع المأمون العبّاسيّ الى شنّ حملة عنيفة كبرى عليهم، سحقتهم سحقاً، وقتلت منهم عدداً كبيراً، ونُفي الناجون منهم إلى إنطاكية ومنها إلى بغداد، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف. وقد مات بعضهم في الطريق. أمّا الذين أُسروا خلال القتال، فقد سيقوا عبيداً ووُزِّعوا على العرب. وبلغ عدد هؤلاء حوالى خمسماية نسمَة أُرسلوا الى دمشق وبيعوا في سوق الرقيق.

سُجن البشموريُّون الأقباط في بغداد طوال عهد المأمون، حتّى جاء عهد أخيه إبراهيم، فأفرج عنهم، فعاد بعضهم إلى مصر وبقي الآخرون في بغداد حيث يُعرفون حتّى الآن بالبشموريّين.

وبذلك، أطفأ المأمون نهائيّاً جذوة ثورة الأقباط في مصر، وقد ذكر مؤرّخو الحقبة أنّه «من حينئذ، أذلّ الله القبط في جميع أراضي مصر، وخذل شوكتهم. فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان[1]».

وفي القسطنطنية صراعات وانشقاقات

بينما كانت المسيحيّة في البلاد التي كان يحكمها البيزنطيّون، قبل أن يهزمهم المسلمون، تتعرّض للتقهقر بسبب التضييق الذي كان من الطبيعيّ أن يمارسه المسلمون عليها، كانت الانشقاقات تشكّل سبباً آخر لمزيد من التقهقر، إذ

---

١ ـ المقريزي، ص ٧٩ ـ ٨٠

كان المونوفيزيّون في حالة صراع دائم مع الملكانيّين. في هذه الأثناء كانت العاصمة المسيحيّة الشرقيّة التي انتقل إليها مركز الثقل المسيحيّ بتحوّلها إلى قاعدة للحكم البيزنطيّ، ولرئاسة الكنيسة في الشرق: القسطنطينية، كانت مسرحاً لمزيد من التطاحن والشقاق داخل الكنيسة. وقد اختلط في هذا الصراع ما هو سياسيّ بما هو كنسيّ، وأصبحت الكنيسة مُسيّسة بشكل لم يسبق له مثيل، وأصبح الدّين موضوع تحزّب، دون سواه. وعندما لم يعد هنالك مجال للبدع بعد أن استنفد «المجتهدون» كلّ ما يمكن أن يُبتدع في المسيح، أوجدوا مسألة الأيقونات لتغذّي حرباً بدأت في العام ٧٢٦ لتستمرّ حتّى سنة ٨٤٣ وإن بتقطّع أحياناً. وقد كان لهذه الحرب فعل إضرام نيران الأحقاد داخل المسيحيّة الشرقيّة التي كان أساس وجودها دعوة مناقضة تماماً في جوهرها للتخاصم والتباغض، ألا وهي: المحبّة.

عندما كان الأمبراطور البيزنطيّ الأرمنيّ الأصل لاون الخامس (٨١٣-٨٢٠) يستجيب لطلب الخليفة العبّاسيّ المأمون (٨١٣-٨٣٣) الذي تسنّم سدّة الخلافة في السنة نفسها التي تسنّم فيها لاون سدّة الأمبراطوريّة، والذي أرسل وفداً إلى لاون في طلب الكتب اليونانيّة لنقلها إلى العربيّة، كانت الأجواء داخل الأمبراطوريّة تنذر بالشؤم، رغم أنّ هذا الأمبراطور كان قد أقسم يمين الولاء للكنيسة وقطع وعداً بأن يحافظ على عقائدها ومصالحها، إلاّ أنّ اعتماده على جنود آسيويّين يكرهون الأيقونات، جعله يخرج عن وعوده وتعهّداته، ليحاول، من جديد، التدخّل بشكل سافر بشؤون الكنيسة، فارضاً نزع الأيقونات، مثيراً بذلك النعرات الخطيرة التي سوف تتسبّب في جولة جديدة من النزاع. وعندما واجه الراهب ثيودوروس رئيس دير مار سابا في فلسطين الأمبراطور الذي دعا رجال الإكليروس إلى بلاطه للبحث في أمر الأيقونات، بقول صريح مفاده «أنّ البحث في الأمور الدينيّة منوط برجال الدين، وأنّ الواجب على الحاكم أن يطيع هؤلاء في أمور الدين لا أن يغتصب دورهم اغتصابا، وأنّ للحاكم أن يعنى بغير شؤون

الدين» كان جواب لاون أنّه «لا يرغب في حمل الناس على الاستشهاد[١]». إلاّ أنّه لم يمضِ وقت طويل حتّى أمر بنفي الأساقفة والرهبان الذين رفضوا التوقّف عن تكريم الأيقونات وبحبسهم، وكان من بين هؤلاء المنفيّين تيودوروس هذا الذي أصبح قدّيساً، وزميله في الرهبانيّة والموقف والقداسة: ثيوفانس، إضافة الى نيقيخوروس، بطريرك القسطنطنيّة القدّيس (٧٥٨-٨١٥) الذي خلعه لاون من البطريركيّة وعيّن مكانه علمانيّاً إسمه ثيودوتوس. هذا بعد أن عقد لاون الخامس مجمعاً محلّياً في ربيع سنة ٨١٥ في كنيسة الحكمة الإلهية في عاصمة حكمه، جعله يثبّت مقرّرات مجمع سنة ٧٥٤ المتعلّقة بتحريم الأيقونات[٢].

أدّت سياسة لاون الخامس إلى تهيئة الأجواء لتجدّد حرب الأيقونات، وهكذا فعندما زال حكمه إثر الانقلاب الذي أنهى حياته مذبوحاً داخل كنيسته الخاصة، على أيدي خصومه الذين توّجوا خلفاً له ميخائيل الثاني، سارع الأمبراطور الجديد إلى إيقاف التناحر بموضوع الأيقونات، وأعاد المنفيّين، وأعلن أن ليس له ان يبتدع في الإيمان والعقيدة، ولا أن يجادل في التقاليد الموروثة ولا أن ينقضها[٣].

إلاّ أنّ حكم ميخائيل الذي بدأ سنة ٨٢٠، لم يدم سوى تسع سنوات، خلفه بعدها ثيوفيلوس الأوّل (٨٢٩ - ٨٤٢) الذي اتّخذ له مستشاراً عدوّاً للأيقونات هو العالم الشهير يوحنّا الكاتب، وجعله بطريركاً على القسطنطينيّة. وقد هزئ هذا البطريرك بقرارات سائر البطاركة الشرقيّين، وهم باسيليوس الأورشليميّ، وخريستوفورس الإسكندريّ، وأيّوب الإنطاكيّ، رغم توجيهها اليه، وقد أوجبت المحافظة على التقليد واحترام الأيقونات، وبلغت به القساوة مبلغاً بعيداً على

١ - راجع: Vita Theodore, P.G., Vol. 99, col. 181 - 183

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ج ٢، ص ١٢٩، بالاستناد الى: Serruys D., Les Actes du Concile Iconoclaste de l'an 815, Mel. Arch. Hist. Ecole Fr. de Rome, 1903, 345 - 351

٣ - Amman E., Epoque Carolingienne, Fliche et martin, VI, 240

رجال الدين، إذ «كوى كفّي الراهب ألعازار بالحديد الحامي، وجلد تيوفانس وأخاه ثيودوروس الراهبين الفلسطينيّين ووسم جبينيهما بأبيات من الشعر نظمها بنفسه[١]».

كان من الطبيعيّ أن تؤدّي هذه الممارسات إلى ضعف في جسم الكنيسة الشرقيّة، وقد استمرّت تلك الأحوال الشاذّة حتّى وفاة ثيوفيلوس سنة ٨٤٢، واستلام زوجته ثيودورة مهامّ الحكم وصيّة على ابنها ميخائيل الذي كان لا يزال قاصراً في السادسة من عمره ، وكان أوّل ما أقدمت عليه في مجال حرب الأيقونات في الكنيسة، أنّها أعلنت عن موقفها المؤيّد لتكريم الأيقونات، ودعمت قادة الإكليروس القائلين بهذا التقليد، حتّى كان الأحد الأوّل من الصوم الكبير في الحادي عشر من آذار (مارس) ٨٤٣ «فخرجت ثيودورة في موكب عظيم إلى كنيسة الحكمة الإلهية يواكبها كبار الرجال للاستماع إلى القدّاس الإلهيّ، ولتقبيل الايقونات، ولطلب المغفرة لزوجهاالراحل، على خطيئته في اضطهاد من كرّم الأيقونات[٢]». ولا تزال الكنيسة الشرقيّة حتّى اليوم تعتبر الأحد الأوّل من الصوم الكبير يوم استقامة الرأي[٣].

واذا كان الانقسام المسيحيّ في الشرق حول الأيقونات قد بلغ حدّه النهائيّ على يد ثيودورة، فإنّ الوحدة بقيت بعيدة المنال، إذ توزّع الولاء على أحزاب سياسيّة – دينيّة، كان أكبرها حزبين، الأوّل ضم المحافظين المتطرفين في ميدان السياسة الدينية، وهم من الطبقتين الغنيّة والمتوسّطة ومن الرهبان الثوريّين، والثاني ضمّ جمهور الشعب والرعاة والكهنة وبعض الرهبان المعتدلين. وكان كلّ من الحزبين يحارب البطريرك إذا لم يكن من أنصاره، وقد أعاد هذا الصراع مسألة

١ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ج٢، ص ١٣٠؛ Papadopoulos, chrys., 1st. Ekk., 329.; Vasiliev A.A., Byz. Emp., 286

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ج ٢، ص ١٣١

٣ - Grumel v., Regestes des Actes du Patriarcat de constantinople. P. 425

الأيقونات إلى البروز بين وقت وآخر، وعاد الصراع على السلطة السياسيّة ليشرك الكنيسة في زمنيّاته، فساء وضع كنيسة القسطنطينيّة إلى حدّ جُعل معه رئيس الوزراء بطريركاً عليها سنة ٨٥٨، وهو يرجع في نسبه إلى أسرة يونانيّة عريقة تتّصل بالأسرة المقدونيّة، وكان اسمه فوطيوس ، وقد لُقّب بالعظيم.

رغم أنّ فوطيوس كان من عباقرة عصره، وكان مشهوداً له بصحة الإيمان وباستقامة الرأي، فإنّ رومة امتنعت عن الاعتراف به بطريركاً، ذلك أنّ طريقة تنصيبه كانت مرفوضة من قبل البابا نيقولاس الأوّل، إذ أنّ فوطيوس قد سيم في اليوم الأوّل متوحّداً، وفي اليوم الثاني أناغنوسطساً، وفي اليوم الثالث إيبوذياكوناً، وفي الرابع شمّاساً، وفي الخامس قسّاً، وفي السادس أسقفاً فبطريركا[١]!. كما لم يعترف بفوطيوس كل من بطاركة الاسكندرية واورشليم وإنطاكية.

أدّى هذا التعيين إلى مزيد من الخلافات داخل الكنيسة الشرقيّة، إذ تداعى خصوم فوطيوس ونادوا بإغناطيوس الذي كان بطريركا قبل رئيس الوزراء، فخلعه الأمبراطور. إلاّ أنّ الحكومة لجأت إلى نفي هذا البطريرك ومؤيّديه[٢].

وسط هذا الخلاف، عادت الصراعات جميعاً إلى الازدهار في جسم الكنيسة الشرقيّة، من مسألة الطبيعة والطبيعتين، إلى مسألة الأيقونات واللاأيقونات، مروراً بمسائل أخرى، برز فيها البولسيّون والمانويّون يعلنون الحرب على البطريرك. فكان لا بدّ من مجمع كنسيّ يحاول معالجة هذه القلاقل. فكان مجمع عُقد سنة ٨٦١ بدعوة من الأمبراطور في القسطنطينيّة، لم يحضره بابا رومة، بل حضر مندوبان عنه، وقد ثبّت هذا المجمع فوطيوس بطريركياً، ولم يعترف بحقّ إغناطيوس في البطريركيّة، كما أوجب تكريم الأيقونات، وقاوم فرق الهرطقة، ووضع بعض

١ - راجع: Hergenroither J., Photius Patriarch Von Konstantinopel, (3 vols.) Monumenta Gracca ad Photium Pertinentia.

٢ - Dvornik F., Photian schism, PP. 55 - 65

التنظيمات الكنسيّة، منها «ألاّ يقوم بعد ذلك بطريرك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرّس بدرجات الكهنوت درجة درجة ويتمّم المدّة القانونيّة فيها[1]». إلاّ أنّ هذا لم يكن كافياً كي يعترف بابا رومة بفوطيوس بطريركا على القسطنطينيّة. بل إنّ البابا دعا الى مجمع محلّيّ عُقد في رومة سنة ٨٦٣، أعلن إغناطيوس بطريركا شرعيّاً على القسطنطينيّة[2].

أدّى هذا التطوّر إلى سلبيّة خطيرة نشأت بين البابا في رومة من جهة، والأمبراطور في القسطنطينيّة من جهة ثانية، إذ ردّ الأمبراطور ميخائيل الثالث على قرار مجمع رومة بكتاب وجّهه إلى البابا نيقولاوس الأوّل، ضمّنه تعابير قاسية، وقد وصف الباب هذا الكتاب بأنّ «كاتبه قد غمس قلمه في حلق ثعبان». وقد ضمّن الأمبراطور كتابه أمراً «بحضور ثيوغنوسطوس ـ الذي مثّل البابا في مجمع القسطنطينيّة ـ إليه مع أعوانه للتحقيق معهم، وإلاّ فسيحضرهم بالقوّة». فكان ردّ البابا أنّ «السيّد، له المجد، هو الذي خصّ بطرس بهذه الصلاحيّات الواسعة، وأنّ بطرس منحها خلفاءه من بعده، وأنّ رومة وحدها تفخر بإقامة بطرس وبولس فيها ووفاتهما ضمن أسوارها، وأنّ بعد رومة تأتي الإسكندريّة وإنطاكية. أمّا القسطنطينيّة فإنّها اضطرّت إلى أن تستورد رفات إندراوس ولوقا وثيموثاوس. لذلك فإنّ الإمتيازات التي تتمتّع بها رومة تمنحها حقّ الإشراف على كنيسة القسطنطينيّة. وحصر حقّ الدعوة إلى المجامع بالبابا[3]».

وهكذا، كانت بداية الانشقاق العظيم، أو على الأقلّ كانت البوادر التي آذنت بذلك الانشقاق.

في الوقت نفسه ، كانت الصراعات على أشدّها في أوروبّة الشرقيّة بين

١ - Mansi, XVI, col. 536 - 548

٢ - Epist. VI, 517 - 523

٣ - راجع: Epist. VI, 474, 484; Lammer H., papst Nicolaus I und die Byzantinische staot-skièche

اللاتين من جهة، وأمبراطور بيزنطية من جهة ثانية. فقام فوطيوس بالدعوة إلى مجمع شرقيّ عُقد في القسطنطينيّة سنة ٨٦٧، صدر عنه «قطع للبابا نيقولاوس الأوّل، ومناداة بلويس الثاني، أمبراطوراً» وتقول المصادر الغربيّة إنّه لم يحضر هذا المجمع أيّ من كنائس الشرق، باستثناء فوطيوس الذي «عيّن ثلاثة رهبان من أتباعه من الرعاع الأردياء الموافقين لرأيه الفاسد لينوبوا عن بطاركة أورشليم وإنطاكية والإسكندريّة[1]».

مع بلوغ التوتّر بين رومة والقسطنطينيّة أخطر درجاته، شاءت الأقدار أن يقع حدثان بالغا الأهمّيّة في وقت واحد تقريباً، فقد توفي البابا نيقولاوس الأوّل في الثالث عشر من تشرين الثاني (نوڤمبر) سنة ٨٦٧، بعد أن كان قد حصل انقلاب في القسطنطينيّة أدّى إلى مقتل الأمبراطور ميخائيل الثالث في الرابع والعشرين من أيلول (سبتمبر) سنة ٨٦٧ . وقد خلف البابا نيقولاوس الأوّل البابا أدريانوس الثالث (٨٦٧-٨٧٢) وخلف الأمبراطور ميخائيل الثالث الأمبراطور باسيليوس الأوّل (٨٦٧-٨٨٦). وحاول الرجلان إيجاد صيغة لإعادة العلاقات الطبيعيّة بين رومة والقسطنطينيّة، فكان مجمع غربيّ في كنيسة القدّيس بطرس في رومة في حزيران (يونيو) ٨٦٩، صدر عنه رفض لقرارات مجمعَي القسطنطينيّة اللذين عقدا في ٨٥٣ و ٨٦١، وتحريم لفوطيوس، ووجوب إبعاد الآباء الذين اشتركوا في أعمال مجمع سنة ٨٦٧ عن مراكزهم الاكليريكيّة.

وافق الأمبراطور الجديد على مقرّرات مجمع رومة، وتمّ الاتّفاق، في المقابل، على عقد مجمع في القسطنطينيّة، بدأ أعماله في الخامس من تشرين الاول (نوڤمبر) ٨٦٩ حضره، إضافة إلى وفد رومة، ممثّلو بطاركة أورشليم وإنطاكية والإسكندرية واثنا عشر أسقفاً قسطنطينياً. وقد صدر عن هذا المؤتمر قطع لفوطيوس، وما هو أبلغ من ذلك أهمّيّة: «إن جسر أحد أن يتمثّل بفوطيوس،

١ - Hefelé - Leclerq, IV, 532

وديوسقوروس، ويكتب كتابة أو يقول قولاً يحطّ من كرامة كرسي بطرس هامة الرسل فليكن محروما مثلهم[1] ».

وإذا كان هذا الأمر قد قرّب بين رومة والقسطنطينيّة ، فهو لم يؤدّ إلى وقف الصراع داخل الكنيسة الشرقيّة التي أصبحت كنيستين: إغناطيوسيّة وفوطيوسيّة.

في هذه الأثناء ، كان المسلمون قد سيطروا على البحر ، وأصبحوا يهدّدون إيطالية ورومة ، بعد أن استقرّوا في صقلّية وباري وترنتوم. وإذ مات إغناطيوس، بطريرك القسطنطينيّة المبارَك من رومة، عاد فوطيوس إلى تسلّم عكّاز الرئاسة. كان ذلك سنة ٨٧٧، وكان على كرسي رومة البابا يوحنّا الثامن.

هذه المرّة، اعترفت رومة بفوطيوس بطريركا على القسطنطينيّة ، وكذلك فعلت كنائس الشرق الثلاث. وقد عقب ذلك مجمع عُقد في القسطنطينيّة، (٨٧٩-٨٨٠) أدّى إلى توافق الكنائس على أساس الإيمان النيقاويّ. إلاّ أنّ نهاية عهد فوطيوس جاءت هذه المرّة على يد الأمبراطور لاون السادس الملقّب بالحكيم (٨٨٦-٩١٢) ابن باسيليوس، الذي عزل البطريرك، ونفاه إلى دير الأرمورييّن حيث قضى سني حياته الأخيرة معتزلاً. وتعتبره الكنيسة الشرقية قدّيساً مطوّبا.

الإسلام والمسيحية يتجابهان

منذ انكفاء البيزنطيّين إلى القسطنطينيّة في عهد هرقل (٦٣٤-٦٤٢) لم يتسنّ لهم يوماً أن يحاولوا استرداد ما خسروه أمام الزحف الإسلاميّ. ولم تكن الانشقاقات التي حصلت في الجسم الإسلامي كافية لإضعاف الخلافة إلى حدّ استضعافها من قبل الروم. إلاّ أنّ ما حل بتلك الخلافة في نهاية العهد العبّاسيّ، قد أحلّ بها، على ما يبدو، تلك الدرجة من الضعف. وهكذا كانت نهاية القرن

١ - Ibid. 522

السابع، بداية تحوّل، لن يدوم طويلاً، في مسار الأحداث في الشرق. ذلك أنّه بعد ستّ سنوات من قيام الدولة العبّاسيّة، وتحديداً سنة ٧٥٦، « إستقلّت عنها إسبانية - الأندلس - تحت حكم الأمير الأمويّ الناجي من المذبحة العبّاسيّة: عبد الرحمن الأوّل (٧٥٦-٧٨٨)..... وقد أصبح فيما بعد أحد خلفائه، عبد الرحمن الثالث، في الأندلس، في السنة ٩٢٩، خليفة رسول الله وأمير المؤمنين والناصر لدين الله. وفي السنة ٧٨٨، حذا المغرب حذو إسبانية، ثمّ بلاد ما وراء النهر، في آسية الوسطى، السنة ٨٠١، وفي السنة ٨٢٢، فإنّ بلاد خرسان في إيران، التي صنعت الثورة العبّاسيّة وأطاحت بالخلافة الأمويّة في دمشق، ودعمت الخلفاء العبّاسيّين الأوائل بأشدّ أنصارهم، إنفصلت عن بغداد. وفي السنة ٨٧٢ حذت مصر حذو خرسان وانضمّ إليها، السنة ٨٧٧، فلسطين وسورية ولبنان[1] ».

حاول باسيليوس الأوّل الملقّب بالمقدونيّ ، الأمبراطور البيزنطيّ (٨٦٧-٨٨٦) استغلال هذا الظرف لمصالحة الروم، « فقام يحارب على طول الجبهة الإسلاميّة من شاطىء قيليقية حتّى أرمينية وطرابزون. ونجح في دفع المسلمين إلى الوراء في حروب متتالية بين ٨٧١ و٨٢٢. إلاّ أنّ هذه العمليّات هدأت في عهد ولد باسيليوس الأمبراطور لاوون السادس (٨٨٦ - ٩١٢) لتعود فتتجدّد في عهد قسطنطين السابع ورومانوس الأوّل (٩١٢ - ٩٥٩)، وقد تمكّن الروم من جعل دجلة والفرات في العام ٩٢٧ الحدّ الفاصل بينهم وبين العرب بدلاً من الهاليس. وبعد سنة، احتّلوا أرضروم وأخرجوا المسلمين من أرمينية. وفي ٩٣٤ استولوا على ملاطية، حيث اضطرّهم سيف الدولة[2] إلى التوقف عن تقدمّهم. ولكنّ هجماتهم

١ - بولس، التحولات، ص ١٧٩

٢ - سيف الدولة الحمداني (٩١٥ - ٩٦٥). هو علي بن عبد الله. ولد في ديار بكر (ميافارقين) وتوفي في حلب. أكبر ملوك الحمدانيين في سورية. انتزع حلب من الأخشيديين ومدّ نفوذه على شمال سورية سنة ٩٤٥. حارب البيزنط مدافعاً عن سورية. وقد ازدهرت الآداب والعلوم في عهده فنبغ في بلاطه المتنبي وأبو فراس الحمداني، وأبو نصر الفارابي الفيلسوف، وإليه قدّم أبو فرج الأصفهاني كتاب الأغاني.

تجدّدت في ٩٤١ و٩٤٢ إذ احتّلوا دارا ونصيبين[1] وميافارقين[2] وقاربوا حلب. غير أنّ سيف الدولة قد بدأ سنة ٩٣٨ بتسجيل انتصاراته على الروم، إذ دخل حصن زياد عنوة، ثمّ توغّل في بلاد الروم، واشتعلت حرب شهدت كرّاً وفرّاً، حتّى جاء الأمبراطور نيقوفوروس المعروف بنقفور الفقّاس (٩٦٣-٩٦٩) الذي قاد حملة ضدّ المسلمين وانتزع منهم كريت قبل أن ينادي به الجيش أمبراطوراً. وقد زاد الضرائب ليهتمّ بالجيش، واحتلّ بعض قيليقية وقبرص وقسماً من سورية بين ٩٦٤-٩٦٥، وكانت نهاية هذا الذي حاول أن يعيد إلى بيزنطية مجدها اغتيالاً على يد القائد يوحنّا شمشيق بالاتّفاق مع زوجته تيوفانو. وكان قد تمكّن من اقتحام عين زربة وأدنه ومن الاستيلاء على أسوس عند مدخل سورية، ثمّ من استعادة كامل قيليقية بعد أن كانت زهاء ثلاثة قرون قاعدة بريّة بحرية تنقضّ منها جيوش الإسلام وأساطيله على الأمبراطوريّة. وفي خريف سنة ٩٦٨ دخل حمص وعرقة وطرطوس وجبلة. وسقطت إنطاكية بيد الروم في ٢٨ تشرين الاول (أوكتوبر) من السنة نفسها بعد أن ملكها المسلمون أكثر من ثلاثة قرون. ثمّ سقطت حلب وبسط الروم سيادتهم عليها، ومنعوا حاكمها من فرض الجزية على المسيحيّين[3].

خلف نيقوفوروس قاتله يوحنّا جيمسكي الذي عرفه العرب بابن شمشيق سنة ٩٦٩، يوم كان على رأس الخلافة الفاطميّة في مصر الخليفة الرابع المعزّ لدين الله (٩٥٣ ـ ٩٧٥). وكان قد تمّ انتخاب بطريرك على إنطاكية سنة ٩٧٠ هو الراهب ثيودوروس، وقد انتقل هذا البطريرك الى المدينة المسيحيّة العظمى

---

١ - مدينة في ما بين النهرين (تركية حالياً) كانت منذ القرن الثالث مهد الآداب السريانية حتى سقوطها في أيدي الساسانيين سنة ٣٦٥. ازدهرت فيها مدرسة نسطورية أواخر القرن الخامس وحتى منتصف السادس.

٢ - قاعدة بلاد ديار بكر بين الجزيرة وأرمنية - تركية - سميت قديماً مارتيروبولس أو مدينة الشهداء لما جمع فيها من عظام الشهداء الفرس المسيحيين.

٣ - راجع: Schlumberger G., Nicéphore, PP. 730

واستأنف ممارسة صلاحيّاته هناك. كما عيّن الأمبراطور دوقا على المدينة بعد أن جعلها صالحة للدفاع.

حاول الخليفة الفاطميّ استعادة إنطاكية للمسلمين. ولكنّه لم يتمكّن من تحقيق مأربه رغم الحصار الذي فرضه عليها مدة خمسة اشهر بين ٩٧٠ - ٩٧١.

بعد محاولة فاشلة للاستيلاء على بغداد ، مقرّ الخلافة العبّاسيّة المتداعية الأركان في سنة ٩٧٤، قام جيمسكي في ربيع ٩٧٥ إلى انطاكية، ومنها انطلق قاصداً أورشليم. وبطريقه مرّت الحملة بدمشق حيث اعترف حاكمها سلماً بسيادة الأمبراطور الذي ترك فيها حامية مسيحيّة، بعد أن انتزع من حاكمها قبولاً خطّياً يقضي بدفع جزية قدرها ستون ألف دينار كل سنة. ومن دمشق مرّ بجبيل وبيروت التي أسر أميرها نصر الخادم، واستولى على بانياس وجبلة دون أن يتمكّن من طرابلس[1]، وتوجّه نحو فلسطين فدخل طبريّة وتسلّق جبل الطور تبرّكاً عافياً عن الناصرة احتراماً للسيّد.

وفي جبل الطور راح يتقبّل أداء الطاعة له من قبل حكّام أورشليم والرملة وعكّة التي أرسل إليها جميعاً حكّاماً عسكريّين مقيمين[2].

هذه الانتصارات التي حققها الروم في عهدَي نيقيفوروس (نقفور) ويوحنّا جيمسكي (ابن شمشيق) على حساب تفكّك الخلافة العبّاسيّة، كانت محكومة بقصر العمر بسبب استشراء حالات شهوة الحكم في القسطنطينيّة. ومثلما قُتل نقفور وهو في عزّ عطائه، قُتل ابن شمشيق بعد عشر سنوات من الحكم مغتالاً هذه المرّة بالسمّ، فكان نزاع دام على الملك في القسطنطينيّة بين الخصيّ باسيليوس، الذي حدّثته نفسه بالملك (وهو من كان يتولّى تربية باسيليوس وأخيه قسطنطين، ولَدي نقفور، ووليّي عهده، إذ كانا لدى موته قاصرين، وكانت أمّهما

---

١ - Eutichius, Ann., II, PP. 145 - 146

٢ - Laurier E, chronique de matthieu d'Edesse, PP. 16 - 24

ثيوفانو التي طالتها شهوة الحكم قد تآمرت على زوجها نقفور فأغرت ابن شمشيق بقتله) وبين برداس أسكليروس القائد الأعلى للجيش. وقد شهدت عاصمة البيزنطيّين حرباً أهليّة هائلة دامت أربع سنوات، أنست قادتها وشعبها ما كان قد تحمّس له الروم قبل سنوات، في حلم استعادة السيادة على الشرق، وقد بلغ هذا التحوّل السلبيّ حدّ أن لجأ أحد الزعيمين المتصارعين : برداس، إلى بغداد طالباً معونة الطائع: الخليفة العباسيّ (٩٧٤ ـ ٩٩١).

في الوقت نفسه نشأ صراع في إنطاكية على البطريركيّة بعد وفاة أغابيوس سنة ٩٧٧ . وقد أحدث هذا الصراع تفكّكا بين إنطاكية والإسكندريّة التي رفض بطريركها الاعتراف بأغابيوس أسقف حلب، بطريركاً على إنطاكية، مبرّراً رفضه بقوله أنّ أغابيوس ترك أبرشيّته ليصير بطريركاً مثل من يتزوج ابنة ثمّ يتركها ويأخذ والدتها، أو مثل من يطلّق زوجته ويتزوّج بسواها[1] . ولكنّ بطريرك الإسكندريّة عاد واعترف ببطريركيّة اغابيوس صوناً للوحدة ومنعاً للانشقاق ، ذلك بعد مراسلات طويلة تبودلت بين البطريركين[2].

أعاد الأمبراطور باسيليوس الثاني (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) الذي خلف ابن شمشيق شرعيّاً ، مسار الأمور إلى مجراها، فتمكّن من بناء قوّة عظمى بعد أن جيّش عدداً من الرجال لم يسبق له مثيل في تاريخ القسطنطينيّة، وراح يحارب على كافّة حدود الأمبراطوريّة، منهمكاً في الوقت نفسه بالقضاء على الثورات الداخليّة للطامحين بالحكم. وقد أنفذ الحملات ضدّ الحمدانيّين الذين نشأ بينه وبينهم صراع على حكم حلب وجوارها. ثمّ نازل الفاطميّين في سورية وردّهم عن حلب وقهقرهم حتّى أبواب دمشق. وعزل دوق إنطاكية وبطريركها لتقصيرهما عن الدفاع عن حلب، وولّى على إنطاكية دوقاً جديداً وبطريركاً آخر اسمه يوحنّا[3].

١ ـ Eutichius, Ann., II, PP. 150 - 154

٢ ـ راجع: رستم: كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ج ٢، ص ١٧٣ ـ ١٧٥

٣ ـ Eutichius, Ann., II, P. 177

تصاعدت الحرب بين الروم والفاطميّين بعد أن تسلّم الخلافة رجل قويّ هو الحاكم بأمره (٩٩٦ ـ ١٠٢١). وقد اضطرّ باسيليوس إلى أن يهبّ شخصيّاً إلى سورية لينقذ إنطاكية من هجمات ذلك الحاكم، وقبل نهاية القرن الأوّل بسنة واحدة تمكّن باسيليوس من السيطرة على حمص، ثمّ غزا بيروت وجبيل بعد أن حاصر طرابلس، ولم يلبث أن ضمّ فلسطين إلى أمبراطوريّته، ممّا اضطرّ الخليفة الفاطميّ القويّ إلى عقد صلح مع البيزنطيّين مدّته عشر سنوات[1] .

تأثّرت بيزنطية في هذه الحقبة تأثّراً واضحاً بالعربيّة الإسلاميّة حيث كان الدين هو مصدر الحكم، وحيث كان القتال باسم الدين. وساد شعور في القسطنطينيّة مماثل لذلك الشعور الذي كان سائداً في عواصم الخلافات، وإن كان مناقضاً له، لا بل معادياً.

ففي تلك العواصم كان الإسلام هو المصدر، وفي القسطنطينيّة كانت المسيحيّة. تحوّلت القسطنطينيّة في تلك البرهة من الزمن إلى شكل من «الخلافة» المسيحيّة، فأصبح الأمبراطور هو «خليفة» السيّد المسيح زمنيّاً، وأصبح الأمبراطور سيف المسيحيّة كما الخليفة سيف الإسلام. وفي ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ تحوّلت مدينة الأمبراطور إلى ما يشبه بلاط الحاكم باسم المسيح. وقد أبدع مؤرّخ اورثودوكسيّ لبنانيّ في وصف تلك الحالة:

«أصبح السيّد المخلّص في نظر الحكومة والشعب هو الملك، وأصبح الإنجيل دستور الدولة. فكنت إذا قصدت القصر الملكيّ تقرأ على جدران بعض البنايات: «المسيح الأمبراطور». وقد تسمع وأنت في طريقك إلى القصر جماعات يرتّلون. فإذا ما اقتربوا منك وجدتهم جنوداً حاملين الصليب عالياً هاتفين: «المسيح المُنتصر». وإذا ما وصلت إلى مداخل القصر، وجدت فوق العتبات أيقونات مقدّسة

١ ـ Schlumberger G., Epop. II, PP. 201 - 208

تمثّل المسيح مرتدياً لباس الملك متوّجاً. وإذا دخلت ظننت أنّك في كنيسة لا في قصر ملكيّ. فمن أيقونة للعذراء والدة الإله حامية العاصمة، إلى ذخيرة تضمّ عود الصليب، إلى أيقونة عجائبيّة تُمثِّل السيِّد مصلوباً كان قد ظفر بها ابن شمشيق في أثناء مروره في بيروت، إلى زاوية مكرّمة تحفظ حذاء السيّد الذي وجده ابن شمشيق في جبيل، إلى المنديل الذي كان لا يزال يحمل رسم وجه السيّد وقد احتفظت به الرها أكثر من تسعة قرون. وقد تقف قليلاً متأمّلاً مصلّياً فيدخل القاعة رئيس أساقفة تتبعه حاشيته وقد جاء خصّيصاً لتكريم هذه الآثار وتجديد التكريس. وقد تكون أحد اعضاء الوفود الإسلاميّة المفاوضة، فَيُتاح لك الدخول إلى قاعة العرش، فتجد العرش عرشين: أحدهما عليه الإنجيل الطاهر وهو عرش المسيح الملك، والثاني لنائبه على الأرض الأمبراطور. فإذا قابلت العرش الأوّل أو مررت من أمامه رسمت شارة الصليب بالأصابع الثلاثة وانحنيت إكراماً وإجلالاً. وقد تكون أحد القضاة الزائرين، فيدفعك اهتمامك بالقضاء إلى الوقوف في دار العدل لاستماع المرافعة وصدور الاحكام، فتذكر هناك أيضاً بأنّ الملك للسيّد له المجد. فالقوانين والأحكام تُستهلّ «باسم سيّدنا يسوع المسيح». وقد تكون تاجراً تضطرك الظروف إلى زيارة أحد المصارف لتقبض تحويلاً ماليّاً معيّناً، فتُنقد الدراهم والدنانير فتجد رسم السيّد المسيح على أحد الوجهين. وقد تكون عدوّاً محارباً في الجزيرة أو في سورية، فتعد جيش الروم بعدد معين من الصلبان. وقد تمتنع في قلعة شيزر كما فعل ابن كراديس في السنة ٩٩٩، ثمّ تلتمس الأمان من ملك الروم وتشترط شروطاً فيجيبك إلى ذلك وينفذ إليك صليباً. وقد تقع الهدن بين الروم والمسلمين، فينفذ ملك الروم صليباً من ذهب مرصّعاً أماناً لعدوّه ووفاء بالشرط. ولمّا كان الملك الحقيقيّ روحاً غير منظور، أصبح الملك الملموس رمز الملك السيّد ونائبه على الأرض: ثوبه ثوب الأيقونات، تاجه وصولجانه مشرّفان بالصليب المقدّس. ولـمّا كانت ثيابه هذه هبة ربّانيّة حملها الملائكة إلى قسطنطين الكبير، أصبح المحلّ الوحيد اللائق بحفظها هو الكنيسة. وأمسى قصر الأمبراطور

من حيث التخطيط وهندسة البناء وتزيين الزوايا والقبب والجدران أشبه بالكنيسة من أيّ بناء آخر. وأمست أبواب قاعة العرش تفتح وتغلق في أوقات معيّنة كأبواب الأيقونسطاس في الكنيسة، وقام العرش في حنية كعرش الأسقف في الكنيسة.

وقضت هذه الصلة بين الأمبراطور وبين السيّد الروح غيرالمنظور أن يظهر الأمبراطور ظهوراً على عرشه في الاستقبالات الرسميّة دون أيّ كلام، أو تبادل أفكار. وتغرّد الطيور الذهبيّة. وتزأر الأسود المصطنعة. ويسجد الحاضرون ثلاث سجدات. وما هي إلاّ لحظة حتّى يرتفع الأمبراطور بعرشه نحو السماء فيختفي. وإذا قضت الظروف أن يستقبل الأمبراطور في باسيليقه، جلس على عرشه الذهبيّ صامتاً مسبل الجفنين، فإذا ما رغب في شيء رفع جفنيه ونظر إلى رئيس الخصيان، فتصدر إشارة عن هذا فيتمّ تنفيذ الأمر الصادر دون كلام، وتنتهي المقابلة عندما يرسم الأمبراطور شارة الصليب فيخرج الزائرون متراجعين خاشعين. وقضت نيابة المسيح على الأمبراطور بأن يشترك مع البطريرك في ممارسة بعض الطقوس الدينيّة. فيخرج الاثنان إلى الشوارع بسحابة من البخور وموكب كبير. ويركب البطريرك حماراً أبيض، ويمتطي الأمبراطور جواداً عربيّاً، فيزوران في كلّ يوم جمعة كنيسة السيّدة حامية العاصمة. وفي يوم الخميس الكبير يتفقّدان العجزة في المآوى فيغسل الأمبراطور أرجل هؤلاء ويقبّلها مذكّراً بما فعل السيد له المجد[1] ».

وقد جاء في المدوّنات أنّه:« إذا خرج الأمبراطور إلى كنيسة الحكمة الالهيّة مشى أمامه إثنا عشر بطريكاً، وحمل هو بيده حقّاً من ذهب فيه تراب، فإذا مشى خطوتين وقف ونظر إلى التراب وقبّله وبكى. وما يزال يسير كذلك حتّى ينتهي إلى باب الكنيسة، فيقدّم رجل شيخ طشتاً وإبريقاً من ذهب. فيغسل الأمبراطور يده

---

١ ـ رستم: كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ج ٢، ص ١٧٨ ـ ١٨٠ بالاستناد الى: Guerdan R., Grandeurs et misères de Byzance, (Paris, 1954), 1 - 5; Ensslin W., Emperor and Imperial administration, Byzantium, (Oxford 1953), 273 FF.; Eutichius., Ann., II, P. 183

إبن العديم، زبدة الحلب، ص ٦٦

ويقول لوزيره: إنّي بريء من دماء الناس كلّهم، ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره ويأخذ دواة بيلاطس ويجعلها في رقبة الوزير ويقول له: دِن بالحق كما دان بيلاطس[1] ».

وهكذا نلاحظ أنّ الدولة عند الروم كانت تساس من قبل الأمبراطور والكنيسة فيما يشبه العقد السماويّ بين الاثنين، وإذ كان للأمبراطور كامل السلطة على الجسم، كانت سلطة البطريرك مقتصرة على الروح، فلا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة. فمنذ قسطنطين الكبير والأباطرة متمسّكون بهذا الاعتبار، فاتّخذوا مواقف تقرير في الكثير من الشؤون العقائديّة والإداريّة الكنسيّة. فدعوا إلى عقد المجامع، وعيّنوا البطاركة والأساقفة، لا بل فرضوا المعتقدات كما في حال المشيئة الواحدة على يد هرقل، والموقف من الأيقونات على أيدي سواه... وبذلك كان نوع من الشبه بين سلطة الخليفة عند المسلمين وسلطة الأمبراطور عند مسيحيّي الشرق.

وهكذا نرى أنّ الروم قد عرفوا بين نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر بداية استعادة المواقع التي كانت لهم في الشرق، خاصة وأنّ الخلافة كانت قد تشرذمت إلى خلافات، في وقت انتعشت فيه النخوة المسيحيّة في معقلها الشرقيّ الأخير. إلاّ أن التشرذم الذي أصاب المسيحيّة في ذلك العهد من التاريخ لم يكن أقلّ خطراً على المسيحيّة ممّا كان عليه التشرذم الذي أصاب الخلافة الإسلامية على الاسلام. وبينما كانت الخلافة الفاطميّة على مشارف الانهيار، والخلافة العربيّة في حكم الاستقالة لعروق دخيلة ومتعدّدة الأصول، والمسيحيّة في الشرق مترجّحة بين صعود وهبوط، كان المقلب الآخر للشمس: أرض الغرب، مسرحاً لأحداث دينيّة مسيحيّة سوف تؤدّي إلى حدوث ذلك الانفلاع العظيم الذي شقّ المسيحيّة إلى مسيحيّتين، فبات الصراع الدينيّ في الشرق كما في الغرب متعدّدالجبهات ومختلط

---

١ - المرجع السابق، ج ١، ص ١٨٠ نقلاً عن: ابن رسته، الاعلاق النفيسة، ص ١٢٣ - ١٢٦

المنطلقات والأهداف. وسوف تكون الحقبة التي عقبت انهيار الدولة العبّاسيّة حقبة فوضى دوليّة، يمكن، إذا دقّ التعبير، تسميتها بالحرب العالميّة الأولى التي حصلت قبل تلك المسماة بهذا الاسم بأقلّ من ألف سنة بقليل: إنّها حرب الإسلام والمسيحيّة ، إنّها بتعبير أصدق، حرب الشرق والغرب.

إنّ نهاية القرن الحادي عشر في هذه المنطقة من العالم، إن في المسيحيّة أم في الإسلام، كانت حقبة تحوّل أساسيّ دراماتيكيّ، إذ حلّت مكان العروبة عروق لا تمتّ إلى العروبة بأية صلة، وحلّت اللاتينيّة مكان الروم.. أمّا الحقبة الحرجة بين التحوّلين فكانت تلك التي طبعتها الخلافة الشيعيّة الوحيدة في التاريخ: الخلافة الفاطميّة.